١

الاسكندر الاكبر فى نظر الرومان

دكتور عبد العظيم الراعى
كلية الآداب جامعة القاهرة

لا جدال فى القول ان الرومان لم يستطيعوا منافسة الاغريق فى المجالات الفكرية والفنية (١) ، لكنهم عوضوا ذلك عن طريق سيادتهم العسكرية على كل انحاء العالم المأهول . وعلى الرغم من أن روما تأثرت الى حد كبير بالنظم العسكرية الاغريقية والاتروسكية أيضا — الا أنه مع مرور الايام عملت الدولة على تطوير انظمتها وحياتها العسكرية بما كان يتفق واخلاق سكانها وحجم توسعاتها الداخلية والخارجية . كما أن روما لم تتأثر بأى أمه سبقتها فيما يخص شغف أهلها الدائم للقتال وبسالتهمفى ميدان المعارك (٢) ومرد ذلك يرجع الى مدى تمسكهم بعاداتهم وسنن أسلافهم واعتزازهم بقوميتهم (٤) . ومن ثم لم يتسامح الرومان مع أى أمه سواء فى الغرب أو فى الشرق بوجه عام قد تحاول منافستهم فى المضمار العسكرى — الأمر الذى دفعهم الى الانتقاص من حق البطولات العسكرية الاغريقية ومن بطولات الاسكندر الأكبر (٥) .

ومع التسليم بتفوق الاغريق على الرومان فكريا وفنيا — لكن هذا لم يمنع من ظهور حركات أدبية قومية لمناهضة التراث والفكر الاغريقى — بل والمناداة بوجود أدب رومانى نابع من صميم البيئة الرومانية قلبا وقالبا (٦) . مما دفع بزعماء روما الى اجهاض أى قوة أو نفوذ هللينى يمكنه ان آجلا أو عاجلا تهديد القومية الرومانية وتراثها . لذا كان الشرق الهللينى بالنسبة لايطاليا ذو أهمية بالغه ليس فقط من الناحية العسكرية بل أيضا من الناحية الفكرية . ولعل مما دفع الرومان الى أهمية الشرق من الوجهة العسكرية هو ظهور الاسكندر الأكبر على مسرح الأحداث العالميةومحاولة أحد أقاربه غزو ايطاليا .

ويحق لنا هنا التساؤل – هل كانت شخصية الاسكندر هذا دافعا قويا وراء كراهية الرومان للاغريق ؟ واذا سلمنا بهذا – فالى أى مدى بلغت هذه العداوة حدتها ومدى تأثيرها على المجتمعين الرومانىوالاغريقى؟ ثم ما الذى حدى بالرومان أخيرا وخاصة منذ القرن الثانى قبل الميلاد الى تغيير وجهة نظرهم تجاه الشرق الهللينستى واتخاذهم الاسكندر مثالا للبطولة والسير على منواله – سلوكا وعادات وتقاليدا وتقمصا لشخصيته ؟.

للاجابة على ماسبق ، سنمر بمرحلتين هامتين فى تاريخ الرومان والاغريق . اذ نلمس فى الأولى كراهية الرومان ودوافعها – للاغريقعامة وللمقدونيين بصفة خاصة . ففى هذه المرحلة كان الاغريق والمقدونيون فى قمة مجدهم السياسى على حين كان الرومان فى حالة توسع وخروج من عزلتهم الى عالم البحر المتوسط الغربى والشرقى . أما المرحلة الثانية – نجد أن المقدونيين والاغريق قد أفل نجمهم السياسى وحل بهم الضعف ثم وقوعهم فريسة فى أيدى الرومان بعد ذيوع صيتهم كأعظم قوة عسكريةفى أوربا وآسيا . كما ندرك فى هذه الفترة تغيير وجهة النظر الرومانية ودوافعها نحو المقدونيين والاغريق . وعمل زعماء روما على محو آثار الكراهية وتسامحوا مع مواطنى المدن الاغريقية ومنحوهم أعز شىء لديهم – الحرية والاستقلال . ثم اتخاذهم أبطال الاغريق وبالذاتالاسكندر الأكبر مثلا أعلى لهم فى حياتهم العامة والخاصة المدنية منها والعسكرية .

حقيقة ان الباحث فى تاريخ وحياة الاسكندر تواجهه مشكلة صعبة الا وهى التأكد من فكرة كراهية الرومان له وهو على قيد الحياة ، أم ان هذه الفكرة جاءت نتيجة للدعاية السياسية التى راجت بعد وفاته . فمن المعروف أن قصة حياته نقلت الى مختلف لغات العالم وصادفت رواجا منقطع النظير خاصة فى العصور الوسطى . وعلى الرغم من أنها مليئة بالخارفات والأساطير – لكنها لاتبعد كثيرا عن جوهر حياته . ولعل ذلك يرجع الى أن معاصريه من الكتاب لم يكن فى استطاعتهم التعرف على جميع جوانب حياته العامة والخاصة . بل يقال ان الاسكندر لم يجد من بين رجاله من هم أجدر بتسجيل جلائل أعماله . أضف الى ذلك انالذين كتبوا عنه أثناء حياته قد فقدت أعمالهم ولم يتبق لنا سوى شذرات

موجودة فى تقرير كتبه بطليموس الأول واعتمد عليه المؤرخ اريانوس . على كل من الصعب الجزم بأن الرومان كرهوا الاسكندر كراهية عمياء أثناء حياته . وانما من المعقول بعد وفاته وهذا راجع الى الهاله التى أحاطت بقصة حياته وبطولاته . وتجسدت عداوة الرومان للاغريق فى بداية الأمر كما اشرنا من قبل (٧) . ولنعود الآن الى شرح تفاصيل كل مرحلة من المراحل التى ألمعنا اليها آنفا .

المرحلة الأولى :

قبيل الدخول فى تفاصيل هذه المرحلة يجب القاء نظرة عابرة على العلاقات الرومانية اليونانية قبيل تفاهم الأمور بينهما وذلك ابان العصر الهللينستى . امدتنا المصادر الأدبية والآثار بمعلومات أكدت قيام علاقات بين الأمتين منذ القرن الثامن قبل الميلاد (٨) . وهناك ما يشير أن الرومان وخاصة البارزون منهم زاروا بلاد الاغريق اما لاغراض تجارية أو دينية وتعليمية (٩) . وفى عام ٤٥٥ سافرت بعثة رومانية الى أثينا لنسخ تشريعات صولون (١٠) . ويقال بأن تشريعات ملك روما الأسطورى نوما تأثرت بالأفكار الفيثاغورثيه (١١) . ولا سبيل الى الشك فى القول أن اللغة اللاتينية قد تأثرت الى حد كبير باللغة اليونانية خاصة المصطلحات التجارية وأسماء البضائع (١٢) هذا اذا صرفنا النظر عن مدى تأثرها بالاجروميه اليونانية (١٣) .

ولكن يجب التوقع بأن العلاقات بين الغرب والشرق لم تكن دائما يسودها الوفاق . اذ تخللتها صراعات واحتكاكات عسكرية مباشرة وغير مباشرة . فلقد ساءت العلاقات بينهما عندما قامت مدينة كوماى بايواء تاركوينيوس المتغطرس آخر ملوك روما السبعة (١٤) . ويفهم من ليفوس انه فى عام ٣٤٩ واجهت روما قراصنة اغريق عسكريا فور اغارتهم على شاطىء لاتيوم (١٥) .

كما أنه فى عام ٣٢٨ تفاقمت الأمور بين الرومان والاغريق بسبب أزمة مدينة **Palaepolis** (١٦) . وهناك قول يفيد بأن روما أرسلت سفارة الى الاسكندر الأكبر لتشكره على تطهير الادرياتيكى من القراصنة (١٧) وعندما استنجدت ثارنتم ببنى جلدتاه اغريق الشرق لانقاذها من الوقوع فى

قبضة الرومان — هب الاسكندر ملك ابيروس على راس قوات عسكرية كان قد بعث بعضها اليه الاسكندر المقدونى . لنجدة اغريق الغرب (١٨) وفعلا تحركت القوات الابيروسية تجاه ايطاليا ونجح قائدها فى تحقيق البعض من احلامه — لكن الأجل لم يمتد به كى يحقق كل ما كانت تصبوا اليه نفسه — خاصة وانه كان يحلم بحكم امبراطورية عالمية فى غربى البحر المتوسط لتنافس امبراطورية الاسكندر الأكبر فى الشرق (١٩) . أضف الى هذا تعلم الرومان درسا قاسيا من بجهوس ملك ابيروس الذى حاول جاهدا انشاء امبراطورية له على حساب الغرب تعويضا له عما فقده من ممتلكات فى مقدونيا (٢٠) .

ادرك الرومان وقتئذ أن الحكمة تقتضى اتخاذ أقصى التدابير اللازمة للوقوف ضد اى محاولة من قبل الشرق الهللينستى — وأصبح ماثلا فى اذهانهم بأن فى الشرق يكمن الخطر كل الخطر . ومن ثم عملوا بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة للتصدى له مهما كلفهم الثمن . ويتضح هذا من خلال ماكتبه المؤرخ الرومانى ليفيوس — الذى اتخذ من حملة اسكندر ملك ليبروس مدعاة لالهاب شعور الرومان وتزكية روح البغضاء ضد اغريق الشرق — هذا على الرغم من أنه لم يكن معاصرا لهذه الحملة — ولقد حذر هذا المؤرخ روما من مغبة التهاون فى معاملة سكانه (٢١) . ولعل مما زاد من مخاوف الرومان هو انهم لمسوا فى فتوحات الاسكندر الأكبر بأنها تعد تهديدا غير مباشر لمصالحهم فى الغرب والشرق ايضا . وربما وضعوا فى اذهانهم أن الملك المقدونى بعد اخضاعه الشرق يحاول غزو الغرب ولم لا؟ وهو الذى ساعد اسكندر ابيروس فى حملته ضد ايطاليا .

وجدير بالذكر أن الخوف والرهبة من الشرق الهلليستى قد بلغتا حدتهما ابان مراحل الصراع الرومانى — المقدونى أو قل ان شئت منذالربع الأخير من القرن الثالث (٢٢) . اذ انتاب الرومان احساس سيطر علىزعماء روما وقادتها بصفة خاصة بأنهم يقاتلون ضد عدو شديد المراس وذلك أثناء اشتعال نيران الحروب المقدونية . ففى الحرب المقدونية الأولى والثانية أدرك الرومان بأنهم ينازلون الاسكندر الأكبر هذا مع العلم من أن فيليب الخامس كان وقتذاك ملكا متربعا على عرش مقدونيا (٢٣) . ولدينا ما نقوله أن غزوات الاسكندر فى الشرق — كانت وراء حماس الرومان

وأيضا المقدونيين أثناء الحرب المقدونية الثانية . اذ يحدثنا بلوتارخوس عن مدى استعداد كل منهما للقتـــال وبروح عالية لحاجة نفسهما (٢٤) . فلقد كان هدف روما الرئيسى هزيمة المقدونيين — أولئك الذين ذاع صيتهم فى الآفق — كرجال اقوياء وأصحاب جيش لا يقهر منذ مطلع القرن الخـــامس قبل الميلاد (٢٥) . وذلك لسببين — القضاء على مقدونيا عسكريا ونسف انجازات الاسكندر أيضا ثم منع المقدونيين من التحالف مع الد أعداء روما فى الغرب — خاصة وانهم خبروا عن قرب خطورة تحالف فيليب الخامس مع هانيبـــال (٢٦) . أما المقدونيون — فـــكانت كل اهتمامهم تنحصر فى القضاء نهائيا على روما — تلك الدولة التى بدأت تدس أنفها فى شـــئون الشرق الهلليستى منذ القرن الثالث — والتى كانت بالأمس تحت رحمـــة أحد أقارب الأسرة المقدونية الحاكمة — ثم أصبحت تملى ارادتها عليهم . كما أنهم وجدوا فى قوة روما السياسية والعسكرية واتســـاع نشاطهـــا الاستعمارى فى الغرب والشرق — بأنها لا تقل همجيـــة وشراســـة عن الفرس . وعليه حث رجالات مقدونيا فيليب الخامس على أن يؤكد أثنـــاء قتاله ضد الرومان — أنه لا يقل عن الاسكندر قولا وعملا — بل يفوقـــه عظمة وكفاءة (٢٧) . أضف الى هذا — أنه بعد الحرب المقدونية الثالثـــة والتى أسفرت عن هزيمة برسيوس — هلل الرومان على أثر وصول ملك مقدونيا هذا أسيرا الى المعسكر الرومانى — وعم الجميع الفرح ليس فقط من أجل استسلامه — بل أيضا لاحساسهم بأن امبراطورية الفاتح المقدونى ستصبح ملكا للشعب الرومانى (٢٨) .

ومع أن مقدونيا قد تحولت الى ولاية رومانية — لـــكن الرومان لم ينسوا بين يوم وليلة أعداءهم المقدونيين . كما أن هؤلاء المقدونيين بالتالى لم يتغاضوا عمـــا فعله معهم الرومان بالامس القريب . وهكذا اشـــتدت المنافسة بين الغرب الرومانى والشرق الهللنستنى . ولعل مما ساهم فى الهاب شعور الرومان نحو الشرق — ذلك الدور الذى قام به كتاب روما ونخص بالذات ليفيوس — الذى نجح فى تحويل تصور الرومان الى حقيقة مثلت فى أذهانهم . هذه الحقيقة كما جسدها مؤرخنا كانت تكمن فى القول — ماذا سيحدث للعالم الغربى لو أن الفاتح المقدونى ولى وجهه شـــطر الغرب قبيل الشرق ؟ أو ماذا سيكون مصير روما لو أن الاسكندر امتد به

الأجل وواصل زحفه نحو الغرب خاصة وانهم علموا بوصوله حتى الحدود الليبية (٢٩) ؟

وعليه يتبين بأن ليفيوس قد شن حملة شعواء على الاسكندر وعمل على تشويه سمعته لدى رومان عصره . ومهما اختلف آراء العلماء حول تفسير أسباب عداوة هذا المؤرخ للملك المقدونى (٣٠) ـ فلا شك أنه هو شخصيا كان معجبا بعظمة الاسكندر وقدرته السياسية والعسكرية (٣١) ـ الا أنه خشى على زعماء روما من خطورة التهاون مع الشرق مجسدا هذا الخطر فى توسعات الاسكندر . كما أنه ككاتب رومانى كان متمسكا بالنعرة القومية الرومانية ـ تلك التى رفضت بشدة أن يكون للرومان أى منافس عسكرى ـ وعليه أفاد هذا المؤرخ بأن سمعة وشهرة الاسكندر مبالغ فيها الى حد كبير ولدى الرومان ابطال يضارعوه شخصية وبطوله . فضلا عن هذا تأثر مؤرخنا هذا كغيره من كتاب عصره بالدعاية الاغريقية ـ وخشى على بنى قومه من التأثر بها ـ تلك الدعاية التى صورت للرومان أن الاسكندر الأكبر شخصية فريدة لا مثيل لها فى التاريخ وكان من الواجب عليه كفاتح عظيم دان له الشرق ـ اخضاع الغرب ـ زيادة على ذلك ـ تأثر ليفيوس ببعض الآراء الفلسفية الاغريقية ـ التى ساهمت بدورها فى تشويه سمعة الملك المقدونى ليس فقط العالم اليونانى بل أيضا فى روما نفسها (٣٢) . ويبدو أن هذا المؤرخ قد علم بما نشر من مخططات الاسكندر الخاصة بفتح أفريقيا وأوربا (٣٣) .

المرحلة الثانية :

منذ ان بسط الرومان سيادتهم على كل مقدونيا والدويلات الاغريقية ـ حدثت تغييرات جوهرية فى نظره كل منهما قبل الآخر . وجاء ذلك نتيجة لما جد من احداث سياسية وتطورات اجتماعية فى الغرب والشرق الهللينستى . اذ بعد هزيمة فيليب وبرسيوس آلت الى الرومان مسئولية جسيمة ـ الا وهى حرية العالم الاغريقى سواء فى أوربا أو فى آسيا الصغرى (٣٤) . ولكن كيف يتم لهم ذلك ؟ لابد وأن يبحث الرومان عن سبل شرعية فى نظر الاغريق على الأقل ـ كمحاولة للتفاهم معهم ـ لادراكهم أن الاغريق كما أشارت مؤلفاتهم يسمونهم « بالبرابرة » (٣٥) .

وهكذا كان على زعماء روما محو آثار هذه التفرقة ليمهدوا الطريق أمامهم لتدعيم نفوذهم .

وكان الحل الأمثل فى نظر الرومان هو الأخذ بأهداف الحضارة الهللينية واتخاذ أبطال وزعماء الاغريق نماذج يحتذى بها كل من يتولى منصبا فى هيئة الحكم والادارة الرومانية سواء فى الداخل أم فى الخارج. زيادة على ذلك . عرف الرومان عن كثب مدى شغف المدينة — الدولة الاغريقية الى حياة الحرية والاستقلال . ومن ثم أخذوا على عاتقهم مسئولية الدفاع عن نظم ودساتير تلك الدويلات — بل والحد من الحروب الطاحنة التى كانت تنشب دائما بينهم ، وهذا أبلغ ما كان يتمناه أى مواطن اغريقى — خاصة من كان يتولى منصبا قياديا أو يعمل بالاقتصاد (٣٦) . أضف الى هذا — أن روما استغلت وجود أنصار لها مؤيدون لسياستها فى العالم الاغريقى بهدف الدعاية السياسية والعسكرية لها (٣٧) . وخير برهان على ذلك — تحذيرات المؤرخ بوليبيوس لاغريق عصره — بأن روما دولة عسكرية من الطراز الأول ويجب عليهم عدم الوقوف أمامها (٣٨) . أما الاغريق فلم يكن لهم سوى حل واحد — وهو التسليم بسياسة الأمر الواقع ولم لا ؟ فهم بالامس كانوا تحت السايدة المقدونية (٣٩) . الا أن هذا لم يمنع من ظهور موجات السخط والكراهية ضد الرومان سمعنا صداها فى النبوءات اليونانية (٤٠). وعلى كل نخلص بالقول أنه نتيجة لتلك التطورات التى طرأت على الرومان والاغريق — أصبح الرومان بعد توكيد سيادتهم على أغريق الشرق ورثة امبراطورية الاسكندر الأكبر — لذا شرعوا فى اتخاذ شخصية الفاتح المقدونى كشخصية عزيزة على قلوب اغريق الشرق مثالا يتسابق على احتذائها زعماء روما السياسيين . ومن ثم لانعجب عندما نرى قصة حياة وأعمال الملك المقدونى قد أضحت موضوعا رئيسيا فى التعليم الرومانى (٤١) .

ومن يقف على قصص الفتوحات الرومانية فى الشرق الهللينستى وسير عظماء الرومان يدرك أن شخصية الاسكندر كانت من أهم العوامل التى دفعت بجنرالات روما الى اتباع سياسة التوسع مقلدين اياه خاصة فى الشرق وفى روما أيضا . كما تبنى الرومان أفكار ومبادىء الملك المقدونى والخاصة بمزج شعوب العالم فى بوتقة حضارية واحدة — بهدف ربط

كل شعوب ولاياتهم برباط واحد وثيق بصرف النظر عن قومياتهم . وتأكيد لهذه الأفكار بدأ الرومان رويدا فى منح الجنسية الرومانية لرعاياهم (٤٢) ومن ثم يمكن القول دون مبالغة أن أهداف وأمانى الاسكندر على الرغم من أن خلفاؤه قد تخلوا عنها ـ أخذت روما على كاهلها تحقيقها واجلالا لهذا الفاتح لقبوه بالاسكندر الأكبر (٤٣) . ولا نعجب أيضا عندما نرى كتاب وشعراء وفنانى وزعماء روما قد خلبهم جمال الاسكندر الأخاذ ونظرته الثاقبة ـ مما دفعهم الى التشبه فى صورهم وتماثيلهم (٤٤) .

وهكذا اتبع القائد الرومانى فلامينوس سياسة الاسكندر بكل من مقدونيا وبلاد الاغريق ومن ثم نودى به الها بمدينة خالكيس بعد تحريرها (٤٥) . كما ربط آل سكبيو أفريكانوس بين قصة ميلاد الاسكندر وسكبيو . فلقد قيل بأن والدة الأخير ضاجعها ثعبان مقدس فحملت منه سكبيو (٤٦) ، وتلك القصة دبجت أيضا بالنسبة لقصة ميلاد أوغسطس (٤٧) . وفى عام ١٩٠ زار لوكيوس سكبيو مدينة طروادة وقدم القرابين لربه أثينا مقلد فى ذلك مافعله الاسكندر فور وصوله الى تلك المدينة (٤٨) . وتبين من أعمال لوكيللوس فى آسيا الصغرى أنه ظهر هناك وكأنه راعيا للاغريق ولآدابهم وفنونهم اذ أعاد بناء مدينة اميسوس ووسع حدودها ومنحها الاستقلال الذاتى (٤٩) . وفى هذا لدليل على أنه سار على درب الاسكندر عندما أعاد الى تلك المدينة النظام الديمقراطى(٥٠)

وعندما كان بومبى فى الشرق عمل على اصلاح ما أفسده الرومان من قبل (٥١) . لهذا رفع الى مصاف الآلهة ثم قلد لوكيللوس فى مصالحته للاغريق . وكان هذا الزعيم تواقا الى مقارنة نفسه بالاسكندر . وقيل أنه يحمل شبها كبيرا من الفاتح المقدونى . خاصة شعر رأسه (٥٢) . ومما شجعه على ذلك ـ اغريق آسيا الصغرى الذين اعتبروه خليفة للملك المقدونى (٥٣) . ولقد سار بومبى على درب الاسكندر فى اغرقته لمنطقة بونطوس وسمى بعض المدن باسمه (٥٤) . وفى عام ٨١ أطلق بومبى هذا على نفسه لقب عظيم Magnus (٥٥) . ولم يتردد لحظة واحدة فى ارتداء عباءة الاسكندر (٥٦) . وكالاسكندر كان يثور لأتفه الأسباب ـ اذ يحدثنا سترابون أن الخطيب ايسخينيس عوقب بالنفى لتطاوله على بومبى (٥٧) .

ويخبرنا سيوتنيوس أنه اثناء وجود يوليوس قيصر فى أسبانيا شاهد تمثالا للاسكندر بمعبد هيراكليس فى مدينة قادش . عنـدئذ بكى الزعيم الرومانى نادبا حظه لأنه لم يحقق وهو فى عمر الاسكندر من أعمال مجيدة مثلما حقق الفـاتح المقـدونى . ويرى أن فكرة سيادة العـالم اختمرت فى ذهن قيصر وقتذاك (٥٨) . وبهذا يتضح لنـا من قوله ان قيصر اتخذ من شخصية الاسكندر مثالا وقدوه له فى حيـاته وأعماله — مثلما اتخذ الفاتح المقدونى اخيلليوس بطل الالياذه (٥٩) . وعليه نجد هـذا الزعيم الرومانى أقيمت له عبادة خاصـة فى آسيا الصـغرى وببلاد الاغريق وكرمه أهل مدينة ديمترياس بمنطقة تساليا على اثر تحريرهـا . بخلعهم عليه لقب اله . كما امتدحه أهل افيسوس وأفادوا بأن شجرة نسبه ترجع الى آريس وافروديتى وكان فى نظرهم يعد ربا للخير ومنقذا للجنس البشرى بهذا أصبح قيصر خليفة للملك المقدونى المؤله وقام هذا الزعيم من جانبه بتعزيز ذلك الاعتقاد عن طريق توزيع بعض الأراضى على أهـل طروادة ومنحها فى الوقت نفسه الحرية والاستقلال . ويرى ابيانوس أن قيصر كان كالاسكندر رجلا محبا للسـلام وطموحا وماهرا فى فنون الحرب سريع التنفيذ فى اتخاذ الاجراءات . ويرفعـه هذا المؤرخ الى درجة عالية عندما قارنه بالاسكندر . اذ يقول ان الزعيم الرومانى شق طريقـه الى الحكم بصعوبة وكان عليه كسب ود روما وهـذا أمرا غير يسير وليس من السهل تحقيقه بالنسبة لأى شخص عادى . أما الاسكندر بنى مجده وشهرته على أساس ملكى ثابت وموروث. اذ آلت اليه مقدونيا وحكم الدويلات الاغريقية دون مشقة تذكر — فلقد ورث ذلك عن أبيه (٦٠) .

هلل المصريون لانطونيوس لاحترامه العادات والتقاليد المصرية ودخوله مجمع الآلهة المصرية أيضا ورعايته لـكل ماهو أغريقى . وبهذا سار على نهج الاسكنـدر والبطالمـة من بعـده . ولقد زعم أنه سليل أوزيريس وديونيسوس وكليوباترا سلينى وايزيس (٦١) . فضلا عن هذا — أنه سمى ابنته من كليوباترا السابعة بالاسكندر هليوس . ويقال أنه غطى جثمان بومبى بعبـاءته مقلدا الاسكندر عنـدما غطى جسد داريوس (٦٢) .وفور وصول أوغسطس الى أرض وادى النيل تسامح مع السكندريين احتراما للاله سرابيس والاسكندر مؤسس الاسكندرية . وأبدى رغبة شديدة فى رؤية جثمان الملك المقـدونى ووضع عليها أكليلا من الزهـور وتاجا من

الذهب (٦٣) . هام أوغسطوس حبا بالاسكندر وشبه نفسه به ووافق على ظهور صورته على الأختام قبل ظهور صورته شخصيا عليها (٦٤) .ويشير سترايون أن أوغسطس لقب بصديق الاسكندر (٦٥) .

كان الامبراطور كاليجولا مولعا بتأليه نفسه ــ ومن ثم تشبه باله الشمس فى مدينة كيزيكوس . كما أراد أن يكون وريثا لمكانة الاسكندر وميترادا تيس وانطونيوس وابنا للاسكندر هليوس (٦٦) . ولدينا مايؤكد بأنه حمل درع الاسكندر المقدونى (٦٧) . أبدى نيرون رغبة ملحة فىتشبيه نفسه بالملك المقدونى (٦٨) . وأعجب الامبراطور تراجانوس ايما اعجاب بالاسكندر وسار على دربه والطرق التى سلكها الاسكندر أثناء حملاته فى الشرق . وفى ١١٤ ذكر بأن هذا الامبراطور رغب فى الوصول حتى حدود الهند ووصل الى مدينة بابل وتكريما للملك المقدونى ــ زار الحجرة التى فاضت فيها روح الاسكندر وقدم القرابين (٦٩) . وعثر فىأنقره علىدرع وظهر عليه صورة هذا الامبراطور وكانت تحمل شبها كبيرا من الفاتح المقدونى (٧٠) . أما الامبراطور كومودس حمل لقب رئيس الصادين ــ نسبة الى عبادته للاله هيراكليس الذى شبه به الاسكندر كما وصف هذا الامبراطور بالقائد المنتصر الذى لايهزم ــ مقارنا نفسه بهراكليس والاسكندر (٧١) . كما حمل جايوس بسكينوس لقب الاسكندر الجديد(٧٢) .

تأثر كاراكالا بالفكر والثقافة الاغريقية وله مؤلفات باليونانية أيضا (٧٣) . اقتنع هذا الامبراطور بأنه اسكندر عمره واتخذ الاسكندر المقدونى بطله المفضل ثم عمل على تقمص شخصيته باستخدامه أدوات الطعام والشراب التى كان يستعملها الملك المقدونى . كما شغف حبا باستخدام أسلحته الخاصة وذهب الىأبعد من ذلك ــ عن طريق اقامته تماثيل للاسكندر أمام معسكرات الجيش الرومانى وفوق الكابيتوليوم .أعاد تشكيل فرقه العسكرية علىنظام الاسكندر العسكرى وسمى بعضجنرالاته بأسماء مقدونية خاصة أسماء كبار جنرالات الملك المقدونى (٧٤) . ثم قلد ملك مقدونيا فى زيارته لقبر اخيلليوس بطراوده . وخاطب مجلسالشيوخ بأن أوغسطس الشرق هو اسكندر مقدونيا (٧٥) . زد على ذلك انهاطهد بعض فلاسفة المدرسة المشائيه وحرمهم من بعض الامتيازات لاعتقاده أن أ سطو قد تسبب فى وفاة الاسكندر . لقد ارتدى هذا الامبراطور

الملابس المقدونيــة وزين رأسه بقرنى الاسكندر ــ الأمر الذى ثار سخرية السكندريين (٧٦) منه . أسس كاراكالا مدنا جــديدة وأعاد بنــاء البعض منها تيمنا بالاسكندر واتخذ لنفسه زوجة شرقية (٧٧) . كمــا تبنى فــكرة الاسكندر الخاصة بتوحيد العــالم وذلك عن طريق منح الجنسية الرومانية لمختلف شــعوب الامبراطورية الرومانيــة ــ مثلما فعل الاسكنــدر مع العناصر الغير يونانيــة والفرس أولئك الذين كانوا فى أيام الملك المقدونى ــ يعتبرون فى نظر أستاذه أرسطو برابرة (٧٨) .

مجد الاسكندر سفيروس أخيلليوس والاسكنــدر المقــدونى وسكت عملة ذهبية فى عصره وظهر عليها هذا الامبراطور شبيها بالاسكنــدر (٧٩) ــ وفى مدينة أزمير صدرت عملة من عهد آل ســفيروس ــ على أحــد وجهيها أسطورة هوميروس (٨٠) . وهــذا يعد دليلا على اتخاذ الأباطره الرومان سلوك الاسكندر مناهجا لهملأننا وكما نعرفأن الاسكندر المقدونى ــ كان محبا للشاعر الخالد ــ هوميروس وحمل اليــاذته معــه فى كل رحلاته (٨١) . ومنذ عهد هذه الأسرة حتى أيام فيليب الثانى « العربى » ٢٤٩ ميلادية ــ ظهرت صور وتماثيل الاسكندر على عملة عاصمة الحلف المقــدونى (٨٢) . كما أن أحد الضباط الرومان وهو ــ تتيوس ماكريانوس الذى ثار ضده سيده جالينيوس قــد شبه نفسه بالاسكندر المقدونى (٨٣) وفى أيام دقلديانوس كان الرومان يزينون أقراطهم ودروعهم وملابسهمأيضا بكل شىء كان يرتديه الاسكندر المقــدونى (٨٤) . ولقد أنب يوحنــا « فم الذهب » أهل أنطاكية لتحليهم بعملات برونزية عليها صور للاسكندر (٨٥) .

مجمل القول ــ لوحظ من خلال أعمال كتاب العصر الامبراطورىبأنهم جميعا ليسوا متعاطفينمع الاسكندر . اذ هاجم الفيلسوف سينكا ولوكانوس ملك مقدونيــا ووصــفوه بأنه طاغية ويرجع السبب فى ذلك الى تشيعهم بالأفــكار الرواقيــة (٨٦) . أضف الى هذا أن كوينتليانوس وجوفيناليس وجيليوس كانوا بدورهم يقللون من شخصية وأعمال الملك المقدونى (٨٧) . أما كورتيوس فكان موقفه ازاء الاســكندر وسطا (٨٨) . لــكن الــكتاب الاغريق ــ مثل يوليبوس وبلوتارخوس ــ واريانوس كانوا بطبيعة الحال فى صف الإسكندر الأكبر (٨٩) .

الحواشى

(1) Hor., Ep., II I, 156 «Graecia capta ferum victorem cepit, et artes intulit agresti Latio», cf. A. J. Toynbee, Hannibal's Legacy. The Hannibalic War's Effects on Roman Life, London 1965, vol. II, PP, 435 sqq.

(2) Polyb., VI sqq. 25, 6, II sqq., cf. Diod., XXIII, 2. 1. Dio. V. 60, 2 sqq., X, 17, 5, XX, 6.1. H. Spencer. Descriptive Sociology, Romans, London 1934, S. V., Military - Weapons.

(3) Hor., Od., IV, 8.3, Liv., VII, 26, 10. XXVIII. 9. 10. Cic. Fin., II, 62, 65.

راجع ج.و.دف. تاريخ الأدب الرومانى — ترجمة د. محمد سليم سالم — مراجعة د. محمد صقر خفاجه . القاهرة ١٩٦٤ ، جا ص١٥٨ ج رقم ٢ .

(4) Virg., Geo., II, 167 sqq, Juv., II, 86 sqq.,

عن مفهوم كلمة mos لدى الرومان — انظر

D. Earl, The Moral and Political Tradition of Rome, London 1967, PP. 30 sqq.

(5) N. Petrochilos, Roman Attitudes to the Greeks, (Diss.) Athens 1974, PP. 93 sqq.

(6) Juv., III, 60 sqq. Cic., Pro Flaco, XVII, Plin., N. H., XXIX, 14 sqq.

يستشف من قول بلينيوس نقلا عن كاتو أن الرومان لم يثقوا فى الأطباء الاغريق كما كانوا فى نظر الاغريق البرابرة .

"Omnia conrumpet, tum etiam magis, si medicos sous hoc mittet. iurarunt inter se barbaros necare omnes medicina, sed hoc ipsum mercede faciunt, ut fides iis sit et facile disperdant. nos quoque dictitant barbaros et spurcius nos quam alios opicóo appellatione foedant,,.

راجع — دف — المرجع السابق — ص ١٥٤—١٥٥ .

(٧) سأقوم بدراسة هذه النقطة فى مقالتى التى ستصدر فى أعمال المؤتمر الثالث للدراسات المقدونية — بعنوان — « الاسكندر الأكبر فى المصادر العربية » ، محاضرة القيت فى هذا المؤتمر خلال شهر سبتمبر

١٩٧٧ . ويكفى هنـــا أن أحيل القـــارىء الى أهـــم الدراســـات التى عالجت هذا الموضـوع .

M. Renault, The Nature of Alexander, London, 1975, PP. 40 sqq., L. L. Gunderson, Early Elements in the Alexander Romance, in Ancient Macedonia, at the First Intern. Symp. held in Thessaloniki, 26 - 29 August 1968, Thessaloniki 1973, PP. 353 - 375 (cited AMI).

(8) F. Heichelheim, An Ancient Economic History, Leiden 1964, PP. 35, 93, 97, cf. F. W. Walbank,Polybius and the Rome's Eastern Policy, JRS 53 (1963), esp. PP. 2 - 3.

(9) Liv., I, 6 sqq., cf. Petrochilos, op. cit., P. 15.

(10) Liv., III, 31, 8.

(11) Petrochilos, op. cit., P. 15, cf. P. Grimal et alii, Hellenism and the Rise of Rome, London 1968, P. 68.

(١٢) على سبيل المثـــال

Oleum, Oliva, ampulla, macina

(١٣) عن الموضـــوع برمته — أنظر

J. Marouzeau, Quelques aspects de la formation du latin littéraire Paris 1949, PP. 125 sqq, cf. P. Boynoncé, La Connaissance du grec à Rome, REL 24 (1956) PP. 111 - 131.

(14) Petrochilos, op. cit., P. 15.

(15) Liv., VII, 25, 4 - 5, 26, 11 - 15, cf. Alfodi, Early Rome and the latins, Ann Arbor 1963, PP. 344 - 346.

(16) Liv., VIII, 22, 6, sqq., cf. Toynbee, op. cit., P. 443.

(١٧) يذكر بلينيوس نقلا عن كليتارخوس أن الرومان أرسلوا سفارة الى الاسكندر

N.H., III, 57 „Clitarchus ab eo preximus legationem tantum ad Alexandrim missam..''., cf. Diod., XVII, 113, 1 - 4, Just., XII, 13, I., لـــكن أريانوس يرفض هذا القول (Anab., VII, 15, 4 - 6) وبالتالى رفض تارن أمر هذه البعثة ويرى أنها مؤرخة فى القرن الأول ق.م. (P. 376)

Alexander the Great, Cambridge 1948, vol. II, PP. 21 - 26., 374 - 378.

ولـــكن هناك رأى حديث يؤكد صحة ارســال الرومان هذه السفارة.

P. Treves, Il mito di Alessandro e la Roma d'Augusto, Milano 1953, PP. 27 - 29, esp. fn. 7, cf. E. Borza, Cleitarchus and Diodorus' account of Alexander, PACA 2 (1968) PP. 25 - 45.

(18) U. Wilcken, Alexander the Great, transl. by G. Richards, with preface, An introduction to Alexander studies, Notes, and Bibliography by E. Borza, New York 1967, PP. cf. R.L. Fox, Alexander the Great, London 1973, cf., Grimal, op. cit., P. 68.

(١٩) يرى ليفيوس أنه لولا موته المبكر لسيطر على روما (VIII, 3. 6) وبخصوص مناقشته لامبراطورية الاسكندر — أنظر

Trog. Pomp. (in Junt. epit.) XII, 2. 1 sqq "Velut in divisione orbis terrarum Alexandre Olympiadis sarois suae filio Oriens, sibi Occidens sorte contigisset, non minorem rerum materiam in Italia Africa Siciliaque qua ille in Asia et in Perais habiturus".

(20) Plut., Pyrrh., 13 - cf. E. Will, Histoire Politique du monde Hellénistique, Nancy 1966, Tom. 1, PP. 103 - 113 ibid., Le monde grec et l'Orient, Paris 1975, Tom. II, PP. 365 - 370.

(21) Liv., VIII, 3, 6 : 17, 9 : cf. Petrochilos, op. cit., P. 99.

(٢٢) أول هذه المراحل تمثلت فى نشوب الحرب اللاليرية والذى يعتبر المؤرخ بوليبيوس مصدرنا الرئيسى عن احداثها . أنظر

Walbank, A Historical Commentary on Polybius, vol. I. Commentary on Books I - VI, Oxford 1957, PP. 13 - 14, 153, 159, 165 - 166.

(23) Florus, I, 23, 3 "itaque quamvis tum Philippus regno praesideret, Romani tamen dimicare sibi cum rege Alexandro videbantur". (apud Petrochilos, op. cit., P. 99).

(24) Plut., Flam., 7, cf. Liv., XXXI, 6 - 9 "Pacem Punicam bellum Macedonicum excepit, periculo haudquaquam comparandum aut virtute ducis aut militum robore, claritate regum antiquarum

vetustaque fama gentis et magnitudine imperii, que multa quondum Europae, maiorem partem Asiae obtinverant armis, prope nobilius."

(25) A. Anthemides, Military Academics in Macedonia, Makedonika 13 (1973) PP. 117 - 152 (in Greek).

راجع للمؤلف ـــ اضواء على تاريخ مقدونيا ابان القرن الخامس ق.م دار الثقافة ـــ القاهرة ١٩٧٨ .

(26) E. Bickerman, Hannibal's covenant, AJPh. 73 (1952) PP. 1 sqq., cf H. A. Chroust, International treaties in Antiquity : The diplomatic negociations between Hannibal and Ph. V of Macedon, Class. et Med. 15 (1954) PP. 60 - 107.

راجع للمؤلف ـــ صفحة من تاريخ العلاقات الرومانية ـــ اليونانية ـــ ١٩٦ ـــ ١٦٧ ق.م دار الثقافة ـــ القاهرة ١٩٧٨ .

(27) Petrochilos, op. cit., P. 98.

(28) Walbank, The Causes of the third Mecedonian war : Rlcent views, in AMII, Thessaloniki 1977, PP. 81 - 94.

راجع للمؤلف ـــ صفحة من تاريخ العلاقات الرومانية ـــ اليونانية ـــ حيث درست بالتفصيل اسباب هذه الحرب ونتائجها على المجتمعين الرومانى واليونانى ـــ كما فندت حجج بولبيوس التى اعتبرها الأسباب الرئيسية لهذه الحرب . ومما هو جدير بالذكر أن العالم الايطالى

(P. Meloni, Persed, Rome 1953, ch, P. 5).

يعتقد أن روما ولأول مرة تحشد قواتها العسكرية لواجهة قوات برسيوس وحليفه الاليرى جنتيوس ـــ ولولا هذه الاعدادات العسكرية الرومانية ـــ لما استطاع الجنرال الرمانى لوكيوس ايميليوس باولوس انتزاع النصر. ومن هنا أدرك السناتو مدى قوة مقدونيا العسكرية وخطرها على العالم اليونانى وعليه كان جل اهتمام الرومان ينحصر فى تحطيم مقدونيا حتى يتمكنوا من تحقيق أحلامهم التوسعية ـــ أنظر الوصف الرائع الخاص بموكب النصر فى كتاب

J. J. Pollitt, The art of Rome, C. 753 - 337 A. D., New Jersey 1966 PP. 44 - 45.

(29) Liv., IX, 16, 19 "quin eum parem destinant animis magno Alexandre ducem, si arma Asia perdomita in Europam vertisset." cf. M. Cary, A History of the Greek World 323 to 146 B. C, London P. 182.

(30) W. B. Anderson, Contributions to the study of the Ninth Book of Liv., TA Ph A 39 (1908) PP. 94 sqq.

(31) Liv., IX, 8, 6 "id vero periculum erat, quod levissimi ex Graecis, qui Parthorum quoque contra nomen Romanum gloriae favent".

امتدح ليفيوس عظمة البارتين العسكرية على حساب روما وجسد خطورة الشرق ممثلا فى شخص البارثين والاسكندر ويرى أن الرومان لم يكن فى استطاعتهم التفاهم مع البارثين أو حتى الاسكندر أنظر التعليق الشيق عند

Petrochilos, op. cit., PP. 100 - 101.

(٣٢) تأثر هذا المؤرخ بآراء المشائين الذين كانوا يكنون العداوة للملك المقدونى .

IX, 18, 1. "Et Loquimor de Alexanro nondum secundis rebus, quarum nemo intolerantior fuit".

وترجع أسباب هذه العداوة الى القول أن الاسكندر كان (وراء اغتيال كاليستنيس) .

Cic. Tusc., III, 21 "Ut Theophrasttus interitum deplorans Callisthenis sodalis sui rebus Alexandri prosperis angitur, itaque dicit Callisthenem incidises in hominem summa potentia summ aque fortuna sed ignarum quem ad modum rebus secundis uti conveniret" cf. ibid., Att., XII, 28, 3. "quid, tu non vides ipsum illum Aristoteli discipulum, summo ingenis, summa modestia, postea, quam rex appellatus sit, superbum, crudelem, immoderatum fuisse?

وعن كراهية الرواقيين للاسكندر — انظر

Sen., N. Q., VI, 23, 2 - 3, cf. Tarn, op. cit., PP. 69, 131, 297 - 300., L. L. Gunderson, The Portrait of Alexander the Great in the Sibylline Oracles, in AMII, 1977, PP. 53 - 66, esp. 59.

(33) Diod., XVIII, 4, 1 - 3, Tarn, op. cit., PP. 396 sqq. (XVII, 4, 6).

ويرى ديودورس ان خلفاء الاسكندر قد تخلوا عن هذه الفكرة

(34) Polyb., XVIII, 46, 15, cf. Liv., XXXI, 15, 10 "egregium liberatae per se Graeciae titulum", Contra ibid., XXXIV, 23, 8 Vanum titulum libertatis". cf. Toynbee, op. cit., PP. 435 - 485.

(35) Liv., XXXI, 29, 15 "cum alienigenis, cum barbaris aeterum omnibus Graecis bellum est eritque, natura enim, quae perpetus est, non mutabilibus in diem causis hostes sunt," cf. Pliny, N. H., XXIX, 14 sqq, Walbank, op. cit., JRS 53 (1963) PP. 10 - 11.

أنظر أعلاه حاشية ٦ — ومع هذا لم يطلق بوليبيوس هـــذه التسمية على الرومان ٠
(XVII, 22, 5).

(٣٦) عن مسألة حرية العالم الاغريقى ومفهوم هذه الحرية فى نظر الرومان والاغريق أيضا ومدى جدية الرومان فى تطبيقها — أنظر رسالة دكتوراه للعـــالم الأمريكى ٠

B. Forte, Rome and the Romans as the Greeks saw them, Rome 1972, PP. 25 - 56.

(37) Ibid., PP. 78 - 89, cf. Petrochilos, op. cit., PP. 108 - 111.

(38) I, 1., ibid., XXXIX, 8, cf., Toynbee, op. cit. I, P. 3, 11, P. 436 fn. 1.

وعن دور بوليبيوس فى روما وبلاد الاغريق وآرائه — أنظر

T. R. Glover, Polybius at Rome, in springs of Hellas and other essays, Cambridge 1945, PP. 109 - 130. cf. Walbank, Polybius. London 1972, PP. 157 - 183.

(39) Ch. Patsavos, The Unification of the Greeks under Macedonian Hegemony, Athens 1973, PP. 25 sqq., cf., Ch. Pelekides, Quelques aspects de la relations entre Athenes et Macedoine, in AMII (1977). E. Will, op. cit. I, PP. 186 - 205.

(٤٠) كانت روما فى نظر الاغريق أما للذئاب وليس للبشر — أنظر

Orac. Sibyll., III, 350 - 355, 469 (apud Petrochilos, P. 110) cf. Forte, PP. 41 - 46, 78 - 79, Gunderson, op. cit., PP. 35 - 66.

وعن الحركات القومية المقدونية المناهضة للرومان — أنظر

Th. Sarikakis, The Mecedonian struggle against Rome, Thessaloniki 1969, PP. 15 - 29 (in Greek) cf. J. Briscoe, A Commentary on livy, Oxford 1973, PP. 166 sqq.

(41) Sen., Suas., I. "An Oceanum naviget", ibid. 4 "An Babylona intret ?" cf. Cic., Att., XIII, 28. 2. "nam quae sunt ad Alexandrum hominum versentur. adulescentem incesum cupiditate verissimae gloriae, cupientem sibi aliquid condili dari quod ad laudem sempiternam valeret, cohortantur ad decus". cf. M. H. Ibrahim, Graeco - Roman Education in Egypt from the first to the fourth century A. D., according to papyri, (diss.) Athens 1972 PP. 183, 194 (in Greek).

(42) M. Bieber, Alexender the Great in Greek and Roman Arts, Chicago 1964, PP. 13, 72, cf. Forto, PP. 212, 266, and passim

(43) Bieber, P. 72.

انظر اعلاه حاشية ٢٩ ــ أدناه حاشية ٤٦،٥٨،٦٣،٦٤،٦٧،٦٨ .

(44) Ibid., PP. 14 - 15.

(45) Toynbee, P. 438.

(46) Liv., XXVI, 19, 7 "rettulitque famam in Alexandre Magno prius volgatum, et vanitate et fabula parem, anguis immanis aoncubitu conceptum, et in cubiculo matris eius visam persaepe prodigii eius speciem interventuque hominum evolutam repente atque ex oculis elapsam".

(47) Suet., Aug., 94, 2 - 5 "Velitris antiquitus tacta de caelo parte muri responsum est eius oppidi civem quandoque rerum pototurum qua fiducia Veliterni et tunc statim et postea saepius paene ad exitium sui cum populo R. belligeraverant, sero tandem documentis apparuit Ostentum illud Augusti potentiam portendisse." cf. Petrochilos, P. 103, cf. also D. Kienast, Augustus und Alexander, Gymnasium 76 (1969) PP. 430 - 456.

(48) Liv., XXXVII, 37, 2 - 3.

من الملاحظ أن معظم زعماء روما زاروا طرواده واولوها جل اهتمامهم ويعزى سبب ذلك الى القول بأن الجد الأكبر للشعب الرومانى كان من أصل طروادى وربما ترجع عداوة الرومان للاغريق الى أسطورة اينياس كما ذكر ان فرجيل نسج الانيادة لمناهضة النفوذ الاغريقى ــ وعن هــذا الموضــوع انظر :

Petrochilos, P. 139, Forte, PP. 5, 126.

(49) Plut., Luc., XIX, 3 - 4, cf. Dio, XXXVI, 16, cf. also W. Lacey R. Wilson, Res Publica, Roman Politics and society according to Cicero, Oxford 1970, PP. 71 - 72.

(50) App. Mith., XII, 83, cf. Forte, P. 128.

(51) D. Magie, Roman Rule in Asia Minor, Princeton 1950, vol. I, PP. 368 - 377, II, PP 1231 - 1240.

(52) Plut., Pomp., 2, cf. Pliny, N. H., XXXVII, 14 "illa relincino honaro grata". Florus, VII. eadem gratia relincinae frontis" (apud Petrochilos, P. 103), Sallust., Hist., III, 88, "sed pompeius a prima edulescentia sermone fautorum similem se fore credena Alexandro regi, facta consultaque eius quidem aemulus erat". cf. D. Michel, Alexander als Vorbild fuer Pompeius, Caesar und Marcus Antonius, Bruxelles 1967, PP. 35 - 66.

(53) Ibid., PP. 45 - 47, Forte, PP. 194 - 195.

(54) Magie, op. cit., II, P. 1232, fn. 35, cf. A. H. M. Jones, The cities of the Eastern Roman Provinces, Oxford 1971, PP. 167 - 168.

(55) Bieber, op. cit., P 69, Michel, op. cit., PP. 44 - 45.

(56) App. Mith., XVII, 117.

(57) Strabo, P. 635, Forte, P. 135.

(58) Suet., Jul., VII, Quaestori ulterior Hispania obvenit, ubi mandatu praetoris iure dicundo conventus circumiret Gadisque Venisset, animadversa apud Herculis templum Magni Alexandri imagine ingenvit et quasi pertaesus ignaviam suam, quod nihil dum a se memorabile stum esset in aetate, qua iam Alexander orbem terrarum subegisset, missionem continus efflegitavit ad captandas quam primum maiorum rerum occasions in urbe.." cf. Michel, PP. 67 - 107.

(59) Cic., Att., XIII, 27, I., XIII, 28, cf. A. R. Anderson, Heracles and his successors, HSCP 39 (1928) PP. 39 - 42 J. R. Hamilton, Plutarch : Alexander, A Commentary, Oxford 1969 PP. XLIX - LI, P. 3. fn. I.

(60) B. C., II, 149 - 154, cf. Forte, PP. 359 - 360.

(61) Dio, XLVIII, 39, 2, Plut., Ant. LX, 2 - 3, cf. Michel PP. 109 - 132.

(62) Dio, LXXVIII, 7, Plut., Ant., XXII, Brut., LIII.

(63) Dio, Li 16, Plut. Ant., LXXX, 2 - 3, Suet., Aug., XVIII, I. "Per idem tempus conditorium et corpus Magni Alexandri, cum prolatum e peostrali subiecisset oculis, corona aurea imposita ac floribus aspersis veneratus est consultusque, num et ptolemaeum inspicere vellet, regem se voluisse ait videre, non mortuos." cf. R. Syme, The Roman Revolution, Oxford 1952, PP. 305 - 441.

(64) Suet., Aug., L. "in Diplomatibus libellisque et epistulis signandis initio spinge usus est, mox imagine Magi Alexandri, novissime sua, Dioscuridis manu scalpta, qua signare insecuti quoque principes perseverarunt."

(65) P. 594.

(66) C. Vermeule, Roman Imperial Art in Greece and Asia Minor, Cambridge 1968, PP. 194 - 195, 386 - 387, Forte, PP. 210 - 211.

(67) Dio, LIX, 17, 3, Suet., Cal., L II, "Veneris cultu conspectus est. triumphalem quidem ornatum etiam ante expeditionem assidue gestavit, interdum et Magni Alexandri thoracem repetitum e conditorio eius."

(68) Suet., Nero, XTX, 2, "parabat et ad Caspias portas expeditione conscripta ex Italicis senum tironibus nova legione, quam Magni Alexandri phalanga appellabat." cf. Pollitt, op. cit., P. 145.

(69) Dio, LXVIII, 30, cf. Forte PP. 288 - 289.

(70) M. Grant, The World of Rome, London 1960, P. 283.

(71) S. Weinstock, Victor and invictus, HTR 50 (1957) PP. 211 - 247.

(72) Dio, LXXV, 6, 2, cf. Forte, P. 4554.

(73) Dio, LXXVIII, 8, 4, Forte, P. 463.

(74) Ibid., P. 463, cf. Grant, The Climax of Rome, London 1968, PP. 112, 125, 156.

(75) Forte, PP. 463 - 464.

(٧٦) لعل السبب فى ذلك يرجع الى القول أن أرسطو قد تآمر مع انتيبانزوس ضد الاسكندر لخروجه عن طاعته — أنظر

Gunderson, op. cit., AMI (1973) esp. PP. 363 - 367.

(77) Grant, op. cit., PP. 285 - 286, cf. Forte, PP. 463 - 464.

(78) R. Taubenschlag, The Law of Greco - Roman Egypt, Warsowa 1955, PP. 40, 90, cf. P? Garnsey, Social status and legal privil ege in the Roman Empire, Oxford 1970, PP. 266 - 270.

(79) Pollitt, op. cit., P. 200.

(80) Magie, op. cit., P. 889.

(81) R. Pfeiffer, History of Classical Scholarship from the beginnings to the end of the Hellenistic Age, Oxford 1968, P. 71.

(82) Bieber, op. cit., P. 77.

(83) Pollitt, op. cit., 204 - 205, Bieber, P. 80.

(84) Ibid., P. 80.

(85) Ibid., PP. 80 - 81.

(86) Sen, N. Q., VI, 23, 2 - 3, Lucan, X, 20.

(87) Quint., I, 1. 9, "Nec minus error eorum nocet moribus, siquidem Leonides Alexandrie paedagous, ut a Babylonis Diogene Traditure, quibusdam eium vitus iambu.t, quae robustum quoque et iam maximum regem ab illa institutione puerili persecut", Juv., X, 168.

"Unus Pellaeo iuveni non sufficit orbis,

Aestuat inflex angusto limite mundi.."

(88) Curt., IV, 7, 29 "sed fortuna quos uni sibi credere coegit magna ex parte avidos gloriae magis quam capaces facit", cf. ibid., X, 5, 26.

(89) Polyb., VIII, 10, 7, Diod., XVII, I. 3, Arrian, Anab., VII, 28 - 30.

٢

فى ذكرى مرور ستة قرون
على اتمام ابن خلدون للجزء الأول من تاريخه

الإغريق عند ابن خلدون

(١) من بداية أيامهم الى موت الاسكندر الأكبر

تحقيق وتعليق دكتور : فوزى مكاوى
أستاذ التاريخ القديم
ـ بجامعة محمد بن عبد الله ـ فاس

عندما نتحدث عن ابن خلدون (*) فأول مايثب الى الذهن عنه أنه منشىء علم الاجتماع الانسانى ، ولكن لا يغيب عن أذهاننا كونه مؤرخ كبير وضع سفرا فى تاريخ الأمم والشعوب كان فريدا فى عصره ، وما يزال حتى الآن مرجعا أصيلا لتاريخ كثير من الدول والعصور .

وابن خلدون لا يقارن به أحد ممن عاصروه أو سبقوه ، فهو مؤرخ تنطبق عليه صفات الباحث فى ميدان علم التاريخ كما نراها فى العصر الحديث ، ويكفى أن نرى ماكتبه هو نفسه عن صفات المؤرخ اذ يقول : ان المؤرخ « .. يحتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط » (١)

« ... (و) يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار (العصور) فى السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة مابينه وبين الغائب من الوفاق أو بون مابينهما من الخلاف وتعليل المتفق منهما والمختلف والقيام على أصول الدول والملل والمبادىء وظهورها وأسباب حدوثها ودواعى كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعبا لأسباب كل خبرة وحينئذ يعرض خبر المنقول على

ماعنده من القواعد والأصول فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا والا زيفه (أى حكم بزيفه) واستغنى عنه ... » (٢) .

وهذه القواعد هى ما نتطلبه فى العصر الحديث فى الباحث فى ميدان علم التاريخ (٣) .

الف ابن خلدون كتابه فى التاريخ لأن عصره (يحتاج) « ... من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التى تبدلت لأهلها ويقفو مسلك المسعودى ليكون اصلا يقتدى به من يأتى من المؤرخين من بعده ... » (٤)

والسؤال الآن .. هل نجح ابن خلدون فى مسعاه ؟.. أو هل صحيح أن مستوى التأليف التاريخى عند ابن خلدون كان دون مستواه فى تأليفه للمقدمة ؟ وللاجابة على هذا السؤال نشير الى أن ابن خلدون كتب كتابه مرتكزا على أخبار المغرب ثم تحدث أو بحث فى أخبار من عاصر دولهم من الحضارات العالمية . ولذلك كان تأليفه فى دائرة اهتمامه الأولى عالى المستوى جديرا بالنسبة الى ابن خلدون وكلما ابتعدنا عن مركز هذه الدائرة تسرب التشويش وازداد اختلاط الحقيقة بالخيال واقترب من مستوى مصادره بل وفى أحيان كثيرة اكتفى بالنقل عنها أو وقع فى أخطاء أخذها هو على المؤرخين السابقين ولامهم عليها . وقد اعتذر عن ذلك عندما كتب « ... انا ذاكر فى كتابى هذا ما أمكننى منه (.. من احوال الخليقة .. الخ) فى هذا القطر المغربى اما صريحا أو مندرجا فى اخباره وتلويحا لاختصاص قصدى فى التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ماسواه من الأفكار ، لعدم اطلاعى على أحوال الشرق وأممه وان الأخبار المتناقلة لاتفى كنه ما أريده منه .. » (٥)

وهكذا نجد تاريخ الاغريق بعيد بعض الشىء عن مركز دائرة اهتمام ابن خلدون ومن ثم نجد كتابته فيه لا تخضع لكل القواعد التى وضعها ابن خلدون فى مقدمته وطبقها فى أجزاء كثيرة من عمله .

ورغم أن الاطار العام لتاريخ هذه البلاد صحيح الا أن تفاصيل أحداث هذا التاريخ بها خلط وأخطاء لا مبرر لها فى بعض الأحيان .ولست

فى مجـــال الدفاع عن عمل ابن خلدون ولا فى مجال البحث عن أســباب لأخطائه ، ولـــكن هذا لا يمنع أن نشير الى أن كبر حجم عمله وابتعـــاد تاريخ الاغريق عن مركز دائرة اهتمامه وقصور مصادره عن هذا التاريخ كانت فيما يبدو أسبابا لمـــا أورده من أخطاء . ومع ذلك يبقى عمل ابن خلدون عن الاغريق أو غيرهمشيئا جديدا اذا قورن بما ساد قبله أو عاصره من النقل دون تمحيص وخلط الأخبار بالأساطير دون تدخل من المؤرخ برأى او برفض لشىء غير منطقى (٦) .

ذكر ابن خلدون اسمى هرشيوش وابن سعيد كمصـــدرين لمعلوماته عن الفترة التى نحن بصددها ، ويبدو أنه كان يحس مافى حـــديثهما من الخلط وعدم الدقة فكتب هو فى بداية الفصـــل مجملا لمـــا صـــدقه من اخبارهما ثم أعقبه بأقوال كل منها ، ويعتبر هذا المجمل هو أصح ماذكر فى هذا الجزء .

يقول ابن خلدون فى موجزه عن (دولة يونان والاسكندر منهم وما كان لهم من الملك والسلطان الى انقراض أمرهم) أن بلادهم تقع فىالناحية الشمالية من المعمور فى المنطقة المحصورة بين الأندلس غربا وبلاد الترك شرقا وتقع بلاد الاغريق الى الغرب من بلاد اللاتين ويفصل بينهما خليج. وأشار ابن خلدون الى أن تاريخ الاغريق ســـابق على تاريخ الـــلاتين . وأشار الى نجاح الفرس فى الاستيلاء على مدن اغريقية كثيرة خضعت له ودفعت الجزية للخزانة الفارسية .

ثم تحدث عن نجاح أثينا فى فرض سيطرتها على بلاد الاغريق بعـــد هزيمتها للشعب اللاكيدايمونى (الأســبرطى) وكيف كانت أثينـــا مكانا لاجتماع الحكماء والمفكرين الاغريق . ولـــكن ايام أثينا ولت وقامت دولة مقدونية ـــ استطاع ملكها فيليب أن يزهم كل الاغريق ويضم بلادهم لمملكته، ثم فكر فى السير لحرب الفرس الذين كانوا مايزالون أصحاب سيطرة على بعض المدن الاغريقية (مدن أيونيا) ولـــكنه قتل قبل القيام بهذه الحرب ، فخلفه ابنه الاسكندر الأكبر الذى نجح فى الابقاء على سيطرة مقدونيـــا على بلاد الاغريق والذى دوخ دارا ملك الفرس وصارعه حتىمقتله وقضى على دولته ونجح فى ضم الأناضول والشام ومصر وبابل وفارس وولاياتها حتى البنجاب ، وحارب فى الأخيرة الملك بورس Porus وهزمه . ثم عاد

الى بابل حيث مات هناك ولم ينس ابن خلدون أن يشير الى بناء الاسكندر لأكثر من مدينة باسم الاسكندرية ، كما اشار الى تتلمذ هـذا على أيدى أرسطو أكبر حكماء الخليقة (٧) .

والجدير بالملاحظة أن هـذه الأخبار التى ذكرها ابن خلدون كلهـا صحيحة سواء التحديد الجغرافى لمكان بلاد الاغريق أو تطور الأحـداث التاريخية . ولـكن ابن خلدون لم يكتب ذلك فقط بل ذكر تفاصيل معارك وأحداث ، وأسماء رجال ومدن ، وقـدم فى بعض الأحيـان أرقاما عن أعداد الجيوش أو السنوات عندئذ تسلل الخطأ الى عمله ووضح التشويش والخلط فيما كتبه نقلا عن مصادره .

ومع ذلك فلا يجب أن نقسو فى نقد ابن خلدون فانه يبقى من أكثر المؤرخين دقة اذا قورن بغيره من المؤرخين الذين عاصروه أو سبقوه حتى بأعظم مؤرخى الاغريق والرومان خلال فترات ازدهار حضارتهم .

توقفت عند هذا الحد فى هذا المقال على أن نكمل عـرض وتحقيق ماذكره ابن خلدون عن أخبار الاغريق فى المقال الثانى باذن الله .

وقبل أن أنهى هذا التمهيد تجدر الاشارة الى الجهد الممتاز الذى بذله ابن خلدون فى محاولة كتابة الأسماء أقرب مايكون الى أصلها وهو أمـر يعلى من شأن عمله اذا قيس بما كان يفعله معاصروه .

الخبر عن دولة يونان والاسكندر منهم
وما كان لهم من الملك والسلطان الى انقراض مرهم (*)

هؤلاء اليونانيون المتشعبون الى الغريقيين (٨) واللطينيين (٩) كمـا قلنـاه ، اختصوا بسكنى النـاحية الشمالية من المعمور مع اخوانهم من سائر بنى يافث كلهم كالصقالبة والترك والفرنجة من ورائهم وغيرهم من شعوب يافث (١٠) ولهم منها الوسط مابين جزيرة الأندلس الى بلاد الترك بالمشرق طولا ، وما بين البحر المحيط والبحر الرومى عرضـا فمواطـن اللطينيين منهم فى الجـانب الغربى ومواطن الغريقيين منهم فى الجـانب الشرقى والبحر بينهما خليج القسطنطينية (١١) .

وكان لـــكل واحد من شعبى الغريقيين واللطينيين منهم دولة عظيمة مشهورة فى العالم، اختص الغريقيون باسم اليونانيين وكان منهم الاسكندر المشهور الذكر أحد ملوك العـــالم (١٢) . وكانت ديارهم كما قلنا بالناحية الشرقية من خليج القسطنطينية (١٣) بين بلاد الترك ودروب الشام (١٤) ، ثم استولى على ماوراء ذلك من بلاد الترك والعراق والهند ثم جال ارمينية وما وراءها من بلاد الشام وبلاد مقدونية ومصر والاسكنـــدرية (١٥) وكان ملوكهم يعرفون بملوك مقدونية (١٦) .

وذكر هرشيوش (١٧) مؤرخ الروم من شـــعوب هؤلاء الغريقيين بنو لجدمون (١٨) وبنو انتناش (١٩) قال : واليهم ينسب الحكماء الأنتاشـــيون وهم ينسبون لمدينتهم أجرة أنتـــاش قال ومن شـــعوبهم أيضا بنو طمان ولجدمون كلهم بنو شمالا بن ايشاى وقال فى موضـــع آخر لجدمون أخو شمالا (٢٠) .

وكانت شعوب هذه الأمة قبل الفرس والقبط وبنى اسرائيل متفرقـــة بافتراق شعوبها (٢١) وكان بينهم وبين اخوانهم اللطينيين فتن وحروب (٢٢) ولما استحفل ملك فارس لعهد الكينية أرادوهم على الطاعة لهم فامتنعوا وغربهم فارس الفرس (٢٣) فاستصرخوا عليهم القبط فسالموهم الى محاربة الغريقيين (٢٤) حتى اذلوهم وأخذوا الجزى منهم وولوا عليهم (٢٥) .

ويقال ان أفريدون ولى عليهم ابنه وأن جدة الاسكنـــدر لأبيـــه من أعقابه (٢٥) ويقال أن بختنصر لمـــا ملك مصر والمغرب أنفوه بالطاعة (٢٧) وكانوا يحملون خراجهم الى ملك فارس عددا من كرات الذهب أمثال البيض ضريبة معلومة عليهم فى كل سنة (٢٨) .

ولـــا فرغوا من شأن أهل فارس وأنفوا ملكهم بالجزى والطـــاعة صرفوا وجوههم الى حرب اللطينيين (٢٩) ثم استحفل أمر الايشائيين من الغريقيين ولم يكن قوامهم الا الجرمونيون فغلبوهم (٣٠) وغلبوا بعـــدهم اللطينيين والفرناسيين والأركادين (٣١) واجتمـــع اليهم سـائر شـــعوب الغريقيين واعتز سلطانهم وصار لهم الملك والدولة (٣٢) .

وقال ابن سعيد : ان الملك استقر بعد يونان فى ابنه اغريقش فى

الجانب الشرقى من خليج قسطنطينية وتوالى الملك فى ولده (٣٣) ، وقهروا اللطينيين والروم(٣٤) ودال ملكهم فى أرمينية وكان من أعظمهم هرقل الجبار بن ملكان بن سلقوس بن اغريقش ويقـــال انه ضرب الأتاوة على الأقاليم السبعة وملك بعده ابنه يلاق واليه تنسب الأمة اليلاقية ، وهى الآن باقية على بحر سودان . واتصل الملك فى عقب يلاق الى أن ظهر اخوانهم الروم واستبدوا بالملك وكان أولهم هردوس ابن منطـــرون بن رومى ابن يونان فملك الأمم الثلاثة ، وصـــار اسمه لقبا لـــكل من ملك بعده . وسمت به يهود الشام كل من قام بأمرها منهم (٣٥) .

ثم ملك بعده ابنه هرمس : فكانت له حروب مع الفـــرس الى أن قهروه وضربوا عليه الأتاوة ، فاضطرب حينئذ أمر اليونانيين وصاروا دولا وممالك وانفرد الاغريقيون برئيس لهم ، وصنع مثل ذلك اللطينيون ، الا ان اللقب ملك الملوك كان لملك الروم. ثم ملك بعده ابنه مطربوش فحمل الاتاوة لملك الفرس (٣٦) لاشتغاله بحرب اللطينيين والاغريقيين . وملك بعده ابنه فيلفوش (٣٧) ، وكانت أمه من ولد سرم من ولد أفريدون الذى ملكه أبوه على اليونان فظهر (٣٨) وهدم مدينة أغريقية وبنى مدينة مقدونية (٣٩) فى وسط الممالك بالجانب الغربى من الخليج (٤٠) وكان محبا للحكمة ، فلذلك كثر الحكماء فى دولته (٤١) .

وقال هروشيوش ان أباه فيلفوش انما ملك بعد الاسكندر بن تراوش أحد ملوكهم العظماء (٤٣) وكان فيلفوش صهراً له على أخته لينبادة بنت تراوش (٤٤) وكان له منها الاسكندر الأعظم .

قال وكان الاسكندر بن تراوش لعهد أربعة آلاف وثمانمائة من عهد الخليقة ولعهد أربعمائة أو نحوها من بناء رومة . وهلك وهو محـــاصر لرومه قتله اللطينيون عليها لسبع سنين من دولته (٤٥) .

فولى أمر الغريقيين والروم (٤٦) من بعده صهره على أختـــه لينبادة فيلفوش ابن آمنته بن هركلش (٤٧) .

واختلفوا عليه فافترق أمرهم وحاربهم الى أن انقادوا اليه وغلبهم على سائر أوطانهم (٤٨) وأراد بنـــاء التسطنطينية فمنعه الجرمانيون بما

كانت لهم فقاتلهم حتى استلحمهم (٤٩) ، واجتمع اليه سائر الروم والفريقيين من بنى يونان . وملك مابين المانية وجبال أرمينية (٥٠) .

وكان الفرس لذلك العهد قد استولوا على الشام (٥١) ومصر ، فاعتزم فيلفوش على غزو الشام ، فاغتاله فى طريقه بعض اللطينيين وقتله بثأر كان له عنده (٥٢) .

وولى من بعده ابنه الاسكندر ، فاستمر على مطالبة بلاد الشام (٥٣)، وبعث اليه ملوك فارس فى الخراج على الرسم الذى كان لعهد أبيه فيلفوش فبعث اليه الاسكندر أنى قد ذبحت تلك الدجاجة التى كانت تبيض الذهب وأكلتها (٥٤) .

ثم زحف الى بلاد الشام واستولى عليها ، وفتح بيت المقدس وقرب فيه القربان وذلك لعهد مائتين وخمسين من فتح بختنصر اياها (٥٥) وامتعض أهل فارس لانتزاعه اياها من ملكتهم (٥٦) فزحف اليه دارا فى ستين الفا من الفرس ، ولقيه الاسكندر فى ستمائة الف من قومه (٥٧) ، فغلبهم وفتح كثيرا من مدن الشام ، ورجع الى طرسوس فزحف اليه دارا ولقيه عليها فهزمه الاسكندر وافتتح طرسوس (٥٨) ومضى ، وبنى الاسكندرية (٥٩) ثم تزاحف مع دارا وهزمه وقتله ، وتخطى الى فارس فملك بلادها ، وهدم مدينة الملك بها وسبى أهلها (٦٠) .

وأشار عليه معلمه أرسطو بأن يجعل الملك فى أسافلهم لتتفرق كلمتهم ، ويخلص اليه أمرهم . فكاتب الاسكندر ملوك كل ناحية من الفرس والنبط والعرب وملك كل ناحية وتوجه ، فصاروا طوائف فى ملكهم . واستبد كل واحد منهم بجهة كان ملكها لعقبه (٦١) .

ومعلمه أرسطو هذا من اليونانيين ، وكان مسكنه أثينا ، وكان كبير حكماء الخليقة غير منازع . أخذ الحكمة عن أفلاطون اليونانى . كان يعلم الحكمة وهو ماش تحت الرواق المظلل له من حر الشمس ، فسمى تلاميذه بالمشائيين (٦٢) .

وأخذ أفلاطون (٦٣) عن سقراط ، ويعرف بسقراط الذي بسكناه في

دن من الخزف اتخذه لرهبانيته وقتله قومه اهل يونان مسموما لما نهاهم عن عبادة الأوثان (٦٤) .

وكان هو اخذ الحكمة عن فيثاغورس (٦٥) منهم. ويقال أن فيثاغورس اخذ عن تاليس حكيم ملطية (٦٦) .

وأخذ تاليس عن لقمان (٦٧) ومن حكماء اليونانيين دوميقراطيس (٦٨) وانكستثياغورس (٦٩) وكان مع حكمته مبرزا فى علم الطب ، وبعث فيه بهمن ملك الفرس الى ملك يونان ، فامتنع من ايفاده عليه ضنانة به .

وكان من تلامذته جالينوس لعهد عيسى عليه السلام ، وماتبصقلية ودفن بها (٧٠) .

ولما استولى على بلاد فارس تخطاها الى بلاد السند فملكها وبنى بها مدينة سماها الاسكندرية (٧١) ثم زحف الى بلاد الهند فغلب علىاكثرها وحاربه فور ملك الهند فانهزم ، واخذه الاسكندر أسيرا بعد حروب طويلة (٧٢) ، وغلب على جميع طوائف الهنود ، وملك بلاد الصين والسند (٧٣) وذللت اليه الملوك وحملت اليه الهدايا والخراج من كل ناحية . وراسله ملوك الأرض من افريقية والمغرب ، والأفرنجة والصقالبة والسودان ثم ملك بلاد خراسان والترك ، واختط مدينة الاسكندرية عند مصب النيل فى البحر الرومى (٧٤) ، واستولى على الملوك يقال علىخمسة وثلاثين ملكا (٧٥) ، وعاد الى بابل فمات بها يقال مسموما سمه عامله على مقدونية لأن أمه شكته الى الاسكندر ، فتوعده فأهدى اليه سما وتناوله، فمات لاثنتين واربعين سنة من عمره ، بعد أن ملك اثنتى عشرة سنةسبعا منها قبل مقتل دارا وخمسا بعده .

خاتمـــة

يساهم هذا البحث فى لفت أنظار الدارسين الى ماكتب ابن خلدون غير المقدمة وتاريخ البربر ، فابن خلدون يعتبر ظاهرة فريدة بين المؤرخين المسلمين ، قرأ ودرس ، قارن ونقد ، وافق ورفض ، واستطاع فى النهاية أن يقدم عملا جيدا ، ويكفى أن نقول ان ماذكـــره ابن خلدون فى تاريخ الاغريق لايقل فى مستواه عما كتبه المؤرخون الأغريق أو اللاتين أنفسهم، واذا كان قـــد تسلل الى عمله بعض الخلط أو الأساطير ، فقد تسلل الى أعمالهم . ولا يعتبر هذا عيبا فى كتـــابة ابن خلدون اذ كان ذلك طبيعـــة مصادره ومع ذلك نجح ابن خلدون فى كثير من الأحيان أن يقلل من تسلل مثل هذه الأساطير الى عمله .

وبدراستنا للمعلومات الواردة عند ابن خلدون عن الاغريق يتضح لنـــا أنه نجح الى حـــد كبير فى الالمام بأهم أيامهم والتعرف على أشـــهر احداثهم ، دون أن يذكر شيئا مثيرا أو مجهولا من قبل للباحثين المحـــدثين اللهم الا اذا صدق ما قاله عن موت فيثاغورس فى صقلية وهو خبر كان مجهولا من قبل .

واخيرا يعتبر ماذكره ابن خلدون عن الاغريق نموذجا للمعلومات التى اتيحت لقراء القرن الرابع عشر الميلادى وهى معلومات جيدة تستطيع أن تقدم صورة واضحة ع نواحدة من أهم الحضارات القديمة .

* * *

الحـــواشى

(*) ولد ابن خلدون بتونس سنة ١٣٣٣ م ومات بالقاهرة ١٤٠٦م.

أنظر التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا منشورات دارالكتاب اللبنــــانى .

(١) ابن خلدون ، مقدمة العلامة ابن خلدون ، روجعت وقوبلت على عدة نسخ بمعرفة لجنة من العلماء ، المكتبة التجارية الـــكبرى ، القاهرة د.ت. ، ص ٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٨ .

(٣) راجع حسن عثمان ، منهج البحث التاريخى ، ط٣ ، القـــاهرة ١٩٧٠ . المقدمة وفيها بحث فى صفات المؤرخ ، والفصل الأول عن العلوم المساعدة ، والفصول من الرابع الى الثامن فى نقد المادة العلمية ، والفصل الثانى عشر فى الاجتهاد ويمكن مقارنة ذلك بما جاء فى مقدمة ابن خلدون ، الطبعة المذكورة ، من ص ٣ الى ص ٣٣ .

(٤) ابن خلدون ، نفس المرجع ص ٣٣ .

(٥) نفس المرجع ص ٣٣ .

(٦) للمقارنة بين منهجيـــة ابن خلدون ومن سبقوه أو عاصروه من الـــكتاب المسلمين انظر : حسن الساعاتى ، علم الاجتماع الخلدونى ، بيروت ١٩٧٢ . وقد أورد مقارنة بين منهج كل من الطبرى والمسعودى والمقريزى وابن خلدون .

(٧) ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، القسم الأول ، المجلد الثانى بيروت ١٩٥٦ صص ٣٧٨ — ٣٨٣ .

(*) ذكر ابن خلدون فضلا عن تاريخ الاغريق حتى سقوط آخر الدول الهلينستية فى يد روما خلال القرن الأول ق.م وهذا البحث يتعرض بالبحث للجزء الأول من هذا الفصل وهو الذى يشمل تاريخ بلاد الاغريق حتى موت الاسكندر الأكبر .

(٨) ذكر ابن خلدون نسب الاغريق واللاتين حسبما جاء عند النسابين وما جاء فى التوراة وليس هذا جديد ، ولكن مايهمنا هنا هو أن ابن خلدون عرف كلمتى الاغريق واليونان والأولى اسم أطلقه الرومان على الـ Graioi وهم جماعة من سكان بيوتيا فى بلاد اليونان ، وكانوا قد اشتركوا مع أهل

خالكيس فى بناء مستوطنة كوماى Cumae فى غرب ايطاليا ، ثم اتسع مدلول هذا الاسم بالزمن لكى يشمل جميع سكان بلاد اليونان . أما الكلمة الثانية (اليونان) فهى تحريف عـــربى للفظ (أيونيون Iones) الذين كانوا أول من احتك من سكان بلاد اليونان ببلاد الشرق القديم ، وان كان يلاحظ أن ابن خلدون اعتقـــد بأن الاغـــريق فرع من اليونانيين استأثروا بالاسم دونهم والجدير بالذكر أن كلا الاسمين يعبران فى الوقت الحاضر عن مضمون واحد .

عبد اللطيف احمد على ، التاريخ اليونانى جا بيروت ١٩٧٣ ص٨ .

(٩) اللطينيون هم سكان سهل لاتيوم وهم من مجموعـــة الشعوب الايطاليـــة التى تضم بالاضـــافة اليهم Umbri والسابيليون Sabeili كان اللاتين أنشط المجموعات الثلاثة وقد استطاعت احدى مدنهم (روما) أن تتصدر كل المدن الأخرى فى ايطاليا وان تفرض سيطرتها على شـــبه الجزيرة خلال القرن الثالث ق.م ثم على منطقة البحر المتوسط كله خلال القرن الثانى والطريف هنـــا أن ابن خلدون كتب اســـم هـــذا الشعب مستخدما حرف (ط) فكتب اللطينيون كما يفعل أهل المغرب حتى اليوم وقد تكرر استخدام ابن خلدون لحرف (ط) فيما ينطق فى المشرق (ت) فـــكتب أنطيوخس وكليوباطره وطيطوس ... الخ وهذا يعطى دليلا هاما على أن استخدام المغاربة المحدثين لهذا النطق ليست تأثيرا فرنســـيا كما يبـــدو للبعض ولـــكنه أصيل فى المنطقة من قبل الاستعمار الفرنسى بعدة قرون للقراءة عن اللاتين ، أنظر

ديورانت ، ول ، قصــــة الحضـــارة ، ترجمـــة محمد بدران ج ٩ القـــاهرة ١٩٧٣ .

والجدير بالذكر هنـــا أن ابن خلدون قـــد أكد على نسبة الاغريق واللاتين الى أصل واحد ، وهذا فى الواقع غير مؤكد تاريخيـــا وان كان يتفق مع ما ذهب اليه المؤرخون الرومان من ربط تاريخهم بتاريخ الاغريق الأعلى ثقافة .

ومن المؤكد أن أشهر الأساطير الرومانية تقول ان أنياس Aenas أحد أبطال طروادة جال فى البحر بعد سقوط مدينته حيث أرسى فى قرطاج وقد هامت به ديدو مؤسسة قرطاج ولـــكنه هجرها الى ساحل ايطاليـــا حيث نزل بسهل لاتيوم وأسس مدينة Lavinium ثم أسس ابنه Ascanius مدينة البالونجا وقد أسس أحد أحفاد الأخير مدينة روما بعد بضعة أجيال. والواضح أن ابن خلدون قـــد تأثر فى هـــذا الرأى بما قرأه عن مصادره غير العربية وبخاصة هروشيوش .

عن الأسطورة اقرأ :

عبد اللطيف احمد علي ، روما ، القاهرة ١٩٥٨ صص ٢٢-٢٣ .

(١٠) هذه التقسيمات تتفق مع ماذهب اليه النسابون من رفع نسب الشعوب فى العالم كله الى نوح عليه السلام وقد ظلت هذه النظرية سائدة لدى المؤرخين حتى بداية العصور الحديثة ، ولكن ماتزال تأثيرات هذه النظرية واضحة فى تسمية بعض المجموعات اللغوية كالسامية والحامية الخ .

(١١) المعروف أن الاغريق سكنوا بلاد اليونان وجزر بحر ايجة والسواحل الغربية لآسيا الصغرى بالاضافة الى مستعمراتهم على الشواطىء المختلفة ، أما اللاتين فقد سكنوا منطقة سهل لاتيوم فى وسط غرب ايطاليا وان امتد نفوذ مدينة روما اللاتينية بعد ذلك على كل ايطاليا . ومن هذا نلاحظ أن التحديد العام للموقع الجغرافى لبلاداليونان وايطاليا صحيح مع ملاحظة أن عرض هذه البلاد بأنه مابين البحر المحيط (المحيط الاطلنطى) والبحر الرومى (البحر المتوسط) متأثر بالخرائط الجغرافية التى كانت معروفة فى زمن ابن خلدون والتى كانت تصور البحر المحيط ممتدا شمال اليابس فى القارة الأوربية . ولكن وقع ابن خلدون فى خطأ عندما اعتقد أن خليج القسطنطينية هو الذى يفصل بين الأرضين . واذا بدأنا بتحديد مكان خليج القسطنطينية فاننى أرجح أن يكون ابن خلدون قد قصد به بحر ايجه الذى قامت بالقرب من طرفه الشمالى مدينة القسطنطينية ولكن المعروف أن بحر الادرياتيك هو الذى يفصل بلاد اليونان عن ايطاليا وليس بحر ايجه .

وأخيرا أعتقد أن ابن خلدون قصد ببلاد الترك شبه جزيرة الأناضول حيث كان الأتراك العثمانيين قد بدأوا الاستقرار فيها .

(١٢) يقصد الاسكندر الأكبر (٣٥٦ ــ ٣٢٣ ق.م) .

(١٣) أنظر الحاشية رقم ١١ .

(١٤) اشارة النص هنا الى وقوع بلاد الاغريق بين بلاد الترك ودروب الشام خطأ جغرافى لا يتفق مع فقرة سابقة وردت فى النص حددت وقوع تلك البلاد مابين جزيرة الأندلس (غربا) الى بلاد الترك (شرقا) والمرجع أن هذه خطأ فى النسخ فمن المستبعد ان يناقض ابن خلدون نفسه فى صفحة واحدة .

(١٥) من الواضح أن ابن خلدون لايذكر البلاد التى خضعتللاسكندر الأكبر حسب تواريخ خضوعها ولكنه استطاع أن يحصى أغلب الأقطار التى خضعت للاسكندر دون ترتيب اذا ما استثنينا أرمينية الى ربما أعلنت خضوعها دون أن يسير اليها ــ ومع ذلك يلاحظ أن ابن خلدون لم يذكر خضوع بلاد فارس نفسها وان كان هذا مفهوما بداهة ، خاصة أنه ذكره على لسان هرشيوش بعد ذلك (راجع الحاشية رقم ــ ٦١) .

تبقى ملاحظة هامة وهى ان ابن خلدون أشار الي أن الاسكندر « جال في مصر والاسكندرية » .

ورغم أن هذا الاسم يتفق مع ماعرفت به مصر خلال العصر الهلنيستى اذ كان ينظر الىالاسكندرية كجزء منفصل عنمصر وكانيقال (الاسكندرية القريبة من مصر Alexandria Ad Ægyptum الا أن الصواب جانب ابن خلدون فى ذكره للاسكندرية حيث يفهم من هـذا الخبر ـ خطأ ـ أن الاسكندرية كانت قائمة وقت قدوم الاسكندر الى مصر . ولـكن الثابت تاريخيا أن الاسكندر أمر بتخطيط مدينة الاسكندرية وقد أشار ابن خلدون الى ذلك فى نفس النص فى مكان آخر (راجع الحاشية رقم ٧٥) .

ديورانت ، ول ، المرجع السابق ، ص ٥٢٧ .

(١٦) من المعروف تاريخيا أن بلاد الاغريق خضعت لسيطرة مقدونيا منذ عهد فيليب الثانى والد الاسكندر ، وهذه الحقيقة التاريخية تتفق تماما مع ماذكره ابن خلدون فى هـذه الفقـرة من أن ملوكهم (أى ملوك بلاد الاغريق) كانوا يعرفون بملوك مقدونية . وقد أكد ابن خلدون ذلك فى فقرة أخرى تالية نسبها لابنسعيد أشار فيها صراحة الى أن فيليبالمقدونى قد هدم مدينة اغريقية وأقام مدينة مقدونية (أنظر الحاشية رقم ٣٩) .

(١٧) هرشيوش أهم مصدر غير عربى لابن خلدون فيما ذكره عن الاغريق واللاتين ومصدره الوحيد فيما ذكره عن القوط . وقد ورد اسـم هذا المؤرخ لدى ابن خلدون ـ أو ناسخى عمله ـ فى عدة صور منهـا (أهرشيوس ـ هيروشيوس ـ هروشيوس ـ هرشيوش) .

واذا كان من السهل علينا أن نتعرف على مصادر ابن خلدون العربية من أمثال المسعودى والطبرى والبيهقى وابن سعيد وابن العميد وغيرهم فان التعرف على هرشيوش هـذا أمر صعب فى ظل المعلومات القليلة التى أوردها ابن خلدون عنه .

وقد شاع بين الباحثين الربط بين هرشيوش هذا وباولوس أوروزيوس Paul Orosus مؤرخ أسبانيا الـذى ولد فى Tarragona فى عام ٣٩٠ م والتحق بالـكنيسة كاهنـا وشارك بحماس فى صراعات عصره حول حقيقة الايمان . واتصل بالقديس أوغسطين فى أفريقيا ونال تقديره والف كتابا فى تاريخ العالم بعنوان Historiarum libri Vii Contra Paganos الا أن هذا الربط فيـه نظر من واقع ماذكـره ابن خلدون نفسـه عن هرشيوش الذى اعتمد عليه . فبينما أختفى أوروزيوس من الحياة العامة حوالى عام ٤١٨ م ولم يعد أحد يذكره نجد أن هرشيوش قد ذكر أحداثا عن القرن السابع الميلادى نقلها ابن خلدون مثل قوله عند ذكره لتـاريخ الهجرة المحمدية « .. وقال هرشيوش أن ملك هرقل كانت الهجرة فى تاسعته وسماه هرقل ابن هرقل ابن انطونيوس لستمائة واحدى عشرة من تاريخ المسيح ، ولألف ومائة من بناء رومه .. » ص ٤٥٩ جـ ٢ كمـا نقل ابن خلدون معلوماته عن القوط من كلام هرشيوش اذ يقول « ..هذه سياقة الخبر عن هؤلاء القوط نقلته من كلام هرشيوش .. وهو أصـح مارأيناه فى ذلك .. » ص ٤٩٣ جـ٢ وتابع ابن خلدون ماذكره عن القوط

معتمداً على هرشيوش حتى عهد زدريق « .. وهو الـذى دخل عليـه المسلمون وغلبوه على ملك القوط ، وملكوا الأندلس . ولذلك العهد كان الوليد بن عبد الملك حسبما نذكره عند فتح الأندلس ... » ص ٤٩٣ جـ٢ .

وهكذا نرى أن المفروض ـــ فى ضوء المعلومات التى يقـدمها ابن خلدون ـــ أن يكون هرشيوش مؤرخا عاصر فترة الصراع الأولى بين دولة الاسلام والدولة البيزنطية، بينما اختفى أوروزيوس منذ الربع الأول للقرن الخامس الميلادى .

ومع ذلك فهناك احتمال بأن يكون المقصود هنا هو أوروزيوس نفسه ولـكن أضيفت الى أعماله أجزاء جديدة ليست من تأليفه وتم ذلك فى وقت لاحق . وهذا الاحتمال لا يمكن استبعاده اذ أن ابن خلدون يشير الى أن « .. خبر هرشيوش مقدم لأن واضعيه مسلمان كان يترجمـان لخلفـاء الاسلام بقرطبة وهمـا معروفان ووضعا الـكتاب ص ٤٥٢ جـ٢ ... » رغم أن ابن خلدون لم يوضح صراحة اذا كان المقصود بالوضع فى هذه الفقرة هو مجرد الترجمة أم الاضافة .

على كل حال فأيا كانت حقيقة شخص هرشيوش فالواضح أنه مؤرخ جيد يقترب من الصواب فى كثير مما يذكره ولـكن هـذا لا يمنع تسلل الأساطير واختلاطها بالأحداث التاريخية عنده فى بعض الأحيان حيث كان ذلك هو طبيعة الـكتابة التاريخية فى ذلك العصر .

والحديث عن هرشيوش يجعلنا نتساءل كيف وصل عمله أو أعماله الى ابن خلدون وفى أى اللغات قرأها ؟ ومرة أخرى نعود لمـا ذكره ابن خلدون من شذرات فنجد أنه أشـار صراحـة الى أن عمل (أو أعمال) هرشيوش قد ترجم الى اللغة العربيـة ثلاث مرات مرة للحكم المستنصر من بنى أمية (ت أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م) وترجمه له قاضى النصـارى وترجمانهم فى قرطبة ، مرة ثانية ترجم للمأمون حينما بحث عن علوم الاغريق التى ذهبت الا مابقى بأيدى حكمائهم فى كتب خزائنهم . وهناك ترجمـة ثالثة ـــ ربما الحقت بها اضافات ـــ وهى التى اطلع عليها ابن خلدون ، أتمها رجلان مسلمان كانا يعملان فى بلاط ملوك الاسلام فى قرطبة .

عن باولوس أوروزيوس راجع :

(أ) حسين مؤنس ،فجر الأندلس، القاهرة ١٩٥٩، . صص٣٠ــ٣١

(ب) La Rouse Xxeme Siecle.

(ج) وراجع أيضا ابن خلدون ، المرجع السابق المجلد الثانى صص ١٦٩ ، ٣٨٨ ، ٤٠٢ .

(١٨) من الواضـح أن لجـدمون تحـريف لكيدايمون Lacedaimon وهو سهل فى شبه جزيرة البيلوبونيز ، خضع لسيطرة الدوريين فى القرن

الحادى عشر ق.م حيث أنشأوا فيه مدينة أسبرطه التى صارت أسطورة عسكرية بما خطته لنفسها من نظام صارم فى الحياة . وقد عرف مواطنو هذه المدينة بالأسبرطيين ولكنهم كانوا يعرفون أيضا باللاكيدامونيين .

(١٩) أن ربط بنو لجدمون بسكان سهل لكيدايمون يدفعنا الى الربط دون مجازفة بين أنتناش التى ذكرت فى المتن وأثينا حيث كانت الأخيرة هى المنافس التقليدى لاسبرطة . ويرجح هذا الربط حديث ابن خلدون عن الحكماء الانتاشيون والمعروف أن أثينا كانت جامعة بلاد الاغريق وملتقى مفكريها ومشرعيها . ومع ذلك يلاحظ أن ابن خلدون ذكر أثينا بعدة قراءات فذكر أثينا مثلا فى ص ٣٨٢ جـ٢ وذكرها باسم اثينوس فى ص ٤١٨ جـ ٢ كما ذكرها أنتناش فى النص الذى نحن بصدده ، وأرجح أن يكون ذلك بسبب اختلاف مصادره وناسخيه .

(٢٠) لم أستطع تحقيق الأسماء المذكورة باستثناء لجدمون وانتناش، ولكن المؤكد أن هذه الأسماء لها أصل حرفت عنه ، وهو مانلمسه فى كل ماكتبه ابن خلدون .

(٢١) من المعروف أن التاريخ الاغريقى يتسم بعدم تحقيق أى وحدة سياسية بين أجزاء تلك البلاد حتى عهد فيليب الثانى ٣٥٧ ق.م. ولذلك فان كل تاريخ هذه الأمة السابق على ذلك الوقت هو تاريخ استقلال المدن الاغريقية ، وبالطبع يدخل فى ذلك التاريخ المبكر لتلك البلاد الذى عاصر مصر القديمة أو قيام دولة بنى اسرائيل أو وقت المد الفارسى . وعلى ذلك يمكن أن نؤكد صحة ماذكره ابن خلدون عن افتراق شعوب الاغريق .

(٢٢) وقع ابن خلدون فى الخطأ عندما أشار الى وجود مثل هذه الفتن والحروب المبكرة بين الاغريق واللاتين ، والمعروف أن أول اتصال للاغريق بايطاليا كان خلال القرن الثامن ق.م عندما بدأوا فى انشاء مستعمراتهم على الشاطىء الايطالى فى الغرب والجنوب ، وقد حدثت مواجهات بين الاغريق فى ايطاليا واللاتين ولكن كان ذلك فى القرن الثالث ق.م كما تعرضت بلاد الاغريق نفسها للتدخل الرومانى بل وسقطت بلاد الاغريق فى أيدى الرومان خلال القرن الثانى ق.م.

ومع ذلك فالمعروف أن أهل فوكايا Phocaea فى آسيا الصغرى قد اضطروا الى الهجرة جميعا الى مساليا (مرسيليا) عندما سقطت مدينتهم فى أيدى الفرس عام ٥٤٤ ق.م. وكانت مساليا مستوطنة أنشأها بعض أبناء فوكايا فى أوائل القرن السادس ق.م ولكن هذا التوسع لم يعجب الحلف الأترورى القرطاجى فتحرش بالأسطول الفوكايى وهزمه فى معركة الاليا Alalia فى عام ٥٣٥ ق.م وبذلك قضى على أى أمل للاغريق فى توسيع نطاق سيطرتهم فى الغرب .

Hatzfeld, J., Histoire de La Grèce Ancienne, Paris, 1975, P. 118.

ولا أستطيع أن أؤكـد أن ابن خلدون كان يشـير الى ذلك الصراع الاغريقى الاترورى وأنه أشار خطأ الى صراع بينهم وبين اللاتين .

(٢٣) قال ابن خلدون أن الكينية هى دولة الفرس التى غزت الاغريق والمعروف أن هذه الدولة كانت تسمى بالاخمينية (أو الاكمينية) ولا أدرى اذا كانت الـكينية تحريف مقبول لهذا الاسم أم لا . على كل حال فان ابن خلدون يعلل تسميته تلك الدولة بالكينية بأن كل ملك من ملوكها كان يضاف الى اسمه (كى) والمضاف عند العجم متأخر عن المضاف اليه .

والمعروف أن الدولة الأخمينية قامت على أنقاض دون الميديين ،وقد استطاع قورش الثانى القضاء على استقلال ليديا تماما وهـدم عاصمتها فى عام ٥٤٦ ق.م ثم ثنى ببابل التى كانت تعانى من سوء الادارة وانتشار المجاعة فهزم ملكها بال شار أوصر وانتهى دور بابل كدولة مستقلة فى عام ٥٣٩ ق.م ، وقد استولى الملك الفارسى قمبيز الثانى على مصر فى عام ٥٢٥ ق.م وقد اصطدمت المصالح الفارسية بمصالح اغريق بلاد اليونان عندما حرضت أثينا ـ الجمهورية الفتية ـ اغريق آسـيا الصغرى على الثورة ضد الفرس . صمم دارا على غزو بلاد الاغريق ، وسير لهم جيشا وأسطولا . وقد لاقى الفرس مقاومة شديدة خاصة فى معركة مارثون عام ٤٩٠ ق.م التى أنتصر فيها الاثينيون . وقد دفعت تلك المعركة الفرس الى الانسحاب مؤقتا دون أن يفقدوا مراكز ارتكازهم على الشاطىء الاسيوى ثم عادوا الى حرب أثينـا فى عام ٤٨٦ ق.م بتحالف مع اسبرطة ،ولكنهم هزموا فى معركة سلاميس عام ٤٨٠ ق.م مما أدى الى انسحابهم تماما من حلبة الصراع تاركين الفرصة لأثينا لبناء امبراطوريتها .

ولـكن يعود الفرس الى التـدخل فى شـئون بلاد الاغريق خلال النصف الثانى من الحروب البيلوبونيزيه (٤١٣ ـ ٤٠٤ ق.م) ولاتتوقف دولة الفرس عن التدخل فى الشئون الاغريقية الا حينما يغزوها الاسكندر الأكبر فى عام ٣٣٤ وما تلاها . والمرجح أن اشارة ابن خلدون فى المتن الى غزو الفرس لبلاد الاغريق مقصود به هنـا غزو مملكة ليديا فى عهد قورش الثانى فى عام ٥٤٦ ق.م ، وذلك لاشارته الى استغاثتهم بمصر وكانت ماتزال دولة مستقلة خلال الأسرة ٢٦ ، ولـكنها خلال الصراعات التالية كانت قد أصبحت ولاية فارسية .

هامرتن ، جون أ. ، تاريخ العالم ، ترجمة ادارة الترجمة بوزارة المعارف ، جـ٢ القاهرة ، د.ت.ص ص ٣٩٢ ـ ٤١٦ .

(٢٤) المقصود هنـا بالقبط المصريين ، ورغم أن هذه الكلمة تشير فى الوقت الحالى الى المسيحيين المصريين ، الا أن الواضح أن ابن خلدون يستخدمها فى هذه الفترة لتدل على المصريين قبل المسيحية .

وهذا الاسم تحريف للاسم الاغريقى لمصر Ægyptus الـذى كـان تحريفا فيما يبدو لاسم مدينة قفط Coptos فى مصر العليا .

والعلاقة بين مصر وبلاد الاغريق فى العصور الفرعونية كانت علاقات صداقة ومودة خاصة فى العصر المتأخر من تاريخ مصر الفرعونية .

وقد شهدت العلاقات الاغريقية المصرية عدة تطورات ودية سابقة على الامتداد الفارسى فى غرب آسيا من ذلك استعانة بسماتيك الأول (٦٥٥ ق.م) وخلفائه بالمرتزقة الاغريق (كالكاريين والأيونيين) للعمل فى جيشه . كما اقام الاغريق مستوطنة نقراطيس بالقرب من العاصمة المصرية (سايس) لكى تكون مركزا للوجود الاغريقى فى مصر ، هذا بالاضافة الى معاهدة التحالف التى عقدت بين جيجس ملك ليديا وبسماتيك الأول تعهد فيها كل طرف بتقديم المساعدة للطرف الآخر فور احتياجه لها ، وتذكر المصادر أن مصر أعدت العدة لمساعدة الملك (جيجس) فى صد الغزو الأشورى الا أن سقوط هذا الملك سريعا حال دون اتمام هذه المساعدة .

وعندما قامت الدولة الفارسية الاخمينية وظهرت تطلعاتها الى التوسع ودب الخوف فى قلوب حكام العالم القديم ؛ سعى أحمس الثانى (٥٦٨ — ٥٢٦ ق.م) الى التحالف مع كرويسوس (قارون) ملك ليديا وبوليكراتيس طاغية ساموس وقيل أن أسبرطة وبابل شاركتا فى هذا الحلف ورغم أن هناك قصة تشير الى مشاركة مصر بعشرة آلاف جندى فى معارك حليفها الا أن ذلك مجرد احتمال ينفيه سقوط كرويسوس السريع ويبدو أن مصر شأنها فى ذلك شأن بابل وساموس نفضت يديهما من حلف صديقها كرويسوس خوفا من الفرس ومن غير المعروف اذا كانت مصر قد صنعت ذلك بنصيحة فارسية كما يشير ابن خلدون أم أنها اتخذت هذا الموقف دون تدخل أحد الأطراف . ولكن هذا الموقف لم يعف مصر من أن تصبح هى نفسها فريسة للغزو الفارسى فى عهد قمبيز عام ٥٢٥ق.م.

وبدراسة الفقرة التى أوردها ابن خلدون تبرز حقيقة اتفاقها مع الواقع التاريخى من حيث تعرض الاغريق للغزو الفارسى ثم استنجاد هؤلاء بالمصريين وموقف المصريين من الغزو الفارسى لليديا . ولكن تجدر الاشارة الى أن ابن خلدون ذكر هنا بداية الصراع الفارسى الاغريقى ، مع أغريق الشرق ولكنه لم يتابع تطورات هذا الصراع (أنظر الهامش ٢٣) . هامرتن ، جون ، أ ، المرجع السابق ص‌ص ٣٩٥ .

راجع عبد العزيز صالح ، الشرق الأولى القديم ، ج١ مصر والعراق القاهرة ١٩٧٦ ص‌ص ٢٨٢—٢٨٣ وقد نقل رواية هيرودودت وأشار الى

Herodotus, I, 77, II, 69 - 70, III, 39.

(٢٥) المعروف أن جزءا من العالم الاغريقى صار خاضعا للامبراطورية الفارسية ، فجميع المدن الاغريقية وآسيا الصغرى سواء كان أهلها دوريين أو أيوليين أو أيونيين كانت جزءا من مملكة ليديا — فيما عدا ميليتوس Miletus — ولما سقطت ليديا فى أيدى الفرس عام ٥٤٦

ق.م حاولت تلك المدن الاستقلال ولكن فشلت محاولتها واستطاع هارباجوس Harpagus نائب الملك الفارسى قورش الثانى أن يخمد ثورتهم بينما أعلنت ميليتوس ولاءها للفرس دون قتال .

وهكذا نلاحظ أن اشارة ابنخلدون الى خضوع الاغريق لحكام من الفرس ودفعهم للجزية ينطبق على ماحدث لاغريق آسيا الصغرى ولكن المؤكد أيضا أن الفرس لم يستطيعوا فرض سلطانهم على بلاد الاغريق الأصلية ماعدا تركيا ومقدونيا . ورغم أن الفرس حاولوا احتلال بلاد الاغريق الأصلية منذ عهد دارا فى ٥١٤ ق.م بل وقاموا بحملتين بريتين على تلك البلاد الأولى فى عام ٤٩٠ ق.م وقد هزمت فى مارثون كما انسحب الأسطول الفارسى دون أن يخوض المعركة بعد أن نجا من خدعة حاكها لاثينيون للايقاع به . أما الحملة الثانية فقد عبرت مضيق البسفور فى ٤٨٠ ق.م وقد تصدى لهذه الحملة حلف الاغريق بقيادة اسبرطة ورغم الدفاع البطولى للاغريق فقد سقطت أغلب بلاد الاغريق فى أيدى الفرس حتى أنهم دخلوا اثينا ودمروها الا أن نجاح الأسطول الاثينى فى الايقاع بالأسطول الفارسى فى معركة سلاميس ٤٨٠ ق.م غير الوضع تماما فأحبط الفرس واندفع الاغريق يحررون بلادهم حتى استطاعوا مطاردة الفرس فى آسيا الصغرى وهزموهم فى معركة موكالى بالقرب من ميليتوس بآسيا الصغرى عام ٤٧٨ ق.م ولكن الواضح أن ابن خلدون يشير الى اغريق آسيا الصغرى ويتضح ذلك فى اشارته الى الاستعانة بالمصريين والى دفع الجزية للفرس ، وهما امران ينطبقان على ماحدث فى آسيا الصغرى دون بلاد الاغريق الأصلية .

انظر الحاشية رقم (٢٣) .

احمد فخرى ، دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ط ٢ القاهرة ١٩٦٣ صص ٢١٦ — ٢٢٩ .

فوزى مكاوى ، تاريخ العالم الاغريقى وحضارته ، الدار البيضاء ١٩٨٠

(٢٦) المفروض أن افريدون هو نوح عليه السلام عند الفرس كما قال ابن خلدون فى ص ٣١٤ ج٢ وهو بذلك سابق على عهد الاستعمار الفارسى لآسيا الصغرى فى عهد قورش ٥٤٦ ق.م ويعتبر ذكره هنا اقحاما له فى الخبر فى غير موضعه. والمفهوم من سياق الخبر أن افريدون كان أحد أسلاف الاسكندر الأكبر ، وبالبحث بين هؤلاء الاسلاف نصادف (فيدون) ملك ارجوس الذى أسس الدولة المقدونية فى عام ٨٠٣ ق.م ، والمرجح أن افريدون هو تحريف لفيدون ، وعلى ذلك فالصياغة الصحيحة للخبر تكون أن (فيدون ولى عليهم ابنه) ، وهنا يكون الخبر غير متعلق

بالتدخل الفارسي فى شئون الاغريق ولــكنه حديث عن أخبار مقدونية ، ومن ثم يعتبر هذا الخبر نقله فى رواية ابن خلدون من حديث عن أخبــار منطقة الى ذكر أخبار منطقة أخرى من بلاد الاغريق . وكثيرا مايلاحظ مثل هذه النقلات عند ابن‌خلدون نظرا لأنه لايفرق بين‌مناطق الاغريق ولا يعزل أخبار كل منها عن الأخرى .

(٢٧) بختنصر هو نبوخذنصر ٦٠٤ ــ ٥٦٢ ق.م الملك البابلى الذى ارتبط اسمه بسبى العبريين الى بابل . وقد دخل فى عدة حروب ضــد الوجود المصرى فى غرب آسيا كان أولها فى عام ٦٠٥ ق.م عنــدما كان وليا للعهد وقد هزم الجيش المصرى فى قرقميش ثم تقدم نحو العريش . وهنــاك علم بموت أبيه فعاد سريعا الى بابل حيث تقلد زمام السلطة ثم سار فى اتجاه الشام حيث أخضع‌مدنه مثل دمشق وصور وصيدا وأورشليم ودمر عسقلان ، كما دخل معركة فى عام ٦٠١ ق.م ضد مصر التى كانت تشجع المتمردين على حكمه ولــكننا لا نعرف نتيجة هذه المعركة .

كما تذكر المصادر حملة أخرى له فى اتجاه مصر فى عام ٥٧١ ق.م ولــكننا لا نعرف الى أى مدى نجحت هذه الحملة أيضا وان كان هيرودوت يذكر أن الملك المصرى نخاو عقد معاهدة صداقة مع نبوخذنصر وأنه اتبعها بنسب تزوج بمقتضاه الملك البابلى بأميرة مصرية صارت ملكة على بابل .

وحديث ابن خلدون عن هذه الفترة جدير بالمناقشة اذ أنه يذكر نجاح نبوخذنصر فى الاستيلاء على مصر ــ وهذا أمر لم يتأكد تاريخيا ــ ولــكن المؤكد أنه استطاع أن يحيد مصر ويخرجها من حلبة الصراع فى غرب آسيا سواء بهزيمتها أو بالاتفاق معها . ومن ثم فليس هناك مايمنع من الوجهة المنطقية أن تخضع له ليديا ــ التى سبقت أن خضعت للاشوريين قبــل نصف قرن وأن تدفع له الضرائب واشارة ابن خلدون الى المغرب مقترنا بمصر ليس فيها تجاوز كبير ، اذ كانت برقة تدور فى فلك النفوذ المصرى، خلال حكم ابريس وأحمس الثــانى (٥٨٨ ــ ٥٢٦ ق.م) طــه باقر ، مقدمه فى تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد ، ١٩٧٣ صص ٥٤٦ــ٥٤٩

عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٢٨١ .

(٢٨) الجزية التى دفعتها ولايات آســيا الصغرى لدولة الأخمينيين الفارسية بلغت ١٧٦٠ تالنت من الفضة سنويا ، وتالنت وزنه تساوى ٦٠ منا والأخير وزنه قريب جدا من الرطل الانجليزى أى مايقرب من نصف كيلوجرام . وليس هناك مايدل على أن هذه الكمية من الفضة كانت تدفع على شكل كرات أم لا .

أحمد فخرى ، المرجع السابق ص ٢٢٧ .

(٢٩) ربما كانت الاشارة هنا تعنى الصدام الاغريقى مع الاتروريين وليس اللاتين (انظر الحاشية رقم ٢١) .

(٣٠) اذا صح الربط بين أنتناش واثينـــا (أنظر الحاشية رقم ١٧) فالواضح أن اشارة النص الى (الجرمونيون) خطأ املائى وان المقصود بها الـــ (لجدمونيون) أو (بنو لجدمون) الذين سبقت الاشارة اليهم وهم اللكيدامونيون أى أهل أسبوطه . والنص هنـــا يشير الى احداث بلاد الاغريق الأصيلة مما يعتبر نقله جديدة مفاجئة من آسيا الصغرى الى بلاد الاغريق .

والنص يشير الى التنافس الذى شهدته بلاد الاغريق بين كل من أثينا واسبرطة فى أعقاب نجاح الاغريق فى طرد الفرس من بلادهم .

فقد تفاخرت أثينا بتضحياتها من أجل حرية الاغريق مما أدى الى حنق اسبرطه عليها . وقد دفع هذا الحنق على أثينـــا ملك اسبرطه المتحالف مع الاثينيين الى محاولة خيانتهم بالاتفاق مع الفرس فى عام ٤٧٨ ق.م ، ولـــكن الأثينيين فضحوا أمره واضطروا الاســـبرطيين الى محاكمته وبذلك خرجت اسبرطه من حلبة التفاخر بالأمجاد تاركين لأثينا الفرصة لكى تصبح زعيمة لبلاد الاغريق .. وقد دفع هذا الموقف الجديد الاثينيين الى السعى للجمع بين الدفاع عن حرية الاغريق والمصلحة الخاصة بأثينـــا . وهكذا نشأت امبراطورية أثينـــا الأولى ولـــكن هذه السياسة الاستعمارية التى اتبعتها أثينا أدت الى وقوع واحدة من أكبر الحروب التى شملت العـــالم الاغريقى كله واستمرت لمدة سبعة وعشرون عاما (٤٣١ — ٤٠٤) أقصد بها حروب البيلوبونيز .

ديورانت ، المرجع السابق جـ٧ ، ص٦ وما بعدها .

واذا عدنا لنص ابن خلدون نجده يقرر واقع ماحدث حيث استفحل أمر الأثينيين الذين لم يكن منافسا لهم فى القوة ســـوى الأسبرطيين . وعندما نجح الأولون فى اخراج الاسبرطيين من حلبة الصراع انفتح أمامهم باب السيطرة على بقية أجزاء بلاد الاغريق .

(راجع هذه الحاشية من أولها) .

(٣١) هنـــا نصل الى أسماء الشـــعوب التى ذكرها ابن خلدون : اللطينيون وهم لم يدخلوا هذا الصراع أصلا (أنظر أيضا الحاشية رقم ٢٢) ثم الفرناسيين ولم أستطع تحقيقهم وربما كانوا الفرسالبين أى أهل فرسالوس Pharsalus فى تساليـــا ومن المحتمل جدا وقوعهم تحت نفوذ الأثينيين وأخيرا الأركاديين وهم أهل أركاديا فى وسط شبه جزيرة البيلوبونيز ومن المؤكد أنهم وقعوا تحت النفوذ الأثينى .

(٣٢) السيد أحمد الناصرى ، المرجع السابق ص ٢٥٣ وما بعدها .

(٣٣) ماذكره ابن خلدون عن أصل الاغريق على لسان ابن ســـعيد هنـــا يتفق مع مايتردد عند النسابين ويتفق كذلك مع ماأخذ به ابن‌خلدون فى موجزه الذى ذكره فى البداية .

(٣٤) الحديث عن قهر اللاتينيين والروم يوضح شيئين : الشيء الأول أن ابن خلدون ذكر قهر الاغريق للاتين فى ملخصه متأثرا بما ذكره ابن سعيد . أما الشيء الآخر أن ابن خلدون قد استبعد حدوث الصراع مع الروم ولعله أدرك أن الروم الذين عرفهم المسلمون قد خلفوا الاغريق ولم يعاصروهم . والمعروف أن (الروم) هو الاسم الذى أطلقه المسلمون على الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) .

(٣٥) الفقرة السابقة تشير الى علو شأن ابن خلدون مقارنا بمصادره ، فبينما نجد ابن سعيد يخلط الأمور ويتحدث عن أشياء خرافية كخضوع كل العالم المعمور للاغريق ، والحديث عن الدولة اليلاقية ، ثم أسماء الملوك الذين لا يمكن التحقق من صحتهم نجد أن ابن خلدون يقدم الموضوع بموجز من عنده يذكر فيه الملامح الرئيسية لتاريخ الاغريق دون أن يبتعد كثيرا عن الحقيقة التاريخية المعروفة فى الوقت الحاضر .

(٣٦) ماذكره ابن خلدون فى هذه الفقرة على لسان ابن سعيد اسطورى فى أغلبه ومن الصعب التحقق من صحته .

(٣٧) تبدأ كتابات ابن سعيد تقترب من الواقع التاريخى من حديثه عن اعتلاء فيلفوش للعرش . وفيلفوش هذا هو دون شك فيليب الثانى والد الاسكندر الأكبر الذى اعتلى عرش مقدونيا بعد فترة اضطربت فيها الأمور فى تلك البلاد . وقد تولى الحكم فى عام ٣٥٩ ق.م بعد أن أزاح ابن أخيه الطفل أمونتاس الثالث . ذكر ابن خلدون اسمه فى ثلاثةقراءات هى فيلفوس (ص ٢٢٧ جـ ٢) نقلا عن وهب بن منبه ، وفليبس علىلسان هشام بن محمد الذى ذكره الطبرى (ص ٣٢٧ جـ ٢) وأخيرا ذكره فيلفوش على لسان ابن سعيد وهروشيوش . ولا أدرى لماذا لم يربط ابن خلدون بين الأسماء الثلاثة ويحاول معرفة أصح الأسماء بينها ، وليس هناك تفسير لذلك الا أنه لم يربط بين أحداث تاريخ الشعوب المختلفة ، ولعله رأى كل منها منفصل عن الآخر .

(٣٨) أنظر الحاشية رقم (٢٦) .

(٣٩) هذه الفقرة التى ذكرها ابن خلدون نقلا عن ابن سعيد تشير الى الحقيقة التاريخية التى سادت بلاد الاغريق فى ذلك الوقت ،فالمعروف أن فيليب الذى اعتلى عرش مقدونيا وهى دولة مفككة الأوصال ، استطاع خلال حكمه الذى استمر من عام (٣٥٩—٣٣٦ ق.م) أن يجعل منها سيدة بلاد الاغريق وقائدة لحلفهم بعد انتصارات مشهورة استولى على أمفيبولس عام ٣٥٧ق. وبدنا وبوتيدايا ٣٥٦ق.م وفى عام٣٥٥ استولى على ميتونى وفى عام ٣٤٧ ق.م استولى على أولينثوس وبذا أتم سيطرته علىالشاطىء الأوربى لبحر ايجه الشمالى . واستولى على فوكيس فى عام٣٤٦ .وأصبح زعيما للحلف الامفكتيونى فى دلفى ورأس الالعاب البيثية ، وانتصر على أثينا فى عام ٣٣٨ . وأصبح زعيما لبلاد الاغريق كلها .

عن جهود فيليب لبناء مقدونية راجع :

السيد أحمد الناصرى ، المرجع السابق صص ٤٦٩ وما بعدها .

(٤٠) اشارة ابن سعيد هنا الى أن مقدونيا تقع وسط الممالك فى الجانب الغربى من الخليج تثير مسألة أى خليج يقصد الكاتب ؟ لقد رأينا ابن خلدون من قبل يشير الى أن الاغريق يقيمون على الشاطىء الشرقى من خليج القسطنطينية بينما رأى أن اللاتين يقيمون على الجانب الغربى ومن ثم رجحنا أن يكون القصد بحر الادرياتيك وليس بحر ايجه (انظر الحاشية رقم ١١) وكيف لم يلاحظ ابن خلدون ان اشارة ابن سعيد الى الجانب الغربى من الخليج كمكان لمملكة مقدونيا يحمل تناقضا لما قال هو به ؟

ولكن الواقع أن اشارة ابن سعيد هنا صحيحة تماما ولعله كان يدرك أن الاغريق اقاموا على جانبى خليج القسطنطينية (بحر ايجة) .

(٤٢) هذه الفقرة تتفق مع الحقيقة التاريخية المعروفة تماما . والمعروف أن ارسطو ولد فى استيجيرا عام ٣٨٤ ق.م وانتقل الى اثينا فى عام ٣٦٨ ق.م حيث تتلمذ على افلاطون وظل ملازما له حتى وفاته فى عام ٣٤٨ ق.م .

هاجر ارسطو من اثينا الى اسوس Assus فى آسيا الصغرى وتزوج ابنة حاكمها ولكن اغتيال هذا الحاكم فى ٣٤٤ ق.م أدى الى رحيله عن تلك البلدة .

وقد تلقى دعوة من فيليب الثانى فى عام ٣٤٣ ق.م كى يأتى الى بيلا عاصمة مقدونيا . وهناك اشرف على تربية الاسكندر . ويبدو أن الفيلسوف حظى باحترام الأب كما حظى باحترام الابن فاستجاب الى طلبه باعادة بناء مدينة استيجيرا ، وكانت قد خربت اثناء حرب لفيليب مع اولينثوس Olynthus . وكلفه فيليب بالاشراف على اعادة بنائها وطلب اليه أن يعد دستورها .

وفى عام ٣٣٤ ق.م عاد أرسطو الى اثينا حيث افتتح مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة وبقى هناك حتى عام ٣٢٢ق.م حيث اضطر ان يغادرها ارسطو الى خالكيس حيث مات بعد مرض دام ثلاثة اشهر ، وقيل انه انتحر لأنه لم يعرف سر المد والجزر .

اغسطنيس برباره البوليسى ، المرجع السابق صص ١ — ٥٠ .

(٤٣) كان سلف فيليب المباشر يدعى برديكاس الثالث ، وهو أبو الطفل أمونتاس الذى ازاحه فيليب عن العرش ، ولكن المعروف أن عددا من ملوك مقدونيا حملوا اسم الاسكندر من بينهم اثنان سبقا فيليب على العرش . الاسكندر الأول وقد حكم فى عام ٤٩٦ ق.م واستطاع أن يتلقى اعتراف الاغريق به وبشعبه كاغريق وليسوا برابرة ، وذلك بعد ان اثبت لهم بأن نسبه يمتد الى هرقل أول من وضع فكرة الألعاب الأولمبية ، ومن ثم سمحوا له بالاشتراك فى هذه الألعاب .

أما الاسكندر الثانى فقد تولى العرش فى عام ٣٦٩ ق.م بعد اغتيال أبيه أمونتاس الثانى فى ظروف غامضة ، ولكنه هو الآخر سرعان ماتعرض للاغتيال على يد عشيق أمه .

ولعل حديث هروشيوش عن الاسكندر أحد ملوكهم العظام يشير الى الاسكندر الأول لا الثانى رغم بعد الزمن بينه وبين فيليب ، فالكثير من الأعمال تنسب الى الاسكندر الأول منها على سبيل المثال انتزاعه اعتراف الاغريق بانتساب المقدونيين للاسرة الاغريقية ، واجادته للغة الاغريقية باللهجة الاتيكية وأخيرا نجاحه فى احراز النصر فى ساحة الألعاب الأولمبية . كل ذلك ساعد على وصفه بالعظمة حتى أن الشاعر الاغريقى الشهير بندار تغنى بانتصاره فى الألعاب الأوليمبية . أما الاسكندر الثانى فقد بقى فترة قصيرة على العرش لم تسمح بابراز مواهبه . ولكن ليس لدى ماأذكره عن (تراوش) الذى ذكر هروشيوش انه أباه .

السيد احمد الناصرى ، المرجع السابق صص ٤٥٣ — ٤٥٧ .

(٤٤) المعروف تاريخيا أن زوجة فيليب الثانى وأم الاسكندر تدعى أوليمبياس Olympias وكانت أميرة من أبيروس Epirus وقد تزوجها فى عام ٣٥٨ ق.م وقد اشتهرت هذه السيدة بايمانها بعبادات وعقائد ذات طقوس سحرية تتميز بالصخب والمجون وقد وصل الهوس بهذه السيدة أن أعلنت انها تحمل جنينا أبوه زيوس والمعروف أن الاسكندر الأكبر كان متعلقا بأمه أكثر من تعلقه بأبيه حتى نسب اليه بعض المؤلفين اصابته بعقدة أوديب . وتتضح عمق الرابطة بين الابن والأم من حرص الاسكندر على أن يخبر امه بأسرار زيارته لمعبد آمون سيوه ، بل أعلن فى الرسالة أنه عرف أسرارا هامة سيفضى بها اليها عندما يعود الى مقدونيا .

ولا أستطيع الربط بين أم الاسكندر المعروفة تاريخيا وبين الاسم الذى ذكره ابن خلدون على لسان هروشيوش وهو لينبادة .

Henri Van Effenterre, L'age grec, Histoire Universelle, Larousse, Paris, 1968. PP. 349 - 353.

(٤٥) حكم الاسكندر الأول — كما سبقت الاشارة — حوالى عام ٤٩٦ ق.م وحكم الاسكندر الثانى فى عام ٣٦٩ . وتحديد حكم الاسكندر بن تراوش لعهد أربعمائة (عام) أو نحوها من بناء روما يعنى انه حكم حوالى ٣٥٣ ق.م وهذا يحصر الاشارة فى الاسكندر الثانى ، كما أن الاشارة الى أن مقتله بعد سبع سنين من اعتلائه العرش يتفق مع قصر مدة حكم ذلك الملك . ولكن سبقت الاشارة فى النص — على لسان هرشيوش نفسه — بأن الاسكندر بن تراوش هذا كان أحد ملوكهم العظام وهو مايتفق مع مكانة الاسكندر الأول لا الثانى .

أما الحديث عن مقتل الاسكندر بن تراوشن — سواء صح الأول او كان الثانى — أثناء حصاره لروما فهو أمر غير صحيح من الناحية التاريخية ، ولعل أول ملوك الاغريق الذى سعى لمهاجمة الرومان فى ديارهم كان بيرهوس ملك ابيرس الذى جاء الى هناك عام ٢٨٠ ق.م واضطر الى مغادرة ايطاليا بعد هزيمته فى Beneventum فى عام ٢٧٥ دون أن يحقق هدفه . راجع :

عبد اللطيف أحمد على ، روما ، القاهرة د.ت ص‌ص ٤٨ — ٥١ .

(٤٦) من الواضح أن هناك خلط فى النص بين الموقع الجغرافى والتتابع التاريخى . فالحضارة الاغريقية قامت فى نفس الموقع الجغرافى الذى خلفتها فيه الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) وهى التى اعتاد العرب أن يسموها بالروم ، ورغم أن هذه المعلومة منسوبة لهروشيوش (مؤرخ الروم) فانى أعتقد بأنها اضافة من ابن خلدون أو مترجمى هروشيوش حيث لم يكن أسم (الروم) شائعا بين مؤرخى الغرب .

(٤٧) فيلفوش بن أمنته بن هركلش : ذكر هروشيوش نسب فيليب المقدونى صحيحا تماما ، اذ كان فيليب ابنا للملك امونتاس الثانى Amyntas الذى اعتلى عرش مقدونيا بعد مصرع الملك ارخيلاوس فى عام ٣٩٩ ق.م وظل على العرش حتى مصرعه فى عام ٣٦٩ ق.م. وقد رزق هذا الملك بثلاثة ابناء اعتلوا العرش جميعا وهم الاسكندر الثانى ثم برديكاس الثانى الذى خلفه ابنه الطفل أمونتاس الثالث تحتوصاية عمه فيليب . وما لبث الأخير أن أزاح الطفل واعلن نفسه ملكا على مقدونيا .

أما اشارة هروشيوش الى هركلش فهى كناية محرفة لهركليس (هرقل) . وهذا النسب يتفق مع ماسبقت الاشارة اليه من ادعاء الاسكندر الأول للشعوب الاغريقية بأنه ينتسب الى هرقل أول من فكر فى اقامة الألعاب الأوليمبية ، وقد قبل الاغريق هذا الادعاء وسمحوا له بالاشتراك فيها ، كما رفعوا عنه لقب بربرى بناء على ذلك .

(راجع الحاشية رقم ٤٣) .

(٤٨) عندما اعتلى فيليب عرش مقدونيا فى عام ٣٥٧ ق.م بذل جهده لتحقيق هدفين : الأول هو القضاء على الفتن فى بلاده مقدونيا واقامةدولة متحدة قوية فيها وقد نجح فى ذلك نجاحا باهرا . أما الهدف الثانى فهو تحقيق سيطرته على بلاد الاغريق وقد سلك لتحقيق هذا الهدف مسالك مختلفة منها التقرب الى كهنة ابولو فى دلفى (وقد ساعده هذا الأسلوب على احتلال مقعد فوكيس فى الحلف الأمفكتيونى) . ورشوة رجالات السياسة والحرب فى المدن الاغريقية كلما استطاع ذلك ، واخيرا كان

يلجأ الى القتال اذا عجز عن بلوغ اهدافه باستخدام الوسيلتين السابقتين. وقد استطاع فى عام ٣٣٨ ق.م أن ينتصر على الحلف الاغريقى المضاد له بقيادة أثينـــا ، ثم استطاع فى نفس العام أن يعقد حلفا فى كورنثا اعترف فيـــه الاغريق ــ باستثناء اسبرطة ــ بقيادته لقوات هـــذا الحلف . ثم عقد اجتماعا لأعضاء حلف كورنثا فى العام التالى ٣٣٧ ق.م قرر فيـــه القيام بحمله ضد الفرس عدو الاغريق المشترك وحصل على موافقة أعضاء الحلف على هذا القرار . ولـــكن القدر لم يسمح له للقيام بتلك الغزوة فاغتيل فى عام ٣٣٦ ق.م ، وقد تحقق هدفه بضرب الفرس فى عهد ابنه اسكندر الأكبر .

Hetzfeld, Jean, Histoire dé la Grèce Ancienne, Paris 1975 P. 24.

(٤٩) المعروف أن مدينة القسطنطينية لم تعرف بهذا الاسم الا بعد عام ٣٢٣ م عندما اختارها قسطنطين الأكبر مقرا لحكمه . ولـــكن كانت المدينة نفسها قائمة قبل هذا التاريخ بقرون وكانت تسمى بيزنطه . قامت هذه المدينة منذ أواسط القرن السابع قبل الميلاد كمستوطنه لأهالىميجارا. وقد ساهمت تلك المستوطنة بدورها فى أحداث المنطقـــة فأيدت الفرس أثنـــاء حملتهم ضـــد بلاد الاغريق ولـــكنها عادت عن ذلك بعد قليل ، مما أدى الى احتلال الفرس لها وضمها الى الأملاك الفارسية . ونجحت فى طرد الفرس بمساعدة اسبرطة عام ٤٨٧ ق.م. ومنذ ذلك التـــاريخ تقلبت بين المعسكرين الاغريقيين تارة مع اسبرطة والأخرى مع أثينـــا . وعندما أراد فيليب المقدونى الاستيلاء عليها اضطر الى القتال العنيف ضد مقاومتها المستميتة بمعونة أثينـــا ، والمعروف أنه لجأ الى عزلهابالاستيلاء على السهول الوسطى من بلاد اليونان مما دفعها الى الانكفاء على الذات وانكماش دورها السياسى .

والنص الذى ذكره ابن خلدون على لسان هروشيوش هنا يشير الى هذه الأحداث ولـــكن ينسب بنـــاء المدينة لفيليب وهذا أمر غير صحيح تاريخيا والصحيح ((الاستيلاء وليس البنـــاء)) . ويشـــير النص الى أن فيليب واجه مقاومة من ((الجرمانيون) ولعل المقصود (لجدمانيون) وهم بنولجدمون الذين سبقت اشارة ابن خلدون اليهم .

(أنظر الحاشـــية رقـــم ١٨) أى (الاســـبرطيون) . ورغم صلة الاسبرطيين بأهل بيزنطة وسيطرتهم عليها فترات طويلة الا أن الثـــابت تاريخيا أن اثينـــا لا أسبرطة هى التى ساعدت بيزنطة أثنـــاء تعرضـــها للغزو المقـــدونى ، أما الفقرة الثانيـــة فهى صحيحة تاريخيـــا اذ تقول : « ... فقاتلهم (فيليب) حتى استلحمهم .. » وهذه حقيقة تشـــير الى عنف مقاومة أهل بيزنطة فى دفاعهم عن مدينتهم كما أنها اشارة دقيقـــة لم تحدد المنتصر وهى بذلك تتفق معحقيقة فشل فيليب فى الاستيلاء عليها.

السيد أحمد الناصرى ، المرجع السابق صص ١٦٧ ــ ١٧٠ .

(٥٠) استخدم ابن خلدون ــ على لسان هروشيوش ــ لفظى الروم والغريقيين والمعروف أنهما اسمين لمدلول واحد مع اختلاف العصر التاريخى لـــكل منهما ــ وقد تكرر هذا الخطأ اكثر من مرة فى النص ــ كما استخدم أيضا كلمة المانية للاشارة الى الحدود الغربية لأملاك فيليب رغم انها لم يكن لها وجود فى ذلك التاريخ ، والمرجح انها تحريف لاسم منطقة اغريقية لم أوفق فى تحديدها .

وحديث النص هنا يشير الى أملاك فيليب وفى الواقـــع أن هـــذا التحديد غير دقيق اذ المعروف تاريخيا أن فيليب نجح خلال فترة حكمه التى امتدت حوالى عشرين عاما من فرض ســـيطرة مقدونيـــا على أغلب بلاد الاغريق القارية من خلال حلف كورنثا ولـــكن المؤكد أيضا أن قوات فيليب كانت على وشك العبور الى آسيا الصغرى عندما قتل وهو مايؤكد بأن سيطرة فيليب لم تصل أبدا الى أرمينيا .

Hatsfeld, Jean, op. cit., PP. 248 - 261.

(٥١) الاشارة الى استيلاء الفرس على الشام ومصر اشارة صحيحة تاريخيا (راجع أيضا الحاشية رقم ٢٢) .

(٥٢) لم يعرف على وجه اليقين أن فيليب قـــد خطط لغزو الشـــام أم لا ، ولـــكن المعروف أنه كان قد خطط لمحاربة الفرس فى اجتماعات حلف كورنثا ٣٣٧ ق.م وأنه سير جيشين لهذا الغرض أحدهمـــا بقيـــادة أنتيبـــاتر Antipater والثانى بقيادة أتاللوس .

وعنـــدما قتل فيليب كان الجيش الثـــانى قـــد عبر مضيق الدردنيل بالفعل . على كل حال فان اشارة النص الى عزم فيليب على محـــاربة الفرس حقيقة تاريخية كما أن الاشارة الى عدم قيام هذه الحرب بسبب مقتله أمر صحيح أيضا .

والاشارة الى اغتيال فيليب معلومة صـــحيحة تبين الطريقـــة التى انتهت بها حيـــاته ، ولو رفعت كلمة (اللطينيون) من النص لأصبح محتمل الصحة من النـــاحية التاريخية ، وذلك لأن اللطينيين اقحموا على النص فلم يكونوا طرفا فى أى صراع ســـياسى مع الاغـــريق فى ذلك الوقت . والمعروف أن اغتيال فيليب تم على يد أحد الضباط المقـــدونيين ، ويدعى بوزنياس اثناء احتفال فيليب بزفاف ابنته كليوباترة .

Briant, Pierre, Alexandre Le Grand, Presses Universitaises de France, 1974. PP. 8 - 9.

(٥٣) الثابت تاريخيا أن الاسكندر لم يحد مطلقا عن هدف أبيـــه فى ضرب الامبراطورية الفارسية واذا كانت بداية الزحف قد تأجلت من عام ٣٣٦ ق.م الى عام ٣٣٤ ق.م فان ذلك كان بسبب الظروف التى نشأت عن الموت المفـــاجىء لفيليب المقدونى وما تلا ذلك من اضطرابات عمت

بلاد اليونان . وقد أجل الاسكندر القيام بتلك الحملة حتى قضى نهائيا على كل دواعى التمرد على سيطرة مقدونيا . وهكذا نلاحظ أن اشارة ابن خلدون على لسان هرشيوش صحيحة .

Hatzfeld, Jean, op. cit., PP. 263 - 265.

(٥٤) ليس هناك أدلة على أن مقدونيا كانت تدفع أية ضرائب للفرس على عهد فيليب أو الاسكندر ويبدو أن هذه الرواية الواردة فى النص ماهى الا محاولة للبحث عن أسباب الصدام الجديد بين الفرس والأغريق . وقد حاول كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين أن يصلوا الى السبب الحقيقى الذى حدا بفيليب ومن بعده الاسكندر الى البدء بحرب الفرس . ويرى بوليبيوس أن الأسباب التى دعت فيليب للتفكير فى حرب الفرس كانت الرغبة فى الحصول على الغنائم ، وقد ساعدت المعلومات التى كانت متاحة أمام فيليب على اتخاذه لقرار الحرب وذلك لأن اكسنفون وجنوده الذين انسحبوا عبر آسيا الصغرى وهى بلاد معادية لم يتعرضوا لأى محاولة من جانب البرابرة للهجوم عليهم او اعاقتهم وكان أمامهما تجربة اجزيلاوس Agesilaus ملك اسبرطة الذى لم تواجهه أى عوائق فى تحقيق أهدافه فى آسيا الصغرى ولكنه اضطر للعودة بسبب الاضطرابات فى بلاد الاغريق نفسها وبالاضافة الى هذا وذلك فان فيليب كان يحس بكفاءة جنوده العسكرية اذا قورنوا بجبن وعدم كفاءة الفرس لكل هذه الأسباب أعلن فيليب للاغريق أنه قرر حرب الفرس واعلن لهم ان ذلك يتم انتقاما لسوء معاملتهم للاغريق وقد خلفه الاسكندر فى تحقيق هذا الهدف .

Polybius, The Histories, London, 1975, BK III, 6. 12 - 14.

(٥٥) اشارة ابن خلدون عن مسئولية الاسكندر عن بدء القتال اشارة صحيحة تاريخيا .

والاشارة هنا الى فتح بيت المقدس صحيحة ولكنها لا تأتى فى ترتيبها التاريخى المعروف (أنظر الحاشية رقم ٦٠) والمعروف أن بيت المقدس خضعت للاسكندر أثناء عودته من مصر فى عام ٣٣١ ق.م وهو تقدير قريب جدا مما قال به ابن خلدون (أنظر الحاشية رقم ٣٦) .

(٥٦) اشارة ابن خلدون الى سخط الملك دارا على الاسكندر بسبب سقوط القدس أمر مبالغ فيه ، فالحرب كانت دائرة بين القوتين منذ عام ٣٣٤ قبل سقوط القدس بثلاث سنوات . وافتراض تحرك الفرس بسبب سقوط القدس قائم على أساس خاطىء بافتراض قدسية تلك المدينة لدى الفرس المجوسيين . والمرجح أن هذا التصور هو انطباع هرشيوش المسيحى (أنظر الحاشية رقم ١٧) عن الموضوع .

(٥٧) من الواضح أن أرقام الجنود مبالغ فيها والمعروف أن قوات الاسكندر لم تزد عن ٤٠ الف جندى مشاه وفرسان يعززهم اسطول يضم ١٦٠ سفينة بينما يقال أن دارا كان قادرا على تجنيد ١٠٠ الف جندى والاشارة هنا منسوبة الى هرشيوش أيضا ، لقد قال ابن خلدون رأيه مرتين الأولى فى المقدمة عندما شجب ذلك الأسلوب الذى يلجأ اليه بعض المؤرخين لاجتذاب اهتمام القارىء على حساب الحقيقة ، والمرة الثانيةفى اجماله الذى ذكره فى بداية الفصل وهو لم يشر مطلقا الى مثل هذه الأعداد مما يوحى بعدم اقتناعه بها .

(٥٨) المعروف تاريخيا أن فتح الاسكندر لطرسوس كان سابقا على معركة ايسوس ولم يعد الاسكندر لطرسوس بعد فتحه لبيت المقدس (انظر خط سير الاسكندر الحاشية رقم ٦١) .

(٥٩) الاشارة هنا الى بناء الاسكندرية تثير قضية تأسيس الاسكندر لعدة عشرات من الاسكندريات على طول خط سيره (انظر الخريطة) ولكن لم تبق منهما سوى الاسكندرونة شمال الساحل الفينيقى والاسكندرية فى مصر . والمرجح أن الاشارة هنا الى بناء الاسكندرونة نظرا لأنها أقرب الاسكندريات الى طرسوس .

(٦٠) ماذكره ابن خلدون هنا يختلف بعض الشيء عن المعروف عن خط سير الاسكندر فى الشرق الأدنى القديم لقد سيطر الاسكندر على أغلب آسيا الصغرى بعد انتصاره فى ايسوس Isos فى نوفمبر٣٣٣ وكانت خطوته التالية هى السيطرة على مدن الساحل الفينيقى فاستسلمت له ارادوس وبيبلوس وتريبولس وصيدا
Arados - Byblos - Tripolis - Sida.
دون مقاومة تذكر ولكن صور لم تسلم له قيادها الا فى اغسطس ٣٣٢ بعد حصار دام سبعة شهور . تقدم الاسكندر بعد ذلك نحو الجنوب على الطريق الساحلى حيث نجح فى الاستيلاء على غزة فى نوفمبر عام ٣٣٢ ق.م بعد مقاومة عنيفة .

واخيرا وصل الى الحدود المصرية التى وجدها مفتوحة أمام جنوده، اذ استقبله المصريون كمحرر لبلادهم من براثن الفرس ، قضى الاسكندر فى مصر شتاء عام ٣٣١ ، وفى خلال تلك المدة قام بالعديد من الأعمال.

ثم غادر مصر متوجها الى صور التى وصلها فى صيف ٣٣١ ق.م. وفى الطريق استولى على بيت المقدس التى استسلمت له دون مقاومة . ثم اتجه الى دمشق واستولى عليها ثم عبر الفرات ودجلة واخيرا التقى بعدوه دارا فى معركة جاوجميلا وهزمه هزيمة ساحقة هرب دارا بعد المعركة من مكان الى مكان الى ان قتله أحد جنوده فى باكتريا .

أما الاسكندر فقد اندفع بجنوده فى اتجاه مدينة بابل التى فتحت أبوابها لاستقباله فبقى فيها بعض الوقت حتى استراح جنوده ، ثم اتجه

بهم نحو الجنوب الشرقى فى اتجاه سوسا المقر الصيفى لملك الفرس واستولى عليها ، ثم اتجه نحو العاصمة برسيبولس Persipolis ونجح فى الاستيلاءعليها وقد نسب الىالاسكندر حرقه قصر اكسركسيس وهو ثمل.

الا أن هذا الخبر مشكوك فيه وفى صحته فالثابت تاريخيا أنه أحسن معاملة كل من استسلم له أو اعترف بسيادته بل أنه ثبت عدداكبيرا من حكام الأقاليم الفارسية فى أعمالهم وان أشرك معهم مقدونيين كما شجع جنوده المقدونيين على اتخاذ زوجات فارسيات ويقال انه احتفل بزواج عشرة آلاف من جنوده على فتيات فارسيات فى يوم واحد كما أنه تزوج روكسا نابنة حاكم باكتريا وهى التى ولدت له ابنه الاسكندر بعد وفاته .

واذا عدنا الى النص الذي ذكره ابن خلدون فاننا نلاحظ اختلافا لخط سير الاسكندر عما هو ثابت تاريخيا فاستيلائه على طرطوس سابق على دخوله الى أرض الشام وسقوط بيتالمقدس فى يديه كان أثناء عودته من مصر ، والاشارة الى قتل الاسكندر لدارا غير ثابت تاريخياوالمعروف أنه قتل بيد أحد ضباطه .

Paul Petit, Précis D'Histoire Ancienne, Paris, 1965. PP. 155 - 158.

(٦١) اتبع الاسكندر سياسة ادارية ارتكزت على اقرار أغلبالحكام المحليين فى وظائفهم على أن يقصر مسئولياتهم على النواحى الادارية فقط ، أما قائد الحامية العسكرية فكان فى كل الحالات مقدونيا ،ويشارك الاثنان موظف مكلف بالشئون المالية وجباية الضرائب. وقد هدف الاسكندر من هذا التقسيم أن يأمن خطر انفراد شخص واحد بالسلطة مما قد يغريه بالتمرد عليه . واشارة ابن خلدون هنا عن تأثير أرسطو على فكر الاسكندر أمر غير منكور ولكن التساؤل هنا عما اذا كان أرسطو قد اقنعه بجعل الحكم فى اسافلهم ؟ وهو أمر غير مؤكد تاريخيا .

(٦٢) المعلومة التى أوردها هنا ابن خلدون عن أرسطو صحيحة تاريخيا . ورغم أن أرسطو لم يكن أثينيا بالمولد الا انه عاش هناك فترات هامة من حياته خاصة فترة تتلمذه على أفلاطون من عام ٣٦٨ الى موت أستاذه عام ٣٤٨ ، كما عاد للحياة فى أثينا فى عام ٣٣٥ ق.م حيث بقى يعلم فيها الى وفاة تلميذه الاسكندر الأكبر . عند ذلك رأى أعداء الاسكندر الأكبر فى أثينا الفرصة سانحة للانتقام من أستاذه فحرضوا عليه كبير كهنة ديميتر لكى يرفع ضده الدعوى أمام القضاء متهما أياه بالزندقة فاضطر لمغادرة أثينا فى عام ٣٢٢ دون أمل فى العودة اليها ثانية .

وقد أنشأ أرسطو مدرسته الفلسفية الشهيرة أثناء اقامته فى أثينا فى منطقة كانت تعرف باسم لكين . وقد اشتهرت مدرسة أرسطو بهذا الاسم نسبة الى المكان الذى قامت فيه كما عرفت باسم المشائيينللسبب الذى ذكره ابن خلدون . واهم مؤلفات أرسطو التى وصلت الينا هى

كتب ماوراء الطبيعة والاخلاقيات والسياسة ودستور أثينا من بين تصنيف كتاب الدساتير ، أما مالم يصل الينا فهو كثير (راجع الحاشية رقم ٤٢) وأيضا أوغسطينس برباره البوليسي ، السياسيات ، لأرسطو ، مقدمة المترجم بيروت ، ١٩٥٧ . صص ١ـ٥٠ .

(٦٣) ولد أفلاطون فى أثينا عام ٤٢٧ ق.م وتتلمذ على سقراط حتى وفاة الأخير فى عام ٣٩٩ ق.م ، ثم سافر فى رحلات مختلفة الى خارج بلده فزار قورينة Cyrène ومصر ومناطق الاستيطان الاغريقى فى غرب البحر المتوسط . وقد زار سيراكوز ولكن آراؤه أغضبت ديونيسيوس طاغية المدينة ومن ثم القى القبض عليه وعرضه للبيع فى سوق الرقيق حتى افتداه أحد أصدقائه وعاد به الى أثينا حوالى عام ٣٨٧ ق.م وفى أثينا افتتح الفيلسوف مدرسة على صخرة مقدسة تعرف باسم بطل يدعى أكاديموس ومن هنا عرفت بالأكاديميا .

وعاد أفلاطون لزيارة صقلية مرتين فى عام ٣٦٧ و٣٦١ ق.م وقد استطاع أن ينال ثقة ديونيسيوس الأصغر الذى سمح له بأن يحاول تطبيق نظريته عن المدينة الفاضلة هناك ، ولكن فشل أفلاطون فاضطر لمغادرة سيراكوز عائدا الى أثينا التى أقام بها حتى مات فى عام ٣٤٧ق.م واشتهر آثار أفلاطون العلمية هى المحاورات التى عرضت آراء سقراط وآراءه شخصيا فى الميتافيزيقا . هذا فضلا عن كتاب الجمهورية التى كان يرى أن بتحقيقها يتحقق الخير الأسمى للبشر . والف أيضا كتاب القوانين لكى يتلافى مثالب فشل تطبيق نظريته عن المدينة الفاضلة فى سيراكوز .

(٦٤) ولد سقراط فى أثينا فى عام ٤٦٩ ق.م ، وقد عاش فقيرا وضبط نفسه أمام اغراء الماديات . اشترك فى حروب البيلوبونيز وقد اشتغل بقطع الأحجار ونحت التماثيل تزوج اثنتين فى حياته وهو يعتبر نقطة تحول فى الفكر اليونانى الذى اهتم فيما سبق بالبحث العلمى فقط لأنه بنى أبحاثه على أساس التأمل الواقعى الأخلاقى للناس . لم يترك سقراط وراءه مؤلفات تشرح فلسفته ولكن تلاميذه ـ خاصة أفلاطون ـ سجلوا هذه الأفكار وقد وجه الاثينيون الاتهام لسقراط ـ لأنه لايؤمن بالدين وأنه يساعد على افساد الشباب . وجاء فى نص الاتهام « أن سقراط مذنب عام لأنه لايعترف بالآلهة التى تعترف بها الدولة ، بل يدخل فيها كائنات شيطانية وأنه مذنب كذلك لأنه أفسد الشباب » وجرت المحاكمة أمام مجلس الخمسمائة ورغم دفاع سقراط عن نفسه فقد صدر الحكم بقتله . وقيل أن سقراط كان فى وسعه أن يهرب من السجن بعد رشوة أصدقائه للحراس ولكنه رفض وأخيرا شرب السم ومات فى عام ٣٩٩ ق.م.

واشارة ابن خلدون على لسان مصدره ـ بادانة سقراط بسبب دعوته لعدم عبادة الأوثان ـ تتفق مع ماجاء فى مسرحية السحب لأرسطوفان والتى اتهم فيها سقراط بعدم الاعتراف بآلهة الاغريق كما تتفق مع

ماجاء فى قرار الاتهام الصادر فى حق سقراط من أنه لايعترف بالهة بلاد الاغريق ولكن الاشارة فى المتن تدفع على الظن بأنه دعى الى دين سماوى ولكن المؤكد أنه مارس الطقوس الدينية الاغريقية ولم تكن له أية صلة بأى دين سماوى فهو لم يعتنق اليهودية كما أنه كان سابقا على المسيحية بأربعة قرون ويؤكد ذلك ماذكره أفلاطون على لسانه من أنه قال « ... تقولون أولا أنى لا أومن بالالهة ثم تقولون بعدئذ انى أومن بأنصاف الالهة ـ أن مثلكم فى هذا كمثل من يؤكد وجود البغال ثم ينكر وجود الخيل والحمير » .

ولعل ابن خلدون خلط بين خبر سقراط وما عرف تاريخيا عن ديوجين الكلبى من سكنه فى دن (قدر) فى ساحة معبد سيبيل بأثينا ، خاصة وأن أفلاطون قد أطلق عليه لقب (سقراط الهائم) .

راجع : بنيامين جوبت ، محاورات أفلاطون ، ترجمة زكى نجيب محمود ، القاهرة ١٩٦٦ ص ١٦ وما بعدها . وأيضا

Larouse Xxeme Siecle.

(٦٥) فيثاغورس ، بن منيسارخوس ولد فى ساموس حوالى عام ٥٦٦ ق.م واشتهر أمره خلال حكم بوليكراتييس بها (مات عام ٥٢٢ ق.م) رحل عن ساموس مثل الكثيرين من سكان المنطقة تحت ضغط الفرس لغرب آسيا الصغرى وزار خلال السنوات التالية مليتوس Miletus حيث تعرف بتاليس وربما تتلمذ عليه ، ثم زار فينيقيا وعاش فى مصر مدة طويلة تعلم خلالها من علم المصريين وخبرتهم ، ترك مصر الى بابل حوالى عام ٥٢٥ ق.م حيث درس الحساب والموسيقى . عاد الى ساموس وهو فى الخامسة والستين من عمره ، ولكنه لم يلبث أن رحل الى ديلوس وكريت وبلاد الاغريق نفسها وأخيرا استقر فى كرتون Corotone فى ايطاليا حيث أسس مدرسة هناك وبقى هناك حتى أضطر الى الرحيل الى بونتيوم القريبة من كروتون وبقى فيها السنوات الأخيرة من حياته الى موته عام ٤٩٧ ق.م .

نجح فيثاغورس فى اكتشاف عدة نظريات هندسية هامة ونادى بكروية الأرض واعتقد بخلود الروح واختلاف أقدار الأرواح حسب سلوك صاحبها فى الحياة وأن أرواح الأشرار تحل فى أجساد الحيوانات وقد أدى به ذلك الاعتقاد الى تحريمه أكل اللحم على تلاميذه كما كان منهج الدراسة فى مدرسته يضم دراسات فى الموسيقى .

واشارة النص عند ابن خلدون الى تتلمذ سقراط عليه أمر صعب التصديق الا اذا كان المقصود قراءة سقراط لأعماله دون التتلمذ عليه شخصيا فقد مات فيثاغورس فى عام ٤٩٧ ق.م بينما لم يولد سقراط الا فى عام ٤٦٩ ق.م ، على أن الأقرب الى الصواب أن يكون هنا تحريف فى الاسم الذى ذكره ابن خلدون ولعله قصد بروتاغوراس وليس فيثاغورس والأول هو اشهر الفلاسفة السفسطائيين وكان معاصرا لعصر سقراط ،

كما أن سقراطنفسه كان معجبا فى شبابه بالسوفسطائيين ، فضلاً عن أن أفلاطون كتب محاورة دارت بين سقراط وبروتاغوراس .

أحمد أمين وزكى نجيب محمود ، قصة الفلسفة اليونانية ، ط٦ ، القاهرة ١٩٦٦ ص ص ١٩–٢٥ .

(٦٦) تاليس ، ولد حوالى عام ٦٢٤ ق.م قيل أنه كان من أصل فينيقى ومات حوالى عام ٥٤٥ ق.م. درس الفلك والرياضيات فى مصر التى كانت ماتزال مخزنا للثقافة القديمة . وكان أحد أشهر سبع حكماء يمثلون الحكمة القديمة ونسب اليه أنه صاحب القول المأثور (اعرف نفسك) .

ترجع شهرة تاليس الى تنبوءه بحدوث كسوف للشمس يوم ٢٨مايو سنة ٥٨٥ ق.م وقت المعركة بين الليديين والفرس ويقال أنه أدخل العلوم الرياضية والفلكية الى بلاد الاغريق . وقد أشار هيردوت الى صلة تاليس وكرويسوس (قارون) ملك ليديا .

والنص الذى ذكره ابن خلدون دقيق فقد ذكر أن تاليس كان من حكماء ملطية وهو لقب يتفق تماما مع حقيقته فقد كان من ملطية Miletus ولقبه مواطنوه بالحكيم Sophos

سارتون ، جورج ، نفس المرجع ص ص ٣٥٩ — ٣٦٦ .

(٦٧) عرفت أنساب الخليقة عددا من الرجال كان اسم كل منهم لقمان . وأشهرهم لقمان الحكيم الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم (سورة لقمان) ويقول بن جوزى الكلبى فى كتاب التسهيل لعلوم التنزيل القاهرة ١٣٥٥ هـ ، جـ٣ ص ١٢٦ .

« ... ان لقمان رجل ينطق بالحكمة واختلف هل هو نبى أم لا وفى الحديث لم يكن لقمان نبيا ولكن كان عبدا حسن اليقين أحب الله فأحبه فمن عليه بالحكمة ، روى أنه كان ابن أخت أيوب أو ابن خالته .. » .

والفقرة السابقة تشير الى ارتباط لقمان بأيوب الذى عاش بعد ابراهيم وقبل موسى عليهما السلام ، وهذا التحديد الزمنى يبعده تماما عن أن يكون أستاذا لتاليس الذى عاش فى القرن السابع ق.م.

ومن ثم نعيد البحث فيمن يكون لقمان الذى تتلمذ عليه تاليس حكيم ملطية ونصادف اثنين من الاغريق صلتهما بتاليس ليست بأقرب من صلة لقمان الحكيم به . الأول هو الكمان Alcmanos وكان شاعرا من ليديا ولد فى سارديس فى القرن السابع وسكن أسبرطه قبل تحولها الى قوة عسكرية فتغنى بها وبجمال بناتها وتوفى هناك . وهو الوحيد الذى يذكر من أهل الأدب بتلك المدينة التى اعترفت بفضله فدفنته مع أبطالها المجددين .

وهذا الرجل رغم تعاصره مع تاليس الا أن اختلاف اهتماماتهما تجعل من المستبعد الربط بينهما علميا . وأما الثانى فهو الكيمايون .Alcmean وكان طبيبا وفيلسوفا أغريقيا تتلمذ فى مدرسة فيثاغورس ولد فى القرن السادس ق.م فى مدينة كروتونا فى ايطاليا ، ولكننا لا نملك الا أن نستبعد احتمال أخذ تاليس عنه لأنه كان تاليا لتاليس فى الزمن . وليس لدينا تفسير الا أن يكون قد حدث خلط فأخذ التلميذ فى نص ابن خلدون مكان الأستاذ والعكس بالعكس .

(٦٨) دمقراطيس ، ولد فى أقليم تراقيا بشمالى بلاد الاغريق ، كان مادى التفكير وقال بأن المادة تتكون من ذرات صغيرة لا ترى وهى دائمة الدوران حول نفسها ، ودعا الناس الى نبذ الأساطير الدينية القديمة ، مات فى عام ٣٨٠ ق.م تقريبا .

(٦٩) أناكسا جوراس Anaxagoras عاش بين سنتى ٥٠٠ ق.م و٤٢٨ ق.م ، قدم الى أثينا فى الخامسة والعشرين من عمره ، وكان من تلاميذه بركليس أبو الديموقراطية الأثينية . توصل الى أن المادة تتكون من ذرات صغيرة من صنع العقل الأكبر .

ذكر اناكساجوراس أن الشمس جرم سماوى كبير من المعادن الملتهبة وأنها مصدر الطاقة والقوة . نفى فى عام ٤٥٠ ق.م بسبب آرائه وصداقته لبركليس .

احمد أمين ، زكى نجيب محمود ، قصة الفلسفة اليونانية صص ٥٤ — ٦١ . أما شهرته فى الطب فهى غير معروفة ولعل ابن خلدون (أو مصدره) خلط بين أناكسا جوراس وهيبوقراطيس Hippocrates أشهر أطباء عصره والذى عرف بالعربية باسم ابقراط فهو الذى كان أردشير ملك الفرس وبرديكاس ملك مقدونيا من مرضاه ، كما كان جالينوس أشهر أطباء عصر الرومان من تلاميذه .

(٧٠) كان جالينوس من برجاموم اهتم أول الأمر بدراسة الفلسفة ثم اتجه بعد ذلك الى الطب . تعلم فى قليقية وفينيقيا وفلسطين وقبرص وكريت وبلاد اليونان والاسكندرية . عمل طبيبا فى مدرسة المجالدين فى روما ١٦٨ — ١٦٤ ق.م حتى تركها هاربا تحت ضغط أعدائه ولكنه عاد بعد قليل للعناية بكمودوس بن ماركوس أوريليوس .

وقد حاول أوريليوس أن يصحبه فى احدى حملاته لكنه استطاع أن يعود مسرعا الى روما ، ومن ذلك الوقت لانعرف عنه غير مؤلفاته ولذلك فما ذكر فى النص عن دفنه بصقلية يعتبر معلومة جديدة عنه ان صحت .

الف حوالى ٥٠٠ عملا بقى منها ١١٨ تضم نحو عشرين الف صفحة. آمن بما قال ابقراط عن الاخلاط الأربعة التى تحكم الجسم (الدم والبلغم

والسائل الصفراوى الأسود والأصفر) ، وظلت أفكاره سائدة بين أطباء العصور التالية وتمتع بتقدير المسيحيين والمسلمين لايمـــانه بالوحدانيـــة فى الدين .

(٧٢) اتجه الاسكندر الى أراضى شبه القارة الهنـــدية بعـــد أن نجح فى السيطرة على الامبراطورية الفارسية وبعد أن أمن ظهر قواته بانشاء العديد من المدن فى المناطق الاستراتيجية وضمان ولاء كثير من أمراء الفرس، وبعد أن تخلص أيضا من القادة المعارضين لسياسته .

بدأ الاسكندر زحفه على حوض نهر السند بعد أن قسم جيشه الى ثلاث وحدات الأولى قادها بنفسه وقاد الثانية هيفيستون Hepheston وكانت الثالثة تحت قيادة برديكاس Perdicas كانت مهمة كل وحـــدة هى احتلال جزء من أجزاء وادى نهر كوفن Cophen أحد روافد الأندوس .

حققت قواته المنـــاط بها بعد الكثير من الصعوبات والمتاعب .واخيرا تجمعت قوات جيش الاسكندر من جديد فى شمال غرب الهنـــد فى ربيع ٣٢٥ ق.م.

وهنـــاك قرب نهر الهيداسب Hydaspe تقابل فى يوليو سنة ٣٢٥ ق.م مع الملك بورس Porus ملك البنجاب وهو الذى يشـــير اليه ابن خلدون باسم فور. وصحيح أن الاسكندر هزم ذلك الملك كما جاء فى النص. ولـــكن الصحيح أيضا أن هذا لم يتم الا بعـــد أن تكبد الجنود المقدونيون الـــكثير من الخسائر خصوصا وهم يقابلون فيل القتال لأول مرة فى جيش بورس . والمعروف تاريخيا أن بورس عقد صلحا مع الاسكندر وصار حليفا له بعد ذلك .

Henri Van Effenterre, op. cit., PP. 357.

ولمزيد من المعلومات عن فيل القتال واثر هذه المعركة فى ادخال فيل القتال فى جيوش العالم القديم اقرأ :

فوزى مكاوى ، الفيل الأفريقى ودوره فى الحروب القديمة ، مجلة الدراسات الأفريقية ، ١٩٧٧ .

(٧٣) المعروف أن الاسكندر غلب على أغلب العالم القديم وأنه كان يرغب فى الزحف شرق نهر Hyphasus أحد روافد نهر الهندوس ولكنه صادف تمردا من جنوده أدى به الى طرح هذه الفكرة نهائيا وبدأ التفكير والاعـــداد للعـــودة الى بابل ومن ثم فان حـــديث ابن خلدون عن فتحـــه للصـــين غير دقيق .

(٧٤) بناء الاسكندر للاسكندرية على مصب أحد الروافد الغربيـــة للنيل على البحر الرومى (البحر المتوسط) حقيقة تاريخية سبق أن أشرت

اليها (راجع الحاشية رقم ١٥) ولكن ذكرها فى هذا المكان من النص ليس صحيحا فقد سبق بناؤها الحملة على بلاد الفرس والهند .

(٧٥) تحديد عدد الملوك الذين خضعوا للاسكندر بخمسة وثلاثين ملكا أمر غير ثابت تاريخيا ولكنه غير مستبعد فقد سيطر الاسكندر على الامبراطورية الفارسية التى كانت تضم ٢١ اقليما (مرزبية) بالاضافة الى المناطق الشرقية التى كانت خارجة عن نطاق تلك الامبراطورية . وحديث ابن خلدون عن تهافت ملوك العالم على استرضاء الاسكندر والكتابة اليه من أفريقيا والمغرب والفرنجة والصقالية والسودان أمر غير مستبعد تاريخيا ، فقد أرسل الاسكندر وكليستنيس حفيد أرسطو الى النيل الأعلى فى سنة ٣٣١ ق.م كما أرسل نيارخ وأرشياس واندروستنيس وهيرون الى سواحل الخليج الفارسى ٣٢٣ ق.م وارسل جورجوس للتعرف على الموارد المعدنية لملكة سوبيتيس بالهند . ولذلك بقى الاسكندر علامة هامة فى تراث كثير من الشعوب التى لم تطئها قدميه مثل بلاد العرب الجنوبية وأثيوبيا وغيرهما .

(٧٦) مات الاسكندر الأكبر فى بابل يوم ١٣ يونيو سنة ٣٢٣ ق.م بسبب اصابته بحمى المستنقعات ، وليست هناك أدلة قوية على موته مسموما ولكن اشارة ابن خلدون تعتمد على ماأثير عن ذلك عند بعض المؤرخين . كان عمر الاسكندر الأكبر يوم وفاته اثنتين وثلاثين سنة تولى الحكم منها ثلاثة عشر عاما قضى منها احدى عشرة سنة خارج بلاده . وقد قتل دارا فى عام ٣٣٠ ق.م بعد أربع سنوات من بداية حملة الاسكندر على الشرق . قارن معلومات ابن خلدون وهى قريبة للمعروف تاريخيا .

٣

العلاقة بين دولة الصليحيين والخلافة الفاطمية

الدكتور محمد أمين صـالح
استاذ التاريخ الاسلامى المساعد
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

اذا كان عهد المستنصر بالله الفاطمى ٤٢٧ـ٤٨٧ / ١٠٣٦ـ١٠٩٤ قد شهد ضياع بعض أملاك الفاطميين بالشام ، بجانب ضـعف سلطان الخليفة ذاته بالقاهرة وبدء عهد الوزراء العظام ، فانه قد شهد اكتساب ارض جديدة للنفوذ الفاطمى واعنى بها اليمن .

ولم تأت تبعية اليمن للخلافة الفاطمية عن طريق الغزو العسكرى وفرض السيادة كما حدث فى الشام ، بل جاءت بجهود الدعاة الذين ظلوا يتولون واحدا بعد الآخر أمر الدعوة الاسماعيلية باليمن وبطريقة سرية بعد تدهورها الشنيع منذ أوائل القرن الرابع الهجرى سـواء بانشقاق على ابن الفضل احد دعاتها ، أو بضعف أهل مسور بعد وفاة ابن جوشب كما عرضنا فى بحث سابق (١). فاستمر الدعاة على اتصال بالخلفاء الفاطميين بالمغرب ثم بمصر يرسلون اليهم هـدايا وأموال اتباعهم ، ويطبقون مبادىء الدعوة فيما بينهم الى أن تولاها على بن محمد الصليحى فنهضت على يديه من جديد .

ولسنا بسبيل دراسة تاريخ الدولة الصليحية ذاتها قدر التركيز على العلاقات بين هذه الدولة الناشئة والخلافة الفاطمية . ولدينا وثائق معاصرة هى رسائل الخلفـاء الفاطميين الى الحكام الصليحيين . تعرف باسـم السجلات المستنصرية ، عبارة عن ٦٦ سـجلا منقولة عن الأصل الذى ارسل من ديوان الانشاء بالقاهرة الى حكام اليمن . نشرها وعلق عليهـا الاستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد بعنوان « سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا

الامام المستنصر بالله امير المؤمنين صلوات الله عليه ، الى دعاة اليمن وغيرهم . قدس الله أرواح جميع المؤمنين » . وتتضمن هذه السجلات سياسة الفاطميين باليمن وانحاء الجزيرة العربية ، فضلا عن تناولها الأحداث السياسية فى كل من مصر واليمن . ونستطيع على هديها بجانب غيرها من المصادر تتبع العلاقات بين مصر واليمن في هذه الفترة الهامة من تاريخ البلدين .

فقد بدأ على بن محمد الصليحى الدور العملى للدعوة منذ أن احتل مع جماعة من اتباعه حالفوه على الموت جبل مسار اعلى ذروة فى جبال حراز عام ٤٣٩/١٠٤٧ . ولم يلبث أن جاءه مجيبو الدعوة من مختلف أنحاء اليمن خاض بهم معارك ظافرة الى أن سيطر على جميع اليمن سهله وجبله من مكة الى حضرموت جنوبا آخر عام ٤٥٥/١٠٦٤ (٢) .

وداب على بن محمد الصليحي على الكتابة بأخباره أولا بأول الى الخليفة المستنصر بالله الفاطمى بمصر ، فيأذن له بالجهر بالدعوة أو غزو تهامة ، ويبعث له الرايات والألوية . كما كان الصليحى يرسل الهدايا الى دار الخلافة . ففى عام ٤٣٩/١٠٤٧ أرسل الصليحى هدية تشمل سبعين سيفا ذات مقابض من عقيق (٣) . وهدية أخرى عظيمة القدر عام ٤٥٤/١٠٦٢ لم يسمع بمثلها وفيها فنون كثيرة من الذهب والفضة والسلاح والوشى والمسك والعنبر والكافور والعود الهندى الرطب ، والأستاذين والجوارى ، وكثير من الأمتعة يبعد حصرها ويعظم أمرها (٤) . كذلك كان الخليفة المستنصر يكتب بأخبار دولته الى الصليحى أمير اليمن . ففى صفر ٤٥٢/ مارس ١٠٦٠ أخبره بولادة أبنه ابى القاسم أحمد كى يذيع هذا النبأ فى انحاء اليمن (٥) . كما أخبره فى رمضان ٤٥٤/١٠٦٢ بأحداث انقلاب المعز ابن باديس الصنهاجى بأفريقية على الخلافة وكيفية التغلب عليه (٦) . كذلك كان المستنصر الفاطمى يرسل اليه رايات الخلافة والويتها وملابسه الخاصة كبركة له ولأولاده ، ويكتب لهم تعويذات ويدعو لهم (٧) . ويرسل ايضا اللحوم مقددة فتفرق من وزن نصف درهم الى ربع درهم على سبيل البركة (٨) .

وكان على بن محمد الصليحى المساعد الأيمن للخلافة الفاطمية للاحتفاظ بنفوذها فى منطقة الحجاز . صحيح أنه دعى للخليفة المعز لدين الله الفاطمى على منابر الحرمين منذ عام ٩٦٨/٣٥٨ (٩) ، الا أن الأشراف الحكام المحليين بمكة المكرمة والمدينة المنورة كانوا أحيانا يقطعون الخطبة للفاطميين ويدعون للعباسيين . ففى عام ٤٥٤ / ١٠٦٢ مثلا انتزع الشريف محمد بن جعفر من الهواشم حكم مكة من يدى بنى سليمان ودعا للخليفة القائم العباسى (١٠) ولجأ بنو سليمان الى اليمن ومعهم أمتعة الكعبة من قناديل وستور وصفائح الذهب من الباب والميذاب (١١) . فكان أن عهد الخليفة المستنصر الفاطمى الى الصليحى داعيته والحاكم فى اليمن بمهمة اعادة النفوذ الفاطمى الى الحجاز . ويشيد المؤرخون (١٢) بما قام به الصليحى من أعمال طيبة فى مكة عام ٤٥٥ هـ . بدأ بكسوة الكعبة بثياب بيض ، ورد أمتعة الكعبة بعد أن اشتراها من بنى سليمان . وفضلا عن نجاحه فى اعادة النفوذ الفاطمى بالحجاز ، فانه اظهر العدل فى الأهالى برفع ظلم من تقدم من الأشراف الحكام ، والاحسان بما وزعه عليهم من الأموال وفرقه من الأقوات ، كما ادب القبائل التى كانت تعتدى على الحجاج . وهكذا استمال الصليحى أهل الحجاز وطابت قلوبهم له كما رخصت الأسعار وساد الأمن والطمأنينة .

وعاد الصليحى الى اليمن فى ربيع الآخر ١٠٦٣/٤٥٥ مواصلا مراسلة الخليفة الفاطمى الذى ارسل يشكره على افعاله الحميدة ويبدى ارتياحه للخدمات الجليلة التى قام بها فى سبيل اقامة الدعوة له وتوطيد نفوذه فى بلاد اليمن والحجاز ، وانعم عليه بلقب « عمدة الخلافة » علاوة على القابه الأخرى (١٣) .

هذا وقد رغب الصليحى وقد صار له هذا الملك الكبير من مكة الى حضرموت ، أن يجعل الحكم وراثيا فى أسرته وكان له من الأولاد ثلاثة، واثقا من رضاء الخلافة الفاطمية عليه . فطلب عام ٤٥٦ / ١٠٦٤ عقد ولاية العهد لابنه الأكبر محمد فوافق الخليفة ولقبه بالأمير الأغر يدعى له به على المنابر بعد والده وارسل سجلا بهذه التولية (١٤) . لكن محمدا توفي بالحمي فى حياة أبيه ، فكتب الخليفة رسالتين فى ربيع الأول

٤٥٨ / فبراير ١٠٦٥ الأولى الى الصليحي يعزيه في وفاة ولده ، ويجعل ولاية عهده لابنه الأوسط « وهو اليوم الأكبر » . والثانية الى الأمير المكرم احمد بتقليده ولاية العهد (١٥) .

كذلك أراد الصليحى الذهاب الى القاهرة والحظوة بلقاء الخليفة المستنصر بالله الفاطمى . فأرسل وفدا برئاسة القاضى عمران بن الفضل برسالة يستأذن فيها بالقدوم . فعاد الجواب فى ربيع الأول ٤٥٩هـ بأن أمير المؤمنين يود ذلك ويهواه الا انه يرجح مقامه خشية الكدح والتعب ، وخوفا من اضطراب الأحوال فى دولته وقت غيابه ويقول « والذى تأمل بلوغه برأى العين ، فانك بالغه والحمد لله برؤية القلب ، ونائله من امام زمانك على ظهر الغيب » (١٦) .

وكان الصليحى قد ذكر فى رسالته السابقة شيئا عن سوء الأحوال فى مكة ، ويطلب الاذن لاصلاح الفساد فى البلد الأمين . ولم يعترض الخليفة على هذا الطلب وان أوصاه « بتأليف القلوب وتجنب سورة الحروب » (١٧) .

خرج الصليحى من صنعاء فى الموسم ومعه أخوه عبد الله وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب ، مستخلفا ابنه المكرم أحمد فى الحكم ، ومستصحبا معه أمراء اليمن خوفا من تآمرهم اثناء غيبته ، غير ان الصليحى لم يكمل طريقه الى مكة اذ قتل هو واخوه واهله ، واسرت زوجته ، فى كمين أعد له فى الطريق عند مدينة الكدراء بتهامة فى ذى القعدة ٤٥٩ / أكتوبر ١٠٦٧ (١٨) .

وكانت وفاة الصليحى خسارة كبيرة للفاطميين ، وتقديرا لخدماته واقرارا بوجود ولى عهده المكرم احمد فى حكم اليمن ، بعث المستنصر الفاطمى اليه برسالة عبر فيها عن اسفه لوفاة والده ، ويجمع اليه أمر الدعوة أيضا بعده (١٩) .

نخلص مما تقدم الى ماكانت عليه العلاقات من مودة وتعاون بين مصر واليمن على عهد على بن محمد الصليحى الداعى الفاطمى وأمير اليمن . والنتيجة ان الخلافة الفاطمية فى هذه المرة الثانية التي عاد فيها

اليمن الى نفوذها تلافت خطأها السابق بفصل أمر الدولة عن الدعوة كما حدث من قبل بعد وفاة ابن حوشب ، انما جمعت بينهما وجعلتهما بالوراثة فى بيت على بن محمد الصليحى . فاستقرت تبعية اليمن للخلافة الفاطمية نحو قرن من الزمان . فهى تبعية روحية سياسية تتمثل فى الدعاء باسم الخليفة الفاطمى فى خطبة الجمعة ، واقامة شعائر الشيعة الاسماعيلية، ثم ارسال الأموال والهدايا السنوية دون تدخل مباشر من جانب الفاطميين فى حكم اليمن. ولعل هذا يعطى نموذجا طيبا للعلاقة بين السلطة المركزية والسلطات المحليـــة فى الأقاليم التابعة لها ، دون محاولة فرض السيادة اى الحكم المباشر أو التدخل فى الشئون الداخلية فى وقت نضجت فيــه الروح الاقليمية فىسائر جهات العالم الاسلامى. فتجنبت الخلافة الفاطمية مشاكل الحركات الانفصـــالية أو الثورات من جانب القوى المحليـــة كما نراها فى الشــــام . وانما توثقت العـــلاقات بين مصر واليمن على عهود المـــكرم احمد بن على الصليحى وزوجته ســيدة بنت احمد ، والخلفـــاء الفاطميين بمصر : المستنصر فالمستعلى ثم الآمر . وسارت على منوالها السابق ونراها فى وجوه عدة .

فقد واجه المـــكرم أحمد بعد مقتل أبيه انقـــلابات خطيرة من جانب رجالات اليمن ، علاوة على وجود أمه السيدة اسماء بنت شهاب فى أسر بنى نجاح فى زبيد . وأبدى المـــكرم فى بداية أمره شجاعة فائقة سواء فى انقاذ أمه من الأسر ، أو فى استعادة ملك أبيــه الســـابق فى أنحاء اليمن . ثم رأى الاعتكاف . فكان أن فوض أمور الدولة الى زوجته سيدة بنت أحمد التى طلبت بدورها أن تسعفه من نفسها بقولها : « ان امرأة تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر . فدعنى وما أنا بصدده » . كما نقلت عاصمة الدولة الصليحية من صنعاء الى ذى جبلة (٢٠) .

ولم تتدخل الخلافة الفاطمية فى هذه الشئون الداخلية انما نجـــد الخليفة المستنصر بالله يستمر فى تشجيع المـــكرم أحمد لمواجهة مشاكله، ويرسل اليه الشعارات والتشاريف ، وملابسه الخاصة على سبيل البركة كما فعل مع أبيه من قبل ، ويمنحه الألقاب التى فاقت القاب أبيه (٢١). كما يمنح زوجته سيدة بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحى الألقـــاب منها : السيدة ، الحرة ، السديدة ، المـــكينة ، ذخيرة الدين ، عمـــدة

المؤمنين ، كهف المستجيبين ، صنيعة أمير المؤمنين (٢٢) . ثم يخاطب السيدة الحرة رأسا بعد تفويضها بالحكم ويبين لها وسائل الحكم المثالية(٢٣) ويعتبرها مثالا أعلا للمرأة لتقلدها قلائد التقوى ولكفاءتها فى ادارة شئون البلاد ويقظتها فى امور الدعوة . كما كان يرسل اليها برأيه فى الأمور ويطالبها بأن تسلك مسلك والدة المكرم السيدة أسماء بنت شهاب (٢٤) . كذلك كانت أم الخليفة المستنصر تراسل السيدة الحرة وتخاطبها بقولها : « فاقمت للسياسة عمادها ، وسلمت اليك الكافة قيادها » (٢٥) .

واستمرت الخلافة الفاطمية فى مراسلة المكرم أحمد وزوجته السيدة الحرة بالأحداث الجارية بمصر فقد أحيط المكرم علما بتقليد بدر الدين الجمالى منصب وزارة التفويض بالقاهرة . وأشار المستنصر بالله فى خطابه المؤرخ فى ذى القعدة ٤٧٠ / يونية ١٠٧٨ الى الخدمات العظيمة التى بذلها بدر الجمالى لتوطيد نفوذ الخلافة . كما طلب المستنصر بالله من المكرم الرجوع الى بدر الجمالى فى كل مايخص أمور الدعوة(٢٦) وخطاب آخر الى السيدة الحرة يشيد بذكر هذا الوزير وتقلده زمام الدعوة (٢٧) والواقع أن بدر الجمالى أنقذ دولة المستنصر من الأخطار الداخلية بمصر ، وأعاد لها بعض سيادتها فى الشام . ونجد السجلات تؤيد بدرا حين يأمر المستنصر ملكة اليمن بقطع رؤوس أعداء بدر الذين هربوا من مصر الى اليمن (٢٨) .

كذلك عهدت الخلافة الفاطمية الى المكرم احمد ثم الى زوجته السيدة الحرة أمور الدعوة الفاطمية ليس فقط فى الحجاز واليمن بل فى عمان والهند أيضا . فهناك سجل صادر فى ربيع الثانى ٤٦٩ / ١٠٧٦ بتقليد المكرم أمر الدعوة فى عمان مطلقا يده للتصرف فى أمر الدعوة هناك (٢٩) . كما كان اليمن الصلة بين الدعاة وأتباع الدعوة بالهند وبين الخلافة الفاطمية بمصر . فكان بيد المكرم ثم زوجته السيدة الحرة رئاسة الدعوة هناك . ويصدر مرسوم الخليفة بالموافقة على من يرشحه كلاهما لتولى الدعوة هناك (٣٠) . وتنوه الخلافة بالثقة فى المجهودات التى تقوم بها السيدة الحرة فى سبيل نشر الدعوة فى كل من اليمن وعمان والهند (٣١) . وبذلك ارتفع شأن الدعوة الفاطمية فى بعض جهات الجزيرة

العربيــة والهنــد على يد الصليحيين الذين ارتفع نفوذهم الروحي فى تلك المنــاطق .

ثم توفى المــكرم احمد عام ٤٨٠ / ١٠٨٧ (٣٢) كى تثور المشاكل أمام السيدة الحرة فتلقي التأييد التــام من جانب الخلافة الفاطمية . وماحدث أن المــكرم أحمد قبيل وفاته أوصي بالحكم الى زوجته (٣٣) وبأمور الدعوة الى ابن عمه سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحى (٣٤) . نجــد أن السيدة الحرة الملكة أرادت أن تجعل أمر الدعوة الى ولدها عبــد المستنصر حتى تظل هى المسيطرة على شئون اليمن جميعا كما كان على عهد زوجها . لذلك أرسلت الى الخليفة المستنصر الفاطمى تخبره بوفاة زوجهــا المكرم، وتلتمس الموافقة على تعيين ابنها عبد المستنصر مكانه ، ورأى الخليفة بدوره أن تستمر الدعوة فى بيت على بن محمــد الصليحى ، علاوة على مارآه فى السيدة الحرة من القوة والكفاية . فبعث الخليفة الى الســيدة الحرة يعزيها فى وفاة زوجها ويثنى على وفائها للدعوة (٣٥) . كما أصدر مرسوما بتعيين ابنها عبد المستنصر أمر الدعوة باليمن خلفا لأبيه .وأرسل اليه كالعادة الألوية والملابس الخاصة (٣٦) .

غير أن هذه التولية لقيت المعارضة من بعض رجال اليمن وخاصة سبأ بن احمد بن المظفر الصليحى بدعوى صغر سن عبد المستنصر .. وتمسكت الحرة الملكة بسلطانها وأيدها الزواحيون وعلى رأسهم سليمان ابن عامر بن عبد الله الزواحى .. وهو اخوها لأمها (٣٧) . وقلقت الخلافة الفاطميــة على نفوذهــا فى اليمن من جراء هذا النزاع بين الصليحيين والزواحيين . فأرسل اليهم يطلب انهاء هذا الخلاف واطاعة السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر ، كما ناشدهم الاتحاد مقدرا الخدمات التى قام بها كل من الصليحى والمــكرم والسيدة الحرة (٣٨) كما بعث الى السيدة الحرة يقول انه ينظر الى هذا النزاع بشىء من القلق ويطلب اليها السعى فى الصلح بين الفريقين (٣٩) . وهو فى نفس الوقت يؤيد عبــد المستنصر باعتباره « سليل الدعوة ونجلها » ويرد على الاعتراض على تقليده لصغر سنه بالقول : « لأن الله تعالى فوض لأمير المؤمنين الخلافة وسنه دون الثمان سنين ، وقد أجاز هذا فى الامامة وهى الدرجة التى تلى النبوة ،

فكيف الدعوة التى لأمير المؤمنين أن يتصرف فيها على اختياره ويفوضها الى من يرتضيه ويختاره » (٤٠) .

ونجح هذا الدعم الفاطمى فى ابقـاء أمر الدعوة والدولة فى بيت على بن محمد الصليحى باستجابة المعترضين . واعلن الخليفـة سروره لزوال هذا الخلاف والصلح بين سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحى وسليمان ابن عامر الزواحى (٤١) . ومع كل فلم يعمر عبد المستنصر طويلا اذ توفى بعد قليل ليتجدد النزاع ثانية .

فقد تطلع سبأ بن احمد هـذه المرة الى الزواج من السيدة الحرة الملـكة فيكون له أمر الدولة والدعوة باليمن . وقدم سبأ بن احمد من حصن أشيح مقره الى ذى جبله . غير أن الملـكة رفضت عرض الزواج وساندها أخوها سليمان بن عامر الزواحى هذه المرة ايضا وحشـد آل الزواحى . وهكذا وقف الصليحيون والزواحيون للقتال ثانية الى أن وافق سبأ بن احمد على اقتراح غريمه سليمان بن عامر باسـتئذان الخليفـة الفاطمى فى أمر هذا الزواج بقوله : « والله لا اجبتك الي ماتريد الا بأمر المستنصر بالله » (٤٢) .

وهكذا عاد سـبأ بن أحمد الى حصنه أشيح كى يبعث رجلين الى القاهرة هما : القاضى حسين بن اسماعيل الأصـبهانى وأبو عبـد الله الطيب ، ومعهما رسالة يرجو فيها الخليفة التوسط بشأن هذا الزواج(٤٣) فأعادهما المستنصر مع مبعوث من قبله برسالة شفوية ، واستقبلت الملكة الحرة هؤلاء الرجال بدار العز فى ذى جبله وحولها وزراؤها وكتابها وأهل دولتها . واستمعت الى مبعوث الخليفة يقول : « أمير المؤمنين يرد السلام على الحرة الملكة السيدة الرضية الطاهرة الزكية ، وحيدة الزمن ، سيدة ملوك اليمن ، عمدة الاسلام ، ذخيرة الدين وعصمة المسترشدين ، كهف المستجيبين ، ولية أمير المؤمنين ، كافلة أوليائه الميامين » ثم يذكر بعد هذه الألقاب قول الله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) ويعقب ذلك برأى الخليفة بقوله : « وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعي الأوحد ، المنصور ، المظفر ، عمدة الخـلافة ، أمير

الأمراء أبى حمير سبأ بن أحمد بن المظفر بن على الصليحى على ماحضر من المـــال . وهو مائة الف دينـــار عينا ، وخمسون الفا أصنافا منتحف والطاف وطيبوكساوى » . عند ذلكأجابت السيدة الحرة الملكة مستشهدة أيضا ببعض آى الذكر الحكيم : « أما كتاب مولانا صلوات الله عليه وأمره فأقول فيه انى ألقى الى كتـــاب كريم (انه من سليمان . وانه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين) . والتفتت الىالحاضرين تقول (يا أيها الملأ افتونى فى أمرى ، ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون) وأما أنت يا ابن الأصبهانى فوالله ماجئت الى مولانا من سبأ بنبأ يقين . ولقد حرفتم القول عن موضعه وسولت لـــكم أنفسكم أمرا فصـــبر جميل والله المستعان على ماتصفون » (٤٤) .

وعندما أنهت حديثها تقدم اليها وزيرها زريع بن أبى الفتح والقاضى الحسين بن اسماعيل الأصبهانى وبعض رجال دولتها يحسنون لها هـــذا الزواج ويرجون حتى قبلت وأجابت الى العقـــد (٤٥) ومع كل فان الحرة الملكة لم تمكن زوجها الداعى سبأ بن أحمد بن المظفر لا من نفسها ولا من أمور الدولة بل ظلت هى تمارس السلطة مع دوام الصـــلة والصـــداقة المباشرة مع الخلافة الفاطمية بمصر .

وبالتالى وقفت اليمن بجانب مشكلات الخـــلافة بعد وفاة المستنصر بالله الفاطمى ١٢ ذى الحجة ٤٨٧ / ٢٣ ديسمبر ١٠٩٤ وأبرزها مشكلة الوراثة فى الامامة التى فتحت أنشقاقا فى الاماميـــة الاسماعيليـــة بين النزارية والمستعلية أتبـــاع كل من نزار والمستعلى ولدى المستنصر .فمن المعروف أن ولاية العهد لدى الفاطميين ليست بالتعيين والبيعـــة كما هو الحال فى الخلافة العباسية ، وانما تتم بالنص أو التنصيص كون الامام ينص على من يخلفه . وهذا النص قد يكون تحريريا بوصية ، أو شفويا وهو الغالب ، أو حتى بالتلميح (٤٦) . ويذكر كثير من المؤرخين أنالمستنصر الفاطمى نص على امامة أبنـــه الأكبر نزار من بعده (٤٧) . غير أن الأفضل ابن بدر الدين الجمالى الذى خلف أباه فى وزارة التفويض عمل علىاقصاء نزار عن الامامة ، وتولية أخيه الأصغر أبى القاسم احمـــد الـــذى لقب بالمستعلى بالله (٤٨) . فنقل بذلك الامامة من أخ الى أخ بينما هى تكون فى الأعقاب حسب العقيدة الاسماعيلية . وهى المشكلة التى ســنعرض الى أسبابها ونتائجها فيما بعد .

والمهم الآن ذكره أن السيدة الحرة الملكة وقفت بجانب المستعلى الذى ولى الخلافة ، وأرسل لها سجلا مؤرخا فى صفر ٤٨٩ / فبراير ١٠٩٧ تضمن وصفا لثورة أخيه نزار بالاسكندرية ، وكيف تغلب وزيره الأفضل عليها نهائيا (٤٩) . كما وصلها أيضا رسالة من والدة هذا الخليفة بنفس المعنى (٥٠) . وبهذه الصلة المباشرة ، وبفضل قوة شخصية الحرة الملكة لم تتأثر اليمن بهذا النزاع ، ووقفت الاسماعيلية باليمن الى جانب المستعلى وأقامت له الدعوة أو الخطبة ثم لابنه الآمر من بعده .

وفى بداية القرن السادس الهجرى تعرضت السيدة الحرة الملكة الى تجرؤ بعض رجالاتها من خولان خاصة بعد وفاة زوجها الداعى سبأ ابن أحمد بن المظفر الصليحي عام ٤٩٥ / ١١٠١ ثم وفاة رجلها المفضل ابن أبى البركات والى التعكر عام ٥٠٤ / ١١١٠ — ١١١١ . فقد دبر الأخوان عمران وسليمان ابنا المسلم بن الزر من بنى مران من خولان (٥١) أمر الاستيلاء على حصن التعكر فى ربيع الأول ٥٠٩ / أغسطس ١١١٥ . ورغم أنهما واصلا بذل الطاعة والخدمة للحرة الملكة الا انها لم تكن راضية عن هذا العمل الذى تم دون ارادتها ، ثم انها كانت بعيدة النظر والذكاء فهى لم تجاهر خولان بالعداء ، انما كانت تسلط عليهم بعض العرب لأسر رجال بنى الزر وتبدو هى مظهر فى الحكم فيما بينهم (٥٢) .

وعاصر تلك الأحداث أيضا امتناع آل زريع حكام عدن عن دفع قيمة الربع من خراج عدن ، وهو ماتبقى لها من حق سابق فى جملة هذا الخراج . فقد كان هذا الخراج بأكمله . يصل الى الحرة الملكة كصداق منذ زواجها من المكرم أحمد ، تعهد به العباس ومسعود ابنا الكرم اليامى الهمدانى حاكما عدن من قبل على بن محمد الصليحى واستحلفهما على ذلك (٥٣) . ووفى زريع بن العباس بعد وفاة أبيه مع عمه مسعود بدفع حوالى مائة الف دينار سنويا للحرة الملكة الى أن قتل هذان الرجلان عند زبيد عام ٤٨٥ / ١٠٩٢ فى معركة مع بنى نجاح (٥٤) . فامتنع ولداهما بعدن أبو السعود بن زريع وأبو الفارات بن مسعود عن دفع ذلك الخراج فوجهت الحرة الملكة اليهما المفضل بن أبى البركات ودار القتال الى أن تم الصلح على دفع قيمة النصف فقط من هذا الخراج (٥٥) . ثم عادا الى قطع

هذا النصف يعد وفاة المفضل بن أبى البركات فتولى ابن عمه أسعد بن أبى الفتوح قتالهما وتم الصلح على قدر الربع فقط وهو ما امتنع آل زريع عن دفعه الآن أثناء انقلاب بنى الزر فى التعكر (٥٦) .

تلك أهم المشاكل الداخلية التى واجهت الحرة الملكة علاوة على طمع أهل اليمن فى أطراف بلادها ، وانتشار الفساد وغلاء الأسعار (٥٧) . وكان على الخلافة الفاطمية ضرورة مساندتها فى هذه الفترة العصيبة بارسال أحد رجالها الى اليمن وهو على بن ابراهيم بن نجيب الدولة داعيا وعونا للحرة الملكة ضد منافسيها وأعدائها . وكان هذا التدخل المباشر من جانب الخلافة الفاطمية بداية المشاكل التى انتهت بزوال النفوذ الفاطمى من اليمن .

قدم ابن نجيب الدولة ومعه عشرون فارسا مختارا الى ذى جبله عام ٥١٣ / ١١١٥ « فتركته السيدة الحرة على بابها حافظا لها » (٥٨) . ثم بدأ التحرش بخولان بأن قبض على أحد كبارهم ويدعى سليمان بن عبيد، وضربه بالعصى حتى أحدث فى ثيابه . فزحفت خولان الى ذى جبلة وكاد يحدث مالا يحمد عقباه لولا تدخل أحمد بن سليمان الزواحى ، ابى أخى الحرة ، فأخذ الخولانى من ابن نجيب الدولة وأعاده الى قومه معززا مكرما . فهدأت خولان (٥٩) . اذ لم تكن خولان عاصية انما كانت تطمع أن يصير لها ملكا فى طاعة الحرة الملكة . ومع ذلك فقد حارب ابن نجيب الدولة بعد ذلك بنى الزر فى خدد ثم تهادنوا (٦٠) .

وكان على ابن نجيب الدولة التعاون مع الحرة الملكة فى ميادين أخرى فقام بواجبه فى خدمتها بغزو أهل الأطراف مثل وادى ميتم شرق ذى جبلة، وأهل السهلة فى جبل الشوانى « فأمنت البلاد ورخصت الأسعار وانكف الدعار » (٦١) . ثم هو نفسه كان رجلا شهما عاقلا حسن التدبير (٦٢) « فامتنع عن أموال الناس وانما عدل فيهم وأقام الحدود » (٦٣) .

هذا وقد استخدم ابن نجيب الدولة قوة محلية من ٣٠٠ فارس من بعض مذحج وهمدان على رأسهم الطوق الهمدانى قمع بها أهل الأطراف وأعاد هيبة وسلطان الحرة الملكة (٦٤) . ولم يلبث أن عز جانبه بما جاءه من المأمون البطائحى وزير الخليفة الآمر الفاطمى عام ٥١٥ / ١١٢١

من تفويض بالتصرف ، بالاضافة الى قوة عسكرية من الأرمن والسودان. فاتخذ مدينة الجند مقرا (٥٦) ليغزو منها زبيد وعدن .

نجد أن ابن نجيب الدولة تعرض للهزيمة فى قتال بنى نجـاح أمام زبيد عام ٥١٨ / ١١٢٤ ، وفى قتـال آل زريع عند الجوّة (٦٦) وبالتالى فشل فى فتح زبيد أمام الدعوة ، وفى استعادة الربع المتبقى للحرة الملكة من خراج عدن . وتأكد بذلك استقلال عدن الى سلطان الصليحيين .

ويبدو أن شيئا من سوء التفاهم قد ظهر عام ٥١٩ / ١١٢٥ بين الحرة الملـكة والـداعى المصرى الذى قال عنها انهـا قـد خرفت وتسـتحق الحجر (٦٧) ، أو أنها لا تصلح لتـدبير الملك (٦٨) . فى الوقت الذى ثقلت فيه وطأة هـذا الداعى الوافـد على رجالات اليمن من أمثـال سليمان وعمـران ابنى الزر من خولان ، والمنصـور بن المفضل بن أبى البركات الحميرى ، وأيضـا آل زريع من همـدان . فانتهز هؤلاء فرصـة هـذا التجافى ، واستأذنوا الحرة المـلكة فى حصار ابن نجيب الدولة ومن معه من فرسان همدان بالجند . فأذنت لهم وهى تريد أن تلقن هـذا الداعى المصرى درسا ترد به اعتبارها فى نظره دون الوصول الى حد معاداته . ذلك انه لمـا اشتد الحصار على ابن نجيب الدولة بالجند ، أخرجت الحرة المـلكة قـدر عشرة آلاف دينـار مصرية ووزعتها على وجوه القبائل ، وأشاعت بين رجالهم أنها من ابن نجيب الدولة . فطلبوا بدورهم الأموال من رؤسائهم فماطلوهم وارتحلوا عنهم . وأصبحت الحشود من كل بلد بلا رئيس فانفضوا عن الجند . « وقيل لابن نجيب الدولة هذا تدبير الذى قلت أنها قـد خرفت فركب اليها الى ذى جبلة وتنصل واعتذر » (٦٩) .

وبالرغم من تعاون الحرة الملكة وهذا الداعى الوافد ونجاحهما فى اقرار النفوذ الفاطمى باليمن ، فان ابن نجيب الدولة لقى نهاية سيئة . ذلك أن رجالات اليمن كانوا يحقدون عليه ويدبرون أمر الخلاص منه وحانت الفرصة عندما جاء اليمن مبعوث من قبل المأمون البطائحى وزير الخليفـة الآمر عرف بالأمير الكذاب فنظر اليه ابن نجيب الدولة كمنافس له فلم يعبأ به وغض من شأنه . فكان أن التف حوله هؤلاء النـاقمون واسـتمالوه بالهـدايا للتخلص من عدوهم المشترك . فأوعز اليهم بمؤامرة من شقين.

أولها كما قال : أكتبوا على يدى الى مولانا الآمر كتبا تذكرون فيهـا أنه يدعوكم الى نزار ويراودكم عن ذلك فامتنعتم . وثانيا : ان اضربوا سكة نزارية وأنا أوصلها الى مولانا الآمر بأحكام الله . ونفذ الطلبان . وعاد المبعوث بالـكتب والسكة الى الخليفة بالقاهرة فأصدر هذا أمره بالقبض على ابن نجيب الدولة ، وسير من يدعى الموفق بن الخيـاط فى قوة من مائة فارس لاعتقال ابن نجيب الدولة .

وسبقت الأخبـار بمقدم ابن الخياط . فواجه الداعى موقفا صعبا بين الاستسلام أو الهروب . فكان يقول : (داع لا ينافق والموت أصلح له من النفاق) . ومع كل نراه يغادر الجند مقره الى بلاد بنى زبيد وهو فى قمة هذا الصراع النفسى لهذا يستجيب سريعا لاسـتدعاء الحرة الملـكة له . اذ كانت الملـكة قـد سيرت فى اثره من يستدعيه اليها بعـد أن نصحها أعداء الداعى بأن تحتفظ به لأن الامام لا يطلبه الا منها . ولم تكن الملـكة تريد تسليم ابن نجيب الدولة وان احتاطت وأبقته فى قصرها بذى جبلة ، وامتنعت عن تسليمه الى مبعوث الخليفة قائلة : أنت حامل كتاب فخذ جوابه ، والا فاقعد حتى أكتب الى مولانا ويعود الجواب .

ولم يكن المتآمرون يسكتون أو يرضون عن موقف الحرة الملكة وهم على وشك التخلص من عدوهم ، فكان أن أغروا أحد خلصاء الملكة (٧٠) لتخويفها سوء السمعة النزارية واشاعة ذلك عنها . وتعرضت الملـكة لضغط شديد واضطرت الى تسليم ابن نجيب الدولة بعد أن استوثقت له من ابن الخياط بأربعين يمينا . ثم هى لم تكتف بذلك بل أوفـدت كاتبها محمد بن الأزدى بهـدية (٧١) وكتاب تشفع فيـه لابن نجيب الـدولة لدى الخليفـة .

غير أن المتآمرين فوتوا على الحرة الملـكة محاولة انقـاذ الداعى المصرى . فكان أن أحاطوا به بعد خروجه من ذى جبلة وقيدوه بالحديد وتشفوا فيـه بالاهانة والشتيمة ، ثم سفروه فى البحر من عـدن الى مصر . أما مبعوث الحرة الملكة فقد أخروا ابحاره مدة خمسة عشر يوما كما دبروا عملية اغراقه بالمركب المتوجهة به الى مصر (٧٢) . فلم تصـل

شفاعتها فى ابن نجيب الدولة أسماع الخليفة الذى أمر بقتله عام ٥٢١ / ١١٢٧ (٧٣) .

ولا شك ان هذه الأحداث الأخيرة كانت صدمة قوية للحرة الملكة الا أنها لم تغير موقفها من الخلافة الفاطمية بل ظلت تدعو للخليفة الآمر الذى بادلها أيضا التقدير والاجلال « ويرى أنها من خيرة أعوانه » (٧٤). ودارت بينهما المكاتبات . فقد بشرها الخليفة بمولد ابن له فى ربيع الأول ٥٢٤ هـ سماه أبا القاسم الطيب ، وجعله ولى عهده ، كى تذيع هذا النبأ فى انحاء اليمن (٧٥) .

ولم يلبث ان قتل الخليفة الآمر بالقاهرة فى أواخر هذا العام ٥٢٤ / ١١٣٠ كى تثور مشكلة الوراثة مرة أخرى محدثة انشقاقا جديدا فى الفرقة المستعلية أو الاسماعيلية الغربية . وذلك بتولى عبد المجيد ابن عم الخليفة المقتول عرش الخلافة الفاطمية باعتباره اولا كفيلا انتظارا لحمل مرتقب ثم بويع بالخلافة وتلقب بالحافظ لدين الله . واستمرالصراع فى مصر حوالى سنتين الى أن استقرت الخلافة للحافظ . فما هو موقف اليمن من خلافة الحافظ ؟

نقرر منذ البداية أن الحرة الملكة رفضت الاعتراف بامامة الحافظ، فقد بعث اليها سجلا بدأه بعبارة « من ولى عهد المسلمين » ثم سجلا ثانيا مبتدئا بعبارة « من أمير المؤمنين » . ولم تكن الحرة الملكة راضية عن الطريقة التى وصل بها عبد المجيد الى عرش الخلافة (٧٦) فحسب ، انما هى تعتبر امامته باطلة . فالامامة كما نعرف تكون فى الأعقاب، وعبدالمجيد ليس من أبناء الامام السابق فهو ابن عمه . وكان الأمر واضحا أمامها . فهى على علم سابق بمولد أبى القاسم الطيب بن الآمر وولايته للعهد . ولذا اتخذت الملكة موقفا مخالفا لامامة القاهرة بالدعوة للطيب بن الآمر بقولها : « حسب بنى الصليحى ماعلموه من أمر مولانا « الطيب » وولت الحرة ابراهيم بن الحسين الحامدى أمر الدعوة الطيبية (٧٧) فى دولتها .

ومعنى هذا أن الحرة الملكة اتخذت لنفسها منحى مستقلا عن الامامة فى مصر بالدعوة للامام الطيب متبعة ما تقوله الفرقة المستعلية . وعن طريق اليمن امتدت الدعوة المستعلية من قبل الى الهند التى كان للحرة

الملكة الاشراف على تعيين الدعاة بها (٧٨) . كذلك أرسلت تهدد هاشم بن فليته شريف مكة اذا لم يقطع الخطبة للحافظ ويدعو للطيب (٧٩) .

على أن الجدير بالذكر هو أن الدعوة الطيبية لم تسد اليمن . فقد رأينا من قبل استقلال آل زريع بعدن عن دولة الصليحيين ، ثم أخذت الآن موقفا جديدا ومغايرا بالنسبة للدعوة وذلك بقيام أميرها سبأ بن أبى السعود بن زريع بالدعوة للخليفة الحافظ (٨٠) . وبدأ عندئذ انقسام الدعوة فى اليمن بين الطيب والحافظ أو بين آل الصليحى وآل زريع .

ويبدو أن دولة الصليحيين وكذا الدعوة الطيبية كانت بسبيل الأفول بوفاة الحرة الملكة فى ذى جبلة فى شعبان ٥٣٢ / ١١٣٧ عن ٨٨ عاما . اذ لم يكن بين الصليحيين شخصية قوية تستطيع أن تتابع سياستها، انما آلت حصونهم (٨١) وذخائرهم الى المنصور بن المفضل بن أبى البركات الحاكم فى الجند والذى عجز عن الاحتفاظ بما لديه من ملك بالنسبة لارتفاع شأن آل زريع .

ذلك أن الداعى سبأ بن أبى السعود بن زريع توفى فى نفس عام وفاة الحرة الملكة ، فخلفه ابنه على الأعز بوصية سابقة ، واستقر بالدعوة . غير أنه كان مريضا بالسل فتوفى بعد عامين فتولى أخوه محمد حكم الدولة واستقر بعدن . وما لبث أن قدم من القاهرة القاضى الرشيد احمد بن الزبير يحمل أمر تقليد الدعوة للخليفة الحافظ الى على الأعز فوجده قد توفى . ولم يكن أمام المبعوث الفاطمى وبتشجيع من الوزير بلال بن جرير المحمدى سوى اقرار الأمر الواقع بتقليد الدعوة أخاه محمد ابن سبأ ولقبه « العظيم المتوج المكين » (٨٢) .

وهكذا ارتفع شأن آل زريع فى عدن يساندهم النفوذ الفاطمى الأمر الذى لم يتوفر للمنصور بن المفضل الحاكم فى بقايا ملك الصليحيين فى اليمن ، فآثر التنازل الى الداعى محمد بن سبأ والاستقرار فى حصنيه صبر وتعز نظير مبلغ من المال . وان ذكر المؤرخون (٨٣) أن الداعى محمد ابن سبأ اشترى من المنصور بن المفضل جميع مافى حوزته من معاقل الصليحيين وهى ٢٨ حصنا ومدينة منها ذى جبلة بمائة الف دينار عام ٥٤٧ / ١١٥٢ . واستقر الداعى محمد بن سبأ يحكم فى ذى جبلة عاصمة

الصليحيين سابقا ، ثم خلفه ابنه الداعي عمران عام ٥٤٨ / ١١٥٣ الذى كانت تدور المراسلات بينه وبين طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز ثم العاضد آخر الخلفاء الفاطميين (٨٤) .

هذا وقد توفى الداعي عمران بن محمد بن سبأ بعدن عام ٥٦٠ / ٦٤–١١٦٥ وقد شهد ضياع ملكه فى نجد اليمن الأسفل بسبب غزوات بنى مهدى حكام زبيد ، توفى عن ثلاثة أطفال نقلوا الى حصن الدملوةتحت كفالة جوهر المعظمى مولاه ونائبه فى هذا الحصن وظل ياسر بن بلال بن جرير على نيابته فى حكم عدن (٨٥) . فتوقفت أيضا الدعوة الفاطمية فى كل من عدن والدملوة دون سائر اليمن . وانتهت الخلافة الفاطمية ذاتها بالقاهرة عام ٥٦٧ / ١١٧١ على يد صلاح الدين الأيوبى قبل أن تفيقعدن بهزيمة بنى مهدى عام ٥٦٩ / ١١٧٣ . كما لم يلبث أن قدم الجيشالأيوبى اليمن ليبدأ عهد جديد فى تاريخ العلاقات بين مصر واليمن فى العصر الاسلامى .

ومن ناحية اخرى نقول أن هذا الارتباط السياسى والمذهبى بين مصر واليمن أدى الى تعزيز العلاقات التجارية بينهما بدرجة كبيرة متمثلة فى نشاط تجار الكارم . وكأنما سعى الفاطميون الى توثيق العلاقات السياسية والمذهبية مع اليمن وسيلة لتأمين التجارة فى البحر الأحمر وتدعيم العلاقة التجارية مع عدن بخاصة باعتبارها مركز تجارة الهند والشرق الأقصى وادت التجارة دورها فى نشر الدعوة الاسماعيلية فى المحيط الهندى على يد التجار الكارمية حتى أن اهالى الهند لم يكونوا يفرقون بين الدعاة الاسماعيلية والتجار . وكانوا يطلقون على الاسماعيلى منهم اسم « بوهرا » ومعناها تاجر البهار . ولا زال هذا الاسم علما على اتباع الاسماعيلية بالهند حتى اليوم .

ومن المعروف أن طريق البحر الأحمر عاد الى الازدهار للمرة الثانية فى العصر الاسلامى منذ منتصف القرن الثالث الهجرى على حساب طريق الخليج ، بسبب ضعف الخلافة العباسية لسيطرة الأتراك عليها وقتذاك ، فضلا عن قيام ثورات الزنج ثم القرامطة جنوبى العراق فعاد النشاط الى ميناء عدن . واهتم حكام البلاد المطلة على البحر الأحمر بتجارته لما يعود عليهم بربح وفير سواء من حصيلة الرسوم الجمركية

على البضائع الشرقية أو المتاجرة فيها . نشاهد ذلك على عهد كل من الطولونيين والاخشيديين بمصر بامتداد نفوذهم الى الحجاز وبالتالى اليمن باقامة العلاقات التجارية مع الدولة الزيادية ثم دولة بنى نجاح فى زبيد. واستمرت هذه العلاقات التجارية حتى بلغت قمة ازدهارها فى العصر الفاطمى زمن الصليحيين ثم آل زريع باليمن .

ودائما تمدنا مصر بالوثائق التى هى فى منهج البحث التاريخى من المصادر الأولى فى كتابة التاريخ ، كما تعطينا التفاصيل الدقيقة بشكل غير متوفر فى المصادر الأدبية ولدينا مجموعة الوثائق العربية — اليهودية ، الناطقة باللسان العربى — المكتوبة بالخط العبرى ، المعروفة باسم وثائق الجنيزة . وهى عبارة عن خطابات متبادلة بين عدن وبلدان جنوب الجزيرة العربية ، وموانى البحر الأحمر وموانى الهند وبين القاهرة وبالعكس . أو بين عدن والهند وبالعكس ، أو بين بلدان الهند نفسها ، استخرج منها الباحثون الأجانب مجموعة خاصة بتجارة الهند عبر البحر الأحمر زمن الفاطميين والأيوبيين . وهى تعكس لنا مدى ازدياد النشاط التجارى مع الهند عبر البحر الأحمر فى هذه الفترة .

ولا يتسع المقام لدراسة العملية التجارية بتفاصيلها الدقيقة التى افصحت عنها تلك الوثائق ، انما يهمنا القول ان عدن كانت المركز الرئيسى للطريق الملاحى ترسو فيه سفن الكارمية فى ذهابها أو ايابها من الهند، الا اذا اضطرت الى المرور بها حسب أحوال البحر والرياح أو الظروف السياسية (٨٦) . ومن عدن كانت البضائع تنقل بالسفن الى الساحل الغربى للبحر الأحمر على الشاطىء المصرى حيث يوجد ميناء عيذاب ، ومنها كانت تنقل عبر الصحراء الشرقية الى قوص ، ثم تأخذ طريق النيل الى الفسطاط ، ويذكر المقريزى ان عيذاب زمن الفاطميين كانت من أعظم مراسى الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط بها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة (٨٧) وتبعا لازدهار عيذاب ازدهرت مدينة قوص وأصبحت فى العصر الفاطمى أهم أسواق مصر لكثرة الصادر والوارد عليها من الحجاج والتجار اليمنيين والهنود والأحباش.

وظهر اهتمام الخلافة الفاطمية بتأمين الطريق البحرى التجارى مع

اليمن ، بتواجد اسطول حربى يتكون من خمس الى ثلاث قطع حربية قاعدته عيذاب ، ويتجول فى البحر فيما بين عيذاب وسواكن لضرب القراصنة الذين يتعرضون لسفن الكارم . وأشرف على هذا الأسطول والى قوص ، وربما تولاه أمير من الباب يحمل اليه من خزائن السلاح مايكفيه (٨٨) ومع كل فهناك خطاب مرسل من حاكم دهلك يشير فيه الى أن مراكب الكارم لم تكن دائما بمنأى عن هجوم متجرمة البحر (٨٩) ، رغم تواجد الأسطول الفاطمى .

هذا الطريق البحرى بين مصر واليمن وبعبارة أدق عدن ــ عيذاب أو القصير ثم قوص فالفسطاط ، استخدمته السفارات الرسمية المتبادلة بين القطرين حاملة الرسائل والهدايا . كما استخدمه التجار من مختلف الجهات من مصر والمغرب والفرس والحضارمة والمقادشة والزيالع والحبوش ، ومن مختلف الأديان وبخاصة اليهود الذين كانوا يتجرون بأنفسهم أو وكلاء عنهم ، على سفنهم أو سفن غيرهم ، وهؤلاء جميعا تحولوا وصاروا أصحاب خير ونعم . ولا أدل على الفوائد المادية ماتذكره المصادر عن ثراء حكام مصر واليمن فى ذلك العصر . ولعل المصالح التجارية والمادية هى التى أملت على حكام عدن من بنى رزيع استمرار الارتباط المذهبى والسياسى مع الفاطميين بمصر فاعترفوا بامامة الحافظ لدين الله ومن خلفه من الأئمة بالقاهرة دون الامام الطيب ابن الآمر الذى تمسك به الصليحيون . وظلت عدن مركز الدعوة حتى نهاية العصر الفاطمى .

هذه الحركة التجارية العالمية أصابها كثير من الانكماش بسبب الحروب الصليبية ، بجانب مقاطعة تجارية بهدف ضرب الاقتصاد المصرى ليسهل للصليبيين بعد ذلك هزيمة مصر عسكريا . وتوقفت بالفعل حركة التجارة بين الشرق والغرب بامتناع سفن التجار الفرنج عن التردد على الاسكندرية التى تكدس فيها ما كانت مصر تصدره من فائض السلع الشرقية بالاضافة الى المنتجات المصرية (٩٠) . وظهر أثر ذلك جليا فى الأزمة النقدية التى تعرضت لها مصر بنفاذ العملة الذهبية والفضية من أسواق مصر كما عبر عنها المقريزى ، فى أحداث عام ٥٦٧ هـ (٩١) وهو العام الذى انتهت فيه الخلافة الفاطمية .

وقد خيل لقادة الصليبيين أنهم نجحوا فى خطتهم بخنق مصر أقتصاديا، الا أن هذه الخطة لم يقدر لها النجاح بسبب تعارض هذه الروح الصليبية مع مصالح الجمهوريات الايطالية التجارية من ناحية ، واصلاحات صلاح الدين الأيوبى المالية بمصر من ناحية أخرى كان أهمها تنفيذ مشروع حملة اليمن فى رجب عام ٥٦٩ / فبراير ١١٧٤ لتحقيق عدة أهداف أولها السيطرة على مدخل البحر الأحمر من طرفه الجنوبى ، وبعبارة أخرى اغلاق باب المندب أمام التوسع الصليبى المرتقب فى البحر الأحمر . وثانيا حماية تجار الكارم فى عدن وكذا ضمان الطريق التجارى فيها الى الموانى المصرية فى عيذاب أو القصير كى تحصل مصر فى النهاية على المكوس التى كانت تفرض على تجارة العبور فى تلك الموانى جميعا .

الحــواشى

(١) أنظر كتاب تاريخ اليمن الاسلامى (عصر الولاة) للمؤلف ١٧١ــ ١٧٩ ، القاهرة ١٩٧٥ .

(٢) عمــارة اليمنى : المفيد فى اخبــار صــنعاء وزبيد ص ١١٦ ، القاهرة ١٩٦٧ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن فى تاريخ اليمن ص ٥٢ ، القاهرة ١٩٦٥ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ١٦١/٢ ، ليدن ١٩٣٦ .

(٣) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ٤٣ ، القاهرة ١٩٣٩ ، ابن الربيع : قرة العيون بأخبار اليمن الميمون ٢٤٧ ، القاهرة ١٩٧١ .

(٤) حسين بن فيض الله الهمدانى : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص ٢١٨ ، القاهرة ١٩٥٥ .

(5) Al - Hamadani, (Hussain), Letters of Al - Mustansir Billah, p. 313. (Bulletin of the School of Oriental Studies, Vol, VII, part 2, 1934).

(6) Ibid, p. 312 - 313.

(٧) السجلات المستنصرية : سجل رقم ٦١ ص ٢٠٢ وردت بصدد المــكرم ، القاهرة ١٩٥٤ .

(٨) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ٥١٥/٣ ــ ٥١٦ طبعة دار الــكتب المصرية .

(٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا ص ١٤٥ــ١٤٦ ، القاهرة ١٩٤٨ .

(١٠) القلقشندى : صبح الأعشى ٢٧٠/٤ .

(١١) نفس المصدر : دكتور عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ص ٢٢٤ ، القاهرة ١٩٦٨ .

(١٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٣٠/١٠ بيروت ١٩٦٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : ٧٢/٥ ، طبعة دار الكتب المصرية . أبو الفــدا : المختصر فى أخبــار البشر ١٥٤/٢ ، القــاهرة ١٣٢٥ هـ ، الصليحيون : ٩٠ .

(١٣) آخر القاب الصليحى كما وردت فى السجلات : الأمير ، الأجل ، الأوحد ، أمير الأمراء ، عمدة الخلافة ، شرف المعالى ، تاج الدولة ، سيف الامام ، المظفر فى الدين ، نظام المؤمنين (انظر د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ص ١٩٨ ــ ١٩٩) .

(١٤) الصليحيون : ملحق ٢ ص ٣٠٢ كذلك لقب الأخ الأوسط بالأمير المكرم ، والأخ الأصغر بالأمير الموفق (نفسه) .

(١٥) الصليحيون : ملحق ٣ ص ٣٠٣ ، ملحق ٤ ص ٣٠٤ .

(١٦) الصليحيون : ملحق ٥ ص ٣٠٥-٣٠٧ .

(١٧) نفس المصدر .

(١٨) عمارة اليمني : المفيد ص ١٢٣ - ١٢٥ قتله سعيد الأحول وأخوه جياش انتقاما لمقتل أبيهما نجاح في زبيد بالسم على يد جارية كان قد أهداها الصليحي له (نفس المصدر : ص ١١٤ ، قرة اليون : ٢٤٦).

(19) B. O. S., 1934, Vol, VII, part 2, p. 319.

(٢٠) عمارة اليمنى ، المفيد ص ١٣٨-١٣٩ ، قرة العيون : ٢٦٣ .

(٢١) القاب المكرم : الملك ، الأجل ، الأوحد ، المنصور ، العادل ، المكرم ، عمدة الخلافة ، تاج الدولة ، سيف الامام ، المظفر فى الدين ، نظام المؤمنين ، عماد الملة وتحيات الأمة ، شرف الايمان ومؤيد الاسلام ، عظيم العرب ، سلطان أمير المؤمنين وعميد جيوشه (أنظر السجلات رقم ٥٦ و٥٨ و٥٩) .

(٢٢) سجل رقم ٤١ ص ١٤٢ ، ٥٥ ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٢٣) سجل رقم ٤٤ ص ١٥٢ - ١٥٤ .

(٢٤) سجل رقم ٢٠ ص ٧٦ - ٧٨ .

(٢٥) سجل رقم ٥١ ص ١٧٠ .

(٢٦) سجل رقم ٣٤ ص ١٠٦ - ١٢٩ .

(27) B. O. S., 1934. Vol, VII, part 2, p. 312.

(٢٨) سجل رقم ١٦ ص ٦٧-٦٩ ، ٥٣ ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٢٩) سجل رقم ٥٤ ص ١٧٦ - ١٧٩ .

(٣٠) سجل رقم ٥٠ ص ١٦٧ - ١٦٩ .

(31) B. O. S., 1934. Vol. VII, part 2, p. 321.

(٣٢) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن ص ١٢٢ - ١٢٣ القاهرة ١٩٥٧ . يذكر بعض المؤرخين تاريخا آخر لوفاة المكرم احمد هو عام ٤٨٤هـ (عمارة اليمنى : ١٤٦ ، تاريخ ثغر عدن : ٢/٩) وأخذ به سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٧٨ القاهرة ١٩٦٧) ويذكر د. ماجد سنة الوفاة ١٠٨٥/٤٧٨ (ظهور خلافة الفاطميين : ص ٢٠٣) والراجح ماذكره ابن سمره .

(٣٣) تاريخ ثغر عدن : ٩/٢ ، ابن المجاور : ٧٣/١ .

(٣٤) المصدر السابق ، المفيد : ١٤٦ ، قرة العيون : ٢٩٥ .

(35) B. O. S., 1934. Vol, VII, part 2, p. 366.

(٣٦) سجل رقم ٤٨ ص ١٦١ — ١٦٥ .

(٣٧) المفيد : ١٥١ (هو سليمان بن عامر بن سليمان بن عامر بن عبد الله الزواحى ، قتله المفضل بن أبى البركات بالسم . نفسه : ١٣٦)

(٣٨) سجل رقم : ٣٨ ص ١٢٨ — ١٣٤ .
B. O. S., 1934. Vol, VII, part 2, p. 319.

(٣٩) د. سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٨٨ .

(٤٠) سجل رقم ٣٧ ص ١٢٢ — ١٢٨ .

(41) B. O. S., 1934. Vol, VII, part 2, p. 321.

(٤٢) المفيد : ١٥١ ، بهجة الزمن : ٥٧ ، قرة العيون : ٢٦٧ .

(٤٣) المفيد : ١٥١ — ١٥٢ ، قرة العيون : ٢٦٧ .

(٤٤) المفيد : ١٥٢ — ١٥٣ ، قرة العيون : ٢٦٨ .

(٤٥) نفس المصدرين .

(٤٦) د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ٤٠٨ .

(٤٧) الكامل فى التاريخ : ٢٣٧/١٠ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٣٧ تحقيق هنرى ماسيه ، القاهرة ١٩١٩ . ابن خلدون : العبر ٦٦/٤ بولاق ١٢٨٤ هـ .

(٤٨) ابن ميسر : تاريخ مص ٣٥ .

(٤٩) السجلات المستنصرية رقم ٤٣ ص ١٤٥ — ١٥١ .

(٥٠) السجلات المستنصرية رقم ٣٥ ص ١٠٩ — ١١٧ .

(٥١) كانت خولان قد قدمت الى مخلاف جعفر قبل وفاة المفضل بن أبى البركات فى جمع كبير بلغ ستة آلاف مقاتل من بطون مختلفة من بنى مران وبنى بحر وبنى منبه ، وبنى رازح وغيرهم ففرقهم المفضل فى الحصون واستحلفهم . ثم انضموا الى ثورة الفقهاء بحصن التعكر حتى وفاة المفضل وتدخل الملكة الحرة لتهدئة الفقهاء . وما لبث أن ظهر المسلم بن الزر من بنى مران واستولى على حصن خدد . ومع ذلك فقد تقرب الى الحرة الملكة بارسال ولديه سليمان وعمران فقربتهما . ثمخلف سليمان أباه فى خدد . ودبرا من بعد أمر الاستيلاء على التعكر وحازه عمران (المفيد ١٦٢ — ١٦٤) .

(٥٢) المفيد : ١٦٣ ــ ١٦٥ كانت الحرة الملكة تستعين بقبيلة جنب من مذجح وعلى راسها عمرو بن عرفطة الجنبى لاقرار سيادتها أمام خولان (نفس المصدر) .

(٥٣) المفيد : ١٧٨ ، قرة العيون : ٣٠٤ ــ ٣٠٥ .

(٥٤) المفيد : ١٧٩ ، تاريخ ثغر عدن : ٤١/١ ، قرة العيون : ٣٠٦

(٥٥) المفيد : ١٥٩ ، ١٧٨ صالح الحامد : تاريخ حضرموت ٣٤٨/١ جدة ١٩٦٨ ، قرة العيون : ٣٠٦ .

(٥٦) المفيد : ١٧٩ ، قرة العيون : ٣٠٦ .

(٥٧) المفيد : ١٦٧ .

(٥٨) تاريخ ثغر عدن : ٧١/٢ ، قرة العيون : ٤٧٢ .

(٥٩) المفيد : ١٦٧ .

(٦٠) المفيد : ١٦٩ .

(٦١) المفيد : ١٦٧ .

(٦٢) تاريخ ثغر عدن : ١٣٢/٢ ، بهجة الزمن : ٥٩ .

(٦٣) المفيد : ١٦٧ .

(٦٤) نفس المصدر .

(٦٥) نفس المصدر .

(٦٦) نفس المصدر : ١٦٨ ــ ١٦٩ ، تاريخ ثغر عدن : ١٣٣/٢ .

(٦٧) المفيد : ١٧٠ ، قرة العيون : ٢٧٥ .

(٦٨) بهجة الزمن : ٥٩ .

(٦٩) المفيد : ١٧٠ ــ ١٧١ ، بهجة الزمن : ٥٩ ، قرة العيون : ٢٧٥ ــ ٢٧٦ .

(٧٠) هو عبد الله بن المهدى كانت الحرة تصغى الى رأيه، واستماله سليمان وعمران ابنا الزر بعشرة آلاف دينار وحصنين بأعمالهما ليتحدث الى الملكة فى أمر ابن نجيب الدولة (المفيد : ١٧٤) .

(٧١) بلغت قيمة الجواهر التى فى الهدية أربعون ألف دينار (المفيد : ١٧٤) .

(٧٢) المفيد : ١٧١ — ١٧٥ ، قرة العيون : ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٧٣) ابن ميسر : ٧٠ .

(٧٤) د. سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ١٠٠ .

(٧٥) الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ٢٣/١ ، الصليحيون ملحق رقم ٨ .

(٧٦) د. سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ١٠٠ .

(٧٧) المفيد : ٢٥٦ .

(٧٨) د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين : ٤٣٠ .

(٧٩) د. سرور : المرجع السابق ٣٢ والمصادر الواردة .

(٨٠) المفيد : ١٨١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، قرة العيون : ٢٧٨ .

(٨١) ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن ١٢٤ . بعد وفاة الحرة الملكة ظل الحكم بيد الصليحين بعض الوقت بحكم على بن عبد الله الصليحى دون السنة ، وبعده زوجته أسماء بنت محمد الصليحى ، وانضم اليهــا السلطان كحيل وإسمه عبد الله بن محمــد . الى أن آل الأمر أخيرا الى المنصور بن المفضل (نفس المصدر : ١٢٣ — ١٢٤) .

(٨٢) المفيد : ١٨٩ — ١٩٠ ، تاريخ ثغر عدن : ٢١٧/٢ ، قــرة العيون : ٣٠٩ — ٣١٠ .

(٨٣) المفيد : ١٩٣ ، تاريخ ثغر عدن : ٢١٨/٢ .

(٨٤) المفيــد : ١٩٥ .

(٨٥) المفيد : ٢٤٧ ، قرة العيون : ٣٦٢ .

(٨٦) مثل حصار حاكم كيش لعدن وقت الصراع بين حكام عدن من بيت أبى الغارات مسعود وبيت زريع بن العباس أنظر المفيد : ١٨٢ — ١٨٥ ، ابن المجاور : ١٢٤/١ ، قرة العيون : ٣٠٦ — ٣٠٩ .

(٨٧) المقريزى : الخطط ١٠٢/١ .

(٨٨) القلقشندى : صبح الأعشى ٥٢٠/٣ .

(89) Goitein : Studies in Islamic History and Institutions, p. 356. Heiden, 1966.

(٩٠) التوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ١٣٢ .

(٩١) المقريزي : كتاب النقود القديمةالاسلامية ص٥٩ القاهرة١٩٣٩ .

٤

جيش اسماعيل فى ضوء وثيقة جديدة لم تنشر

بقلم : الدكتور عبد العظيم رمضان
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد
بجامعة المنوفيـــة

ينسب لمحمـــد على الفضـــل فى تكوين أول جيش نظـــامى مصرى حديث . وكان الجيش المصرى فى العهد العثمـــانى المـــلوكى يتكون من العثمانيين والمماليك ، وفى أوائل عهد محمد على كان يتكون من خليط من الترك والألبان والمغـــاربة والدلاة . ومع أن محمد على قـــد حقق بهذا الجيش الانتصـــارات فى النوبة والحجاز ، الا أنه أدرك أنه لن يستطيع تحقيق مثل هذه الانتصارات اذا اصطدم بجيش أوروبى منظم على الأسـاليب والأنظمة الحديثة ، ولذلك قرر تكوين جيش على أحدث النظم ، وهـــو ماعرف باسم النظام الجديد .

وفى البداية لم يشأ محمد على تجنيد الأتراك أو الأرناؤد خشـــية خروجهم على الطاعة واثارة الفتن والتمرد . كما لم يكن فى وسعه تجنيد الفلاحين المصريين حتى لا يخرج على عرف امتـــد آلاف السنين ، وهـــو حرمان الطبقـــة التى لا تملك وسائل الانتاج من السلاح . ولذلك لجأ الى السودانيين من كردفان وسنار . فاستجلبهم الى مصر ، واقام لهم المعسكرات فى أسوان ، وفى بنى عدى ، وبالقرب من منفلوط . ولـــكن فشل التجربة دفعه الى تجنيد الفلاحين المصريين ، فاصطبغ الجيش المصرى لأول مرة منذ العصر الفرعونى بالصبغة المصرية .

مع ذلك فان قيادات الجيش المصرى ظلت من العناصر الأجنبيـــة . وكانت هذه العناصر تنقسم الى قسمين :

١ ــ عنـــاصر اسلامية .

٢ ــ وعناصر أوروبيـــة .

وفيما يتصل بالعناصر الاسلامية ، فان ضباط الأسلحة المختلفة كانوا فى الأصل من الترك والألبان والشراكسة ، على أنه فى حرب المورة وسوريا قام ابراهيم بتشجيع الجاويشية المصريين بترقية أشجعهم الى رتبة الملازم الثانى . ثم اخذ العنصر المصرى بين الضباط يزداد مع ايفاد البعثات العسكرية الى أوروبا ، على أن كبار الضباط ظلوا على الدوام غير مصريين . ولم يكن الا فى عهد محمد سعيد باشا حين أصدر أمره بانتظام أولاد العمد والمشايخ فى سلك العسكرية ، فأخذ التركيب الاجتماعى للجيش منذ ذلك الحين فى التغيير .

أما بالنسبة للعناصر الأوروبية ، فلم تنقطع عن قيادة الجيش المصرى منذ أن أصبح قوة نظامية واستمر ذلك حتى فى أثناء الثورة العرابية ، ثم انتقل اليها القياد بعد الاحتلال البريطانى .

وتعتبر سنة ١٨٣٩ هى السنة التى بلغ الجيش المصرى فيها أوجه من الناحية العددية . فوفقا لاحصاء كلوت بك فى : « لمحة عامة عن مصر » ، كان عدد الجنود النظامية من المشاة والفرسان والمدفعية ١٣٠ر٢٠٢ . وكان الى جانبهم جنود غير نظامية باشبوزق يبلغ عددهم ٦٧٨ر٤١ ، ثم الرديف وعددهم ٨٠٠ر٤٧ ، وعمال الفبريقات المدربون على القتال ، وعددهم ٠٠٠ر١٥ ، ثم طلبة المدارس الحربية المستعدون للقتال ، وعددهم ١٢٠٠ ، ومعنى ذلك أن مجموع الجيش كان يبلغ ٨٨٠ر٢٣٥ .

أما عدد السفن الحربية ، فقد بلغ ١١ بارجة ، و ٧ فرقاطات ، و٥ سفن من طراز قرويت ، و٩ من نوع الابريق . ومجموع جنودها ٠٠٠ر١٦ جندى .

على أنه بعد انتهاء الحروب السورية ، وابرام معاهدة لندن ١٨٤٠ ــ ١٨٤١ ، نقص عدد الجيش . ولكنه لم ينقص الى الحد الذى نص عليه فرمان الوراثة الصادر فى ١٣ فبراير ١٨٤١ ــ أى الى ١٨ الفا ، وانما تحايل محمد على على هذه العقبة واستطاع الاحتفاظ بجيش يبلغ عدده نحو ثمانين الفا . فوفقا لما أورده « مرى » Murray القنصل البريطانى العام فى رسالته الى حكومته فى مايو ١٨٤٥ ، كان الجيش

المصرى يتألف من ثمانية عشر آلايا من المشاة ، منها سبعة فى السودان،

كما كان يتألف من تسعة آلايات من « السوارى » وعشرين الفا من رجال المدفعية — أى أنه كان يبلغ ثمانين الفا ، لم يكن يدرب منهم الباشا غير عشرين الفا احتراما لفرمان الوراثة ، أما الباقون فقد كلفوا بمهام انجاز المنشآت العامة كالجسور والقناطر والرياحات والترع .

وفى عهد عباس الأول ، تراجع الاهتمام بالجيش . ولكنه استرد أهميته فى عهد سعيد الذى اثرت فيه نشأته الأولى على ظهر الأسطول . فقد قصر سعيد باشا مدة الخدمة العسكرية فأصبح متوسطها سنة واحدة. وأمر بأن تعمم الخدمة العسكرية بحيث يقترع أبناء المشايخ والعمدوأقاربهم كسائر الفلاحين .

على أن سعيدا لم يكن يستقر على حال واحدة فى اهتمامه بشئون الجيش . ففى سنة ١٨٥٦ صرف معظم الجيش ، ولم يبق منه الا ست أورط من المشاة ، وثلاثة بلوكات من الفرسان ، وبلوكين من المدفعية . ولما سافر فى رحلة الى السودان فى أواخر سنة ١٨٥٦ اصطحب أورطتين من الجيش . وفى سنة ١٨٦٠ ، حين توترت العلاقات بينه وبين تركيا بسبب مسألة قناة السويس ، أعاد الجيش ثانية ، ونظم فيالقه استعدادا للحرب ضد السلطان ، وقاد بنفسه هذا الجيش ، وعسكر به فى مريوط . وكان عدد الجيش وقتئذ ٦٤٫٠٠٠ مقاتل وفقا لاحصاء اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه : حقائق الأخبار عن دول البحار ، الجزء الثانى .

ثم صرف سعيد معظم هذا الجيش بعد أن تحسنت علاقاته مع تركيا . وفى سنة ١٨٦٢ أعاد تنظيم بعض الفرق . ولكن وفقا لما أورده فرديناند دى ليسبس فى كتابه عن وثائق تاريخ القتال ، الجزء الرابع — عاد فانقص الجيش من ستين الفا الى نحو ثمانية آلاف أو عشرة آلاف ، وذلك لكى يخصص اكبر عدد من المقترعين لأعمال الحفر فى قناة السويس.

وعندما انتقل الحكم الى يد اسماعيل ، انتعش الجيش من جديد . ففى الفترة الأولى من حكمه ، عنى به عناية فائقة ، فأرسل الى فرنسا بعثة حربية تتألف من خمسة عشر ضابطا من خيرة ضباط الجيش ، وهم:

شاهين باشا ، وابراهيم باشا السوارى ، وعلى بك الطوبجى ، وعلى بك وهبى ، ويوسف بك صديق ، ومحمد بك رضا ، ومحمود بك سامى ، واسماعيل بك أيوب ، وعبد القادر بك حلمى ، ومصطفى بك فهمى ، وعثمان بك غالب ، واحمد أفندى حمدى ، وحسين أفندى مظهر ، ومحمد أفندى . وقد درس هؤلاء النظم العسكرية الفرنسية والاستحكامات والمناورات العامة ، وغير ذلك من فنون الحرب .

ثم أخذ اسماعيل فى اعادة تنظيم الجيش . وبدأ باعادة تنظيم المدارس الحربية . فاستدعى فى عام ١٨٦٤ بعثة عسكرية من فرنسا على رأسها الكولونيل ميرشيه Mircher ، ونقل المدرسة الحربية من القناطر الخيرية الى قصر النيل ثم الى العباسية . ثم أنشأ بالعباسية عدة مدارس أخرى بدلا من المدارس التى أنشأها محمد على وعفا أثرها . فأنشأ فى عام ١٨٦٤ مدرسة البيادة (المشاة) ، وعدد تلاميذها ٤٩٠ ، وفى العام التالى ١٨٦٥ أنشأ ثلاث مدارس هى : مدرسة السوارى (الفرسان) وعدد تلاميذها ١٦١ ، ومدرسة الطوبجية (المدفعية) والهندسة الحربية وعدد تلاميذها ٢٨٠ يختارون من طلبة مدرسة المهندسخانة ، ومدرسة أركان الحرب بالعباسية ، ويختار تلاميذها من نوابغ المدارس الحربية أو المهندسخانة .

وفى ١٨٦٧ كلف اسماعيل المصانع الفرنسية بصنع عدة آلاف من بنادق « شاسبو » الحديثة ذات الابر ، وسلح بها جنود الجيش المصرى . ودعم حصون الاسكندرية وجدد أسلحتها ومدافعها ، وجلب المدافع الضخمة من طراز ارمسترونج ، وركبها فى طوابى الثغور . كما عنى بالمصانع الحربية التى تأسست فى عهد محمد على ، فنظم مصنع الحوض المرصود ، وصارت تصب فيه المدافع ، وتصنع فيه المعدات الحربية وشيد بطرة ثلاثة مصانع لصناعة الأسلحة وصب المدافع ، كما أصلح مصانع البارود التى كانت بمصر ، حتى علا صيتها . كما أصلح مصنع الأسلحة بالاسكندرية وأدخل عليه اضافات وتوسعات .

وقد امتدت عناية اسماعيل الى البحرية ، التى كانت قد وصلت الى درجة كبيرة من التأخر والاضمحلال عند استلامه الحكم . فبعث بالنشاط فى ترسانة الاسكندرية ، وأحيا مصانعها ، وجلب لها العمال ، واستحضر

لها العتاد والآلات ، فعاد اليها نشاطها الذى كان فى عهد محمد على ، وأنشئت بها بعض السفن الحربية ، مثل البارجة لطيف فى عهد ولاية عبد اللطيف باشا لوزارة الحربية ، والبارجة « الصاعقة » فى عهدشاهين باشا . وأوصى أسماعيل بصنع عدة سفن حربية مدرعة فى ترسانات أوروبا . كما جدد المدرسة الحربية بالاسكندرية ، وانشأ مدرسة بحرية أخرى بجوار الترسانة . وأرسل بعثة الى انجلترا من خريجى هذه المدرسة لاتمام العلوم البحرية . ومن هذه المدرسة تخرج اسماعيل باشا سرهنك ، مؤلف كتاب : « حقائق الأخبار عن دول البحار » .

ولكن جهود اسماعيل فى تقوية الأسطول المصرى ووجهت بالمتاعب فقد أوصى بصنع مدرعتين فى أوروبا وارسل فى عام ١٨٦٨ مجموعة من الضباط والبحارة لتسلمهما ، ولكن الحكومة العثمانية اعترضت على ذلك متذرعة بأن الفرمانات لا تبيح لمصر انشاء السفن الحربية . وأرسل اليه الصدر الأعظم انذارا بأن يبيع الى الباب العالى، أو يحيل اليه بثمن التكلفة المدرعتين والمعدات العسكرية الأخرى التى أرسل فى طلبها ، وتخفيض عدد الجيش الى العدد المسموح به فى فرمان ١٨٦٦ ، وهو ٣٠ الفا . وانتهى الأمر بابتياع تركيا هاتين المدرعتين .

وقد اختلفت الآراء والاحصائيات التى وردت فى المصادر المختلفة عن تعداد جيش اسماعيل . فوفقا لاحصاء اسماعيل باشا سرهنك فى الجزء الثانى من كتابه ، فان عدد جيش اسماعيل المرابط فى مصر فى عام ١٨٧٣ كان يبلغ نحو ٩٠ الفا من الجنود والضباط وتلاميذ المدرسة الحربية على النحو الآتى :

٨٤ر٥٣٠	جنود وصف ضباط
٢ر٦٦٨	ضباط وقواد
١ر٨٩٠	تلاميذ المدارس الحربية
٨٩ر٠٨٨	

اما الجيش المصرى المرابط فى السودان ، فكان يبلغ ثلاثين الفا . اى أن تعداد الجيش المصرى فى مصر والسودان كان يبلغ نحو ١٢٠ر٠٠٠ مقاتل .

أما الأسطول ، فوفقا لاحصاء على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية فى الجزء السابع ، فان عـدد السـفن الحربية بلغ ١٤ سفينة ، هى : المحروسة ، مصر ، الغربية ، محمد على ، شبيرجهاد ، لطيف ، دنقلة ، الطور ، سيناء ، الخرطوم ، أسيوط ، وثلاثة مراكب أخرى صغيرة .

على أن احصاء اسماعيل باشا سرهنك فى الجزء الثانى من كتابه، يقرر أن عدد سفن الأسطول بلغ ١٨ سفينة حربية هى : محمـد على ، شبيرجهاد ، لطيف ، الخرطوم ، دنقلة ، الصاعقة ، سنار ، زرخ نمرة١ ، زرخ نمرة٢ . ثم الطرادات وسفن النقل الآتية : الطور ، أسوان، شندى، اسيوط ، الجعفرية ، سمنود ، نور الهدى ، مخبر ، عجمى . هذا فضلا عن ثلاث سفن حربية أخرى مخصصة لركوب الخديوى وهى : المحروسة، ومصر ، والغربية (١) .

من هنا تكمن أهمية هذه الوثيقة التاريخيـة من وثائق عابدين التى عثرنا عليهـا ، عن جيش اسـماعيل فى عام ١٨٦٩ ، والتى تتمثل فى « يومية » رسمية فريدة للعرض على ناظر الجهادية والبحرية ، توضـح بأدق التفاصيل أسرار هذا الجيش من ناحية تعداده وأسلحته وغير ذلك مما لم يسبق له مثيل فيما نشر من وثائق ، وهى بعنوان :

« يومية الآلايات المنتظمة المقتضى تقديمها لسعادة أفندم الباشا ناظر جهادية بحرية لغاية ١٥ أبيب سنة ٨٥ — ١١ ربيع سـنة ١٢٨٦ — ٢١ يولية سنة ١٨٦٩ » .

ومن دراسة وتحليل هذه الوثيقة تتضح الحقائق الآتية :

اولا — فرق الجيش :

تنقسم هذه الفرق الى قسمين :

١ — الجيش المرابط فى مصر .

٢ — الجيش المرابط فى السودان .

١ ـ الجيش المصرى المرابط فى مصر :

وينقسم الى الفرق الآتيـــة :

١ ـ فرقة طوبجية (مدفعية) تشتمل على أربعة آلايات .
٢ ـ فرقة فرسان تشتمل على أربعة آلايات .
٣ ـ أربع فرق بيادة تشتمل على ستة عشر آلايا .
٤ ـ ثلاثة بلوكات صنايعية .

١ ـ آلايات الطوبجية :

وذلك على النحو التـــالى :

(أ) آلاى الطوبجية الغارديا ، واصل مرتبه ٩٨٢ (من الضباط وصـــف الضباط والأنفار والتوابع (٢) والموجود الفعلى ١٠١٨ !)

(ب) الآلاى الثانى طوبجية (٣) وأصل مرتبه ٩٥٧ ، والوجود ١٠١٦ .

(جـ) الآلاى الأول سواحل ، وأصلمرتبه ١٨٩٦، والموجود الفعلى ١٨٢٢

(د) الآلاى الثانى سواحل ، وأصل مرتبه ١٨٩٦ ، والموجود ١٨٣٣ .

٢ ـ آلايات السوارى :

(أ) الآلاى الأول سوارى غارديا ، واصل مرتبه ٩١٤ والموجود ٨٩٢ .
(ب) الآلاى الثانى سوارى غارديا ، واصل مرتبه ٩١٤ والموجود ٩١٣ .
(جـ) الآلاى الأول سوارى ، وأصل مرتبه ٩١٤ ، والموجود ٨٧٦ .
(د) الآلاى الثانى سوارى ، وأصل مرتبه ٨٩٨ ، والموجود ٩٣٩ .

٣ ـ آلايات الفرقة الأولى بيادة غارديا :

(أ) الآلاى الأول بيادة غارديا ، واصل مرتبه ٢١٦٩ والموجود ٢١١٠ .
(ب) الآلاى الثانى بيادة غارديا ، واصل مرتبه ٢١٥٤ والموجود ٢٠٤٠ .
(جـ) الآلاى الثالث بيادة غارديا ، وقوته ٢١٥٤ والموجود ١٨٧٩ .
(د) الآلاى الرابع بيادة غارديا ، وقوته ٢٨٨٠ والموجود ١٧٤٠ .

٤ ــ آلايات الفرقة الثانية بيادة :

(أ) الآلاى الخامس بيادة ، وأصل مرتبه ٢٨٩٨ والموجود ٢٦٠٤ .

(ب) الآلاى السادس بيادة ، وأصل مرتبه ٢١٥٤ والموجود ٢٠٧٨ .

(جـ) الآلاى السابع بيادة ، وأصل قوته ٢١٥٤ والموجود ١٩١٩ .

(د) الآلاى الثامن بيادة ، وأصل قوته ٢١٥٤ والموجود ١٩٢٧ .

٥ ــ آلايات الفرقة الثالثة بيادة :

(أ) الآلاى التاسع بيادة ، وأصل قوته ٢٨٩٨ والموجود ٢٥٥٤ .

(ب) الآلاى العاشر بيادة ، وأصل مرتبه ٢١٥٤ والموجود ١٨٦٩ .

(جـ) الآلاى الحادى عشر بيادة ، وأصل مرتبه ٢١٥٤ والموجود ١٧٧٤ .

(د) الآلاى الثانى عشر بيادة ، وأصل مرتبه ٢١٥٤ والموجود ١٨٨٨ .

٦ ــ آلايات الفرقة الرابعة بيادة :

(أ) الآلاى الرابع عشر بيادة (٤) وقوته ٢٨٩٨ والموجود ٢٥٤٣ .

(ب) الآلاى الخامس عشر بيادة ، وأصل مرتبه ٢١٥٤ والموجود ١٨٥٩ .

(جـ) الآلاي السادس عشر بيادة، وأصل مرتبه٢١٦٣ والموجود ١٩١٠ .

(د) الآلاى السابع عشر بيادة ، وأصل مرتبه ٢١٥٤ والموجود ١٩٣٩ .

٧ ــ بلوكات الصنايعية :

بلوك الجبهجية ، وأصل مرتبه ٢٢٨ والموجود ١٩٧ .

أوجاق المدفعيات ، وأصل مرتبه ١١٣ والموجود ١١٢ .

بلوكات الصنايعية ، وأصل مرتبه ٨٩٤ والموجود ٨٩٤ .

وبذلك يبلغ اجمالى هذا الجيش ٤٨٠٧٩ رجلا ، والموجود ٤٤١٤٦

٢ ــ الجيش المرابط فى السودان :

وكان ينقسم الى خمسة آلايات ، منهـا : آلاى مدفعيـة ، وآلاى هجانة ، وآلايان مشاة ، على النحو الآتى :

(أ) الآلاى الأول بيادة سودان ، وأصل مرتبه ٢١٩٠ والموجود ٢٥٣١ .
(ب) الآلاى الثانى بيادة سودان ، وأصل مرتبه ٢١٩٠ والموجود١٦٦٥ .
(جـ) بطارية الطوبجية ، وأصل مرتبها ١٠٣ و ١٠٣ .
(د) بلوكات الهجانة ، وأصل مرتبه ٢٣٤ والموجود ٢٣٤ .
(هـ) الأورطة المستجدة ، وأصل مرتبها ٧١٥ والموجود ٧١٦ .

ويبلغ اجمالى الجيش المرابط فى السودان ٥٤٣٢ والموجود منهـا ٥٢٤٩ ، وبذلك يبلغ تعداد الجيش المصرى فى مصر والسودان ٥٣٫٥١١ والموجود منهم بالآلات ٤٩٫٣٩٥ ضابطا وجنديا وتابعا .

ثانيا ــ المـدارس الحربيـة :

كانت المدارس الحربية تتكون من ثمانى مدارس على النحو الآتى :

١ ــ مدرسة الطوبجية ، وأصل مرتبها ١٠٤ من الضباط وصف الضباط والتلاميذ الأنفار ، والموجود منهم ١٠٠ . ويبلغ عدد التلاميذ ٦٧ .

٢ ــ مدرسة السـوارى ، وقوتهـا ٧٢ والموجود ٧١ ، ويبلغ عـدد التلاميذ ٤١ .

٣ ــ مدرسة البيادة ، وقوتها ٢١٧ ويبلغ عدد تلاميذها ١٢٨ .

٤ ــ مدرسة أركان الحرب ، وقوتها ٢٩ والموجود ٢٨ ، وجميع تلاميذها من الضبـاط .

٥ ــ مدرسة الطب البيطرى ، وأصل مرتبها ٢٤ ويبلغ عدد تلاميذها ١٥

٦ ــ مدرسة الشيش والجنباز ، وقوتها .

٧ ــ مدرسة المحاسبة ، وأصل مرتبها ٣٢ وعدد تلاميذها ٢١ .

٨ ــ مدرسة الزراعة ، وقوتها ٣٧ وعدد تلاميذها ٢٨ .

٩ ــ تلامذة العمليات ، وأصل مرتبهم ٢٨ ، وعدد التلاميذ ٢٢ .

١٠ــ تلامذة الجبهجية ، وقوتها ١٧ وكلهم من التلاميذ الأنفار .

وقد بلغ عدد النظار والوكلاء والتوابع لهذه المدارس ١٦٣ .

ثالثا ـ الأسـطول البحرى :

وينقسم الى قسمين :

اسطول البحر الأحمر .

اسطول البحر الأبيض .

١ ـ اسطول البحر الأحمر :

ويتكون من ثمانية سفن باسم « وابورات » ، وهى :

١ ـ وابور شرحاد ، واصل مرتبه ٤٠٤ من الضـباط وصف الضـباط والأنفار وتوابعهم ، والموجود ١٣٩ .

٢ ـ وابور كونفيت ، واصل مرتبه ٥٢ والموجود ٧٦ !

٣ ـ وابور ابتاكه ، واصل مرتبه ١٤٥ والموجود ٦٧ .

٤ ـ وابور الخرطوم ، واصل مرتبه ١١٧ والموجود ٤٧ .

٥ ـ وابور سنار ، واصل مرتبه ١١٦ والموجود ٦١ .

٦ ـ وابور دنقله ، واصل مرتبه ١١٧ والموجود ٧٦ .

٧ ـ وابور شندى ، واصل مرتبه ١٢٦ والموجود ٥٨ .

٨ ـ وابور الطور ، واصل مرتبه ٨٠ والموجود ٤٨ .

ويتكون اجمالى قوة بحرية البحر الأحمر ١١٥٧ والموجود منها ٦٧٢.

٢ ـ اسطول البحر الابيض :

ويتكون من خمسـة عشر وابورا ، وست قرويتات (٥) ، وابريـك (ابريق) واحد (٦) ، ورزخين ، على النحو الآتى :

١ ـ وابور المحروسة ، واصل طاقمه ٤٠٩ والموجود ٣٨٠ .

٢ ـ وابور محمد على ، واصل طاقمه ٣٠٥ والموجود ٢٧٧ .

٣ ـ وابور الفيوم ، واصل طاقمه ١٨٥ والموجود ١٦٠ .

٤ ـ وابور مصر ، واصل طاقمه ١٨٤ والموجود ١٨٢ .

٥ ـ وابور الغربية ، واصل طاقمه ١٧٢ والموجود ١٥٤ .

٦ ـ وابور لطيف ، واصل طاقمه ٢٤٩ والموجود ٢٠٨ .

٧ ـ وابور الجعفرية ، وطاقمه ١١٧ والموجود ١٢٠ .

٨ ـ وابور اسيوط ، واصل طاقمه ٣٣ والموجود ١٠٧ !

٩ — وابور مخبر ، وطاقمه ٣٣ والموجود ٩١ !

١٠ — وابور عجمى ، وأصل طاقمه ٣٣ والموجود ٤٢ !.

١١ — وابور باركه وأصل طاقمه ٢٠ والموجود ٣٢ !.

١٢ — وابور الحمدية ، وأصل طاقمه ١٢ والموجود ١٦ .

١٣ — وابور قاهرة ، وأصل طاقمه ١١٩ والموجود ١١٩ .

١٤ — وابور مظفر ، وأصل طاقمه ١١٩ والموجود ١١٩ .

١٥ — وابور صاعقة ، وأصل طاقمه ١٦٥ والموجود ١٦٥ .

١٦ — وابور قرويت نمرة ٧ وأصل طاقمه ٦٨ واوجود ٥٠ .

١٧ — قرويت نمرة ٦ أصل طاقمه ٤٣ والموجود ٦٥ !

١٨ — قرويت نمرة ٥ ، وأصل طاقمه ٤٣ والموجود ٣٩ .

١٩ — قرويت نمرة ٤ ، وأصل طاقمه ٤٣ والموجود ٥٧ !

٢٠ — قرويت نمرة ٣ وأصل طاقمه ٤٧ والموجود ٣٦ .

٢١ — قرويت نمرة ٢ وأصل طاقمه ٤٣ والموجود ٢٦ .

٢٢ — أبريك نمرة ١ ، وطاقمه ٤٣ والموجود ٤٩ !.

٢٣ — رزخ نمرة ١ ، وطاقمه ١٨ والموجود ١٤٥ !!

٢٤ — رزخ نمرة ٢ وطاقمه ١٧ والموجود ٦٨ !.

٢٥ — الفلايك المعدية ، وقوتها ٦٨ والموجود ٧١ .

رابعا — الأسلحة والذخائر :

يتضح من الوثيقة أن مخازن المهمات والأدوات الحربية كانت موجودة بقصر النيل ، أما مخازن الأسلحة فكانت فى القلعة وفى الحوض المرصود. وتشرح الوثيقة حالة هذه الأسلحة ، فتذكر أنه كان هناك ١١٧ مدفعا بورش مخزن الطوبخانة الموجود بورش ومخازن الطوبخانة بالقلعة ، منها مدافع جبلية ، وعيارات وأنواع مختلفة ، فضلا عن ست مدافع ببلوك الصنايعية بالحوض المرصود . وكان هناك ١٨٤ر٣٠ بندقية فرنسية وانجليزية الصنع ، و ٢٠٧١ قرابينة ، و٤٤٧ قرابينة فرنسية بستة أرواح ، و١٦٨ طبنجة فرنساوى بستة أرواح ، و٢٨٣٣ طبنجة انجليزى بستة أرواح ، و٦٣٦١ طبنجة زرخلى ، وخلافه . كما كان هناك ١٥٢٤٦ سيفا من مختلف الأنواع .

أما المدافع الموجودة فى الالايين الساحليين فقد بلغت ٦٦٤ مدفعا ، و٨٩ هوانات (هاون) لا بأس من ذكر انواعها وعدد الموجود من كل منها على النحو الآتى :

١٠ مدافع عيار ٩٥
١١٠ مدافع عيار ٣٢
٣١ مدافع عيار ٢٢
١٠ مدافع عيار ١٦
٣٨٥ مدفعا عيار ١٢
١١ مدفعا عيار ٩
٢٤ مدفعا ششخانة عيار ٨ و ٩
١٥ مدفعا عيار ٥
٢ مدفع عيار ٤
٤ مدافع عيار ٣
٤ مدافع عيار ٢
٢ مدفع عيار ١
٢ مدفع بدون عيار شرك كبير
٢ مدفع بدون عيار شرك صغير
١ مدفع نحاس عيار ١٢ محاصرة
٣ مدفع نحاس عيار ٧
٢ مدفع قبوس عيار ٧ نحاس مصرى
٣ مدفع قبوس مدفع بلبل عيار ٥
١٧ مدفع جبلى نحاس واسع العيار — ١
١ مدفع أوردى نحاس عيار — ١
٣ مدفع نحاس عيار — ١

أما الهاونات فهى على النحو الآتى :

١ هاون عيار ١٢٠
٣٤ هاون عيار ٦٥
١٣ هاون عيار ٣٦
٢٢ هاون عيار ٣٢

٣ هاون عيار ٢٢
٢ هاون عيار ٢٠
٢ هاون عيار ١٤
١ هاون عيار ١٢
١ هاون نحاس عيار ١٢

خامسا ــ خيول آلايات الطوبجية والسوارى والهجن :

تقسم الوثيقة الخيول المستخدمة فى الجيش المصرى الى نوعين :
خيول وبغال أفرنكى ، وكان عدد الموجود منها ٣٧٣
وخيول وبغال بلدى ، وعدد الموجود منها ١٣٢٧
ثم الهجن (الجمال) وعددها ٢٥٠.

سادسا ــ قادة الجيش المصرى البرى والبحرى :

حددت الوثيقة قادة الجيش المصرى البرى والبحرى حسب فرقهم أو آلاياتهم ، وقسمتهم الى قسمين :

قوماندانات ولوا باشات ، وهم حملة رتب : لواء ، وفريق ، وقومندان ، ويحملون جميعا لقب « باشا » .

وميرالايات ، وهم حملة رتبة ميرالاى ، ويحملون لقب « بك » .
وهم على النحو الآتى :

١ ــ قومندانات ولوا باشات :

لوا سعادة على حمدى باشا ــ فرقة الطوبجية
فريق سعادة ابراهيم باشا ــ فرقة السوارى
فريق سعادة راشد حسنى باشا ــ فرقة البيادة الأولى غاردیا .
لوا سعادة راشد رأفت باشا ــ فرقة البيادة الأولى
لوا سعادة اسماعيل كامل باشا ــ فرقة البيادة الأولى
قومندان سعادة خسرو باشا ــ فرقة البيادة الثانية
لوا سعادة حسين عاصم باشا ــ فرقة البيادة الثانية
قومندان سعادة على غالب باشا ــ فرقة البيادة الثالثة

قومندان عمر حافظ باشا — فرقة البيادة الرابعة
لوا سعادة آدم باشا — فرقة السودان
مفتش سعادة افلاطون باشا — بلوكات الصنايعية .

٢ — ميرالايات :

ميرالاى أحمد ثابت بك ، آلاى الطوبجية الغارديا .
ميرالاى على رضا بك ، الآلاى الثانى طوبجية
ميرالاى حسين راغب بك ، الآلاى الأول سواحل
ميرالاى حسين بك مظهر ، الآلاى الثانى سواحل
ميرالاى محمد رضا بك الآلاى الأول سواردى غارديا
ميرالاى يوسف صديق بك ، الآلاى الثانى سوارى غارديا
ميرالاى يوسف صبرى بك ، الآلاى الأول سوارى
ميرالاى حسين فهمى بك ، الآلاى الثانى سوارى
ميرالاى عثمان رفقى بك ، الآلاى الثانى بيادة غارديا
ميرالاى محمد رؤف الآلاى الثالث بيـــادة غارديا
ميرالاى عثمان غالب بك ، الآلاى الخامس بيادة
ميرالاى داود بك ، الآلاى السادس بيادة
ميرالاى محمد خورشيد بك ، الآلاى السابع بيادة
ميرالاى نجم الدين بك ، الآلاى الثامن بيادة
ميرالاى خورشيد حسنى بك ، الآلاى التاسع بيادة
ميرالاى خورشيد عاكف بك ، الآلاى العاشر بيادة
ميرالاى خالد بك ، الآلاى الحادى عشر بيادة
ميرالاى محمد أمين بك ، الآلاى الثانى عشر بيادة
ميرالاى عثمان نجيب بك ، الآلاى الرابع عشر بيادة
ميرالاى حسين سرى بك ، الآلاى الخامس عشر بيادة
ميرالاى سليمان نيازى بك ، الآلاى السادس عشر بيادة
ميرالاى محمد مسعود بك ، الآلاى السابع عشر بيادة
ميرالاى احمد زهنى بك ، بلوك الجبهجية
ميرالاى الماس بك ، الآلاى الثانى بيادة سودان

٣ ـ قادة البحرية :

لوا سعادة قاسم باشا ـ وابور المحروسة
ميرالاى سرحان بك ـ وابور محمد على
ميرالاى فوزان بك ـ وابور الفيوم
ميرالاى رودسلى محمد بك ـ وابور مصر
قيمقام موسى بك ـ وابور الغربية
قيمقام سليمان بك ـ وابور لطيف
بكباشى على قبودان عمر ـ وابور الجعفرية
صاغقول على قبودان كوشره ـ وابور أسيوط
صاغقول ابراهيم قبودان ـ وابور مخبر
يوزباشى ثانى حسنين قبودان ـ وابور باركه
ملازم أول اسماعيل قبودان ـ رزخ نمرة ١
يوزباشى ثانى محمد قبودان ـ رزخ نمرة ٢
ملازم ابراهيم قبودان ـ وابور الحمدية
قيمقام مصطفى بك ـ وابور قاهرة
قيمقام ابراهيم بك عريكلى ـ وابور صاعقة
ميزو قرصان حسن قبودان عبادى برانى ـ قرويته نمرة ٧
ابراهيم قبودان صوان ـ قرويت نمرة ٦
كريدى محمد قبودان ـ قرويت نمرة ٥
حاجى محمد قبودان البدن ـ قرويته نمرة ٤
محمد قبودان على ـ قرويت نمرة ٣
حسن قبودان اسماعيل ـ قرويت نمرة ٢
مصطفى قبودان ـ ابريك نمرة ١
سوارى وباشيوغ جمالى بك ـ وابور شرحاد
بكباشى على قبودان شكرى ـ وابور كوفيت
بكباشى قاسم قبودان ـ وابور ابتاكه
صاغقول اغاسى باز على قبودان ـ وابور الخرطوم
صاغقول اغاسى عبد الله قبودان ـ وابور سنار
صاغقول اغاسى محمد قبودان الصيرفى ـ وابور دنقله
صاغقول اغاسى حسن قبودان ـ وابور شندى

ومن البيانات الاحصائية الهامة التى تكشفها الوثيقة أن عدد الفارين من الجيش المصرى فى ذلك الحين بلغ ٣٤٤ ، وعدد المرضى بالمستشفيات (اسبتاليه) ٣٥٠ ، وعدد المسموح لهم باجازة مرضية (تبـديل هواء) ١٦٣١ ، وعدد القائمين باجازات ١٧١ر١٨ ، وعـدد المسجونين بالليمان ١١٤ ، وعدد القائمين بمأموريات ٢٥١ ، وعدد (المتـأخرين بأجازات) ٥٥٩ ، ويبلغ عدد الغائبين للاسباب السابقة وغيرهـا ٣٨٤ر٢١ مقـابل ٩٩٦ر٢٠ للحاضرين ـ فكأن اكثر من نصف الجيش المصرى فى ذلك الوقت كان غائبا !.

أما جيش السودان ، فان الوضع فيه لا يقارن ، فلم يتجاوز عـدد الغائبين ٨٨ مقابل ٤٩٣٨ للحـاضرين ، منهم ٦٢ مرضى بالمستشفيات ، و٢٦ فرار . ولا اجازات ، ولا تبديل هواء ، ولا مأموريات أو ليمان !.. وليس لدى الباحث تفسير لهذه الظاهرة .

الحـــواشى

(١) أنظر لمزيد من المعلومات : عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا الكبير ، عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل، جزءان ، دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، ومع آخرين : بناء دولة ، مصر محمد على ، السياسة الداخلية ، وعبد العظيم رمضـــان : الجيش المصرى فى السياسة ، الأمير عمر طوسون : صـــفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على ، الجيش المصرى البرى والبحرى ، اسماعيــل سرهنك باشا : حاقئق الأخبــار عن دول البحار ، الجزء الثانى ،

Marlowe, John, Spoiling the Egyptians De Lesseps, Ferdinand, Lettres, Journal et documents Pour Servir à l'histoire du Canal de Suez.

(٢) المقصود بالتوابع : توابع الآلايات من الأطبـــاء والمرضـــين والسروجية والحدادين وغيرهم .

(٣) يعبر فى الوثيقة عن « الأول » و « الثانى » و « الثالث » .. الخ بـــ « اجى » ، « ٢جى » ، « ٣جى » .. الخ

(٤) لا يوجد بالجيش المصرى آلايا يحمل رقم ١٣ ، وانما يتم الانتقال من الآلاى الثانى عشر الى الرابع عشر . وليس لدينا تفســير لذلك الا مايحيط برقم ١٣ من شبهات التشاؤم !.

(٥) القرويت : مركب حـــربى يحمل من اثنين وعشرين مدفعـــا الى خمسة وأربعين مدفعا صـــغيرا وكبيرا ، ومن الجنـــود حوالى مائتين أو مائتين ونيفـــا .

(٦) الابريك أو الابريق : مركب حربى له صاريان مربعان ، ويحمل ثمانية عشر أو ستة عشر مدفعا صغيرا ، ومن الجنود حوالى مائة (أنظر عمر طوسون : صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على ، الجيش المصرى البرى والبحرى ص ٢٠٩ طبعة ١٩٤٠) .

(١) ملحق : الوثيقة مصورة

٥

العدالة والحرية عند جمال الدين الأفغانى

للدكتور عزت قرنى

أستاذ الفلسفة المساعد بكلية الآداب ــ جامعة عين شمس

مقـــــدمة :

ابحث ما شاء لك البحث ، فلن تجد شخصية أغرب من جمال الدين الأفغانى بين شخصيات العـــالم الاســـلامى الحديث . فهــذا الأفغانى المزعوم ، الايرانى حقا ، السنى على ما يعلن ، والشيعى فى أصـــله ، ترك موطنه ، وليكن مايكون ، وتقلب بين أراضى المشرقين ، متنقــلا بين ايران وأفغانستان ، ومنهما الى الهند الى مصر الى تركيــا ثم الى مصر مرة ثانية حيث عاش طويلا ، وهبت به العواصف فها هو يتقلب بين أراضى المغربين ، أياما فى باريس وحينا فى الروسيا ، ثم يعود الى فارس ، وأخيرا يراد له بالأمر السلطانى النافذ أن يستقر شبه سجين فى الآســـتانة ، ليموت فيها مسموما بحسب كل الظواهر . هذا الرجل الذى ترك فيمن اقتربوا منه أعظم الأثر ، كان يريد أن يكون رجل نظر ، « حكيما » من الحكماء العظام ، ولــكنه فى الواقع كان مشغولا بالعمل راغبا فى تغيير الواقع بكل الوسائل المتاحة له ، من تدبير الثورة الى التحريض عليهـــا الى الكتابة فى الصحف حتى الدردشة فى مقـــاهى مصر وتحت ســـماء الآســـتانة .

وقد بدأ الخلاف بشأنه فى عصره ومنذ أولى سنى نشاطه العلنى ، واتهم فى دينه وثارت حوله الشكوك واستمرت كذلك حتى سنى حيـــاته الأخيرة ، ســـواء كان ذلك كله فى الآستانة أم فى مصر القاهرة أم فى باريس أم فى الآستانة من جديد .

فقد زار عاصمة الدولة العثمانيـــة فى ١٨٧٠ ، « وحومت عليــه

لفضله قلوب الأمراء والوزراء وعلا ذكره بينهم » ، على ما يقول كتاب « تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده » ، وبعد ستة أشهر عين عضوا فى مجلس المعارف ، « واشار الى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه على الذهاب اليها رفقاؤه فى المجلس . ومن تلك الطرق ما أحفظ عليه قلب شيخ الاسلام لتلك الأوقات » . ثم حدث أن ألقى الأفغانى فى « دار الفنون » خطابا ، وجاء فيه تشبيه المعيشة الانسانية بجسد حى وأن كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن تؤدى من المنفعة فى المعيشة مايؤديه العضو فى البدن ، فشبه الملك مثلا بالمخ الذى هو مركز التدبير والادارة والارادة . ثم قال : « هذا ما يتألف منه جسم السعادة الانسانية ، ولاحياة لجسم الا بروح ، وروح هذا الجسم أما النبوة وأما الحكمة ، ولكن يفرق بينهما بأن النبوة منحة الهية لا تنالها يد الكاسب يختص الله بها من يشاء من عباده .. أما الحكمة فمما يكتسب بالفكر والنظر فى المعلومات ، وبأن النبى معصوم من الخطأ والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه » . هذا ما قاله الأفغانى ، « الا أن حسن أفندى فهمى (شيخ الاسلام فى الآستانة) ... أشاع أن الشيخ جمال الدين زعم أن النبوة صنعة ... ثم أوعز الى الوعاظ فى المساجد أن يذكروا ذلك محفوفا بالتفنيد والتنديد. فاهتم السيد جمال الدين للمدافعة عن نفسه واثبات براءته مما رمى به، ورأى أن ذلك لا يكون الا بمحاكمة شيخ الاسلام .. ولج فى طلب المخاصمة فعظم الأمر وآل الى صدور أمر الصدر الأعظم اليه بالجلاء عن الآستانة » (٢) .

أما فى مصر ، خلال اقامته الكبرى بها (١٨٧١ — ١٨٧٩) ،فقد اتهم مرة أخرى فى دينه و « تمكن الحاسدون ، على ما يقول الشيخ رشيد رضا ، من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة الى رأى هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامة » (٣) . كما أن سليم العنحورى ، وهو سورى مسيحى، تحدث عنه حديثا لمح فيه الشيخ محمد عبده أنه يتهم السيد بالالحاد، فطالبه ، فى بيروت خلال منفى الشيخ المصرى بها ، بأن يخطىء نفسه فى الجرائد ففعل ، وقال فى تصحيح نفسه : « ان المباحث التى كان يدور بها لسانه (أى جمال الدين) أثناء مناظراته الجدلية فى بيان عقائد المعطلين ، كان المراد فيها اظهار حقائق النحل والبدع بمعزل عن الاعتقاد

بها » (٤) . ومهما يكن من أمر فان هذا الحديث نفسه يدل على شكوك البعض في ايمان السيد جمال الدين .

وقد تشكك فيه أيضا الكاتب والمستشرق الفرنسى « رينان » ،فقال عن مقابلته له فى باريس فى مارس سنة ١٨٨٣ : « وقد خيل الى من حرية فكره ، ونبالة شيمه وصراحته ، وأنا أتحدث اليه ، اننى أرى وجها لوجه أحد من عرفتهم من القدماء ، وأننى أشهد ابن سينا أو ابن رشد، أو أحدا من أولئك الملحدين العظام ، الذين ظلوا يعملون خمسة قرون على تحرير الانسانية من الأسار » (٥) .

واختلفت الآراء فيه كذلك خلال مقامه الثانى والأخير فى الآستانة ، فيقول محمد باشا المخزومى محرر « خاطرات جمال الدين الأفغانى » : « كان مجلس جمال الدين يجمع أهل المذاهب المختلفة... ذلك ما حمل الكثيرين أن يذهبوا بالحكم على جمال الدين مذاهب شتى: تارة ينظرون اليه بنظرة مارق من الدين ، وطورا أنه دينى متعصب »(٦).

ويمكن لك أن تقول ان هناك جمال الدين كما هو فى ذاته ، أو فلتقل على « حقيقته » ، وان هناك أيضا « أسطورته » كما نشرها هو ببراعة عظمى واستخدم فى نشره لها عشرات من التلاميذ، وبعضهم كان كأنه شبه مسحور . أما حقيقته فقد ساهم فى الكشف عنها عدد من الوثائق الجديدة نشرت أخيرا فى طهران (٧) وتظهر على الأخص أصله الايرانى الشيعى ، وكذلك عدد من الدراسات النقدية (٨) التى خرجت عن صف المصفقين المرددين لأقوال السابقين ، والفاغرين افواههم سذاجة وتصديقا ، فحاولت رؤية ما بين السطور وتمحيص الشواهد على نحو أكثر عقلانية ، مستخدمة فى هذا منهجا نقديا لا يزيد عن ان يكون منهج العاقلين فى البحث التاريخى .

ومع ذلك فان جمال الدين الذى سنتابع أفكاره فى هذه الدراسة ليس السيد جمال الدين أسد أبادى ، بل السيد جمال الدين الأفغانى كما ظهر فى « أسطورته » ، التى استقرت خلال مقامه فى مصر وبانت ملامحها من أقوال تلامذته ومخالطيه ومريديه فى تلك الفترة ، ومن أهم هؤلاء محمد عبده وأديب اسحق وسليم العنحورى ، وكما ظهر من كتاباته فى

« العروة الوثقى » التى اصدرها مجلة أسبوعية فى باريس ، وصدر منها ثمانية عشر عددا ، ما بين مارس وأكتوبر سنة ١٨٨٤ بالتعاون الوثيق مع الشيخ محمد عبده ، وكما ظهر فى « رسالة الرد على الدهريين » التى كتبها بالفارسية ونقلها محمد عبده الى العربية متخذا وابسطة له الى الفارسية أحد أتباع جمال الدين أو خدمه ، عارف أبو تراب ، وكماظهر أخيرا وليس آخرا فى «خاطرات جمال الدين الأفغانى » التى جمعها ونشرها محمد باشا المخزومى ، وفيها على الأخص أقواله فى مجالسه فى الآستانة خلال اقامته الأخيرة بها (١٨٩٢ — ١٨٩٧) .

وسبب اهتمامنا بأسطورته وعدم تعرضنا لما ربما كان عليه فى حقيقته ، هو أن أسطورته تلك هى التى عرفه الناس من خلالها ، ولا يزال أكثرهم على هذا الحال حتى يومنا هذا فى البلاد الناطقة بالعربية ، وهى التى أثرت على من أثرت عليه وسيكون منهم رجال عظماء ، ويكفيك بمحمد عبده مثالا عليهم ، وهى التى جاءت أفكاره الاجتماعية والسياسية عن العدالة والحرية فى اطارها ، وهى أخيرا التى ساعدت على نشر تلك الأفكار : فخير لك فى عالم التعبير بالعربية أن تكون سنيا من أن تكون شيعيا ، حتى تجد متنفسا لأفكارك وحسن استقبال لها يزيد الف مرة عما لو كنت غير سنى . وهذا هو مافكر فيه ، فيما يبدو لنا ، جمال الدين الذى كان يريد التأثير ويريد انتشار أفكاره ويريد الفاعلية . فادعى الأفغانية وادعى السنية ونطق بالعربية ، فأصبح جزءا جوهريا من تراث الفكر الحديث المكتوب بتلك اللغة أو الناطق بها . ونشير أخيرا الى أننا لن نتناول الا مانسب اليه من أفكار ، أما أعماله فموضوع للتاريخ السياسى الحديث للبلاد الاسلامية وليس لتاريخ الأفكار الا حينما تلقى تلك الأعمال أضواء على ما نشر من تصورات وآراء .

الحرية

كل ما كتب بالعربية عن جمال الدين ، أو يكاد ، يمجده ويعظم فيه على الطريقة « الشرقية » التقليدية ، أى الى أبعد الحدود ، وبلا تحفظ ، والى حد الكمال ، وهذه ، كما لاحظ البعض بحق ، سمة سيطرة روح الاستعباد وقبول واقعة العبودية ، من حيث يدرى المرء أو لا يدرى . وقد نسبوا اليه أشياء كثيرة ، بعضها يكاد ضده أن يكون صحيحا قدر

صحته . ومن ذلك أنه « ابو القومية » ، وهو قول جزاف بل وتعارضه النصوص ، وأنه باعث روح التجديد الاسلامى ، وهـــو قول خاطىء اذا أخذ بحروفه ، وأنه مصدر الحركة التحررية فى مصر والتى انتهت بالثورة بالعرابية ، وهو لاسبيل الى البرهنة عليه ، بل ان هناك ما يؤكد أن دور الأفغانى ضئيل فى نهاية الأمر اذا أخذنا بالوقائع وتركنا الكلمات الرنانة والأقوال القاصرة ، ومنها أنه بطل الحرية الأكبر فى ميدان الدين والسياسة والاجتماع والفكر جميعا ، وسنرى مقدار قصور هذا الوصف عن الانطباق على واقع الحال ، خاصة اذا استخدمنا كلمـــة « الحرية » فى معنـــاها الدقيق .

والحق أن تمجيد الأفغانى والتفخيم فيه من هذه الناحيـــة يقوم على فهم سىء لمـــا تعنيه كلمات « الحرية » و « الحداثة » و « العقلانية » و «العلم» و «الثورة» وغير ذلك . ولننظر خاصـــة من زاوية «الحرية».

ان من يقول « الحرية » يقول فى نفس الآن بالتجديد وبالتفتح العقلى وبالانفتاح نحو المستقبل وبالابداع والاختراع . فماذا كان شأن الأفغانى من هذا كله؟ انه ليصعب أن يقال حرفيا انه كان يقف فى صف «التجديد». فاذا كان صحيحا أنه كان يريد تغيير الواقع الاسلامى فى أشكاله المختلفة، الا أن ما كان يريد أن يحل محل هذا الواقع المرفوض ليس شيئا «جديدا»، بل شىء « مما كان » بالفعل ، مما عرف المسلمون وخبروه ، وظهر لهم أنه صـــالح . واذا كان صحيحا أن جمال الدين كان أكثر معاصريه المسلمين من جيله تفتحا عقليا ، الا أنه من الدقيق أن نقول أنه كان متفتحا على هذا النحو فميا يخص الماضى لا فيما يخص المستقبل . ذلك أن الزمن الذى اهتم به الأفغانى أشد الاهتمام بل كل الاهتمام ، انما هو المـــاضى وليس المستقبل ، وقد صب نظرته المتفتحة بالفعل على « اعادة » النظر فى هذا الماضى وحسب ، وليس على تقديم رؤية جديدة للمستقبل . ولن يستطيع اى مؤرخ أن ينسج مما ينسب الى جمال الدين من اقوال تصورا واضحا من المستقبل الاسلامى أو مشروعا منسقا لبناء نظرى أو عملى أو كليهما. هـــذا بينما القول بالحرية يسـير معـــه فى نفس الخطوة الانتبـــاه نحو المستقبل أولا .

ولكن هذا ليس مما يشين جمال الدين ، لانه متســـق مع فـكرة أساسية عبر عنها ، أو استخدمها على الأقل ، وقد وجدت عند غيره من

عظماء المفكرين ، ومنهم أفلاطون مثلا ، الا وهى أن المستقبل انما قد حددته بالفعل صورته النموذجية فى نظام وقع فى الماضى ، ألا وهو النظام ، الفكرى والعملى ، الذى سار عليه « السلف الصالح » . وهذه النظرة لا تقل أهمية ، فى عرف مؤرخ الأفكار موضوعيا ، عن النظرة المقابلة التى تطرح الاهتمام بالماضى أو لا ترى فيه الا سلما للانطلاق نحو المستقبل .

ولكنك لا تستطيع أن تقول عن مفكر أنه يقول بالحرية ويقول فى نفس الوقت بالعودة الى الماضى كما كان ليكون من جديد . وتنتج عن هذا نتيجة هامة : وهى أنه لا مكان فى مثل هذا التصور السلفى لمفهوم « الابداع » أو « الاختراع » ، ويكفى دليلا استخدام كلمة « بدعة » ، فهى محض الرأى أو الفعل السىء ، لأنه تجديد واتيان بجديد . ولم الابتداع ، وقد قيل فى الماضى كل ما يمكن أن يقال وعلى أحسن نحو ، وقد عمل الأسبقون الصالحون على طريقة هى الكمال الانسانى بعينه؟ ليس علينا ، فى النظرة السلفية ، أن نبتدع ، بل أن « نتبع » ، لأن الماضى يحوى الصورة النموذجية الكاملة الثابتة لكل آن ، بما فى ذلك المستقبل ، وليس علينا فى وقت التدهور والانحطاط ، اى وقت الخروج عن جادة الطريق تلك ، الا أن ننبش عن الماضى الحق وأن نعيد اليه لمعانه وأن نعاود السير عليه من جديد ، وسيكون هذا هو كل نصيب « التجديد » فى التصور السلفى : أن « تعود » الى ماض انحرف عن طريقه أهل العصر .

الأفغانى والمذهب السلفى :

ولنترك هذه التنظيرات ، ولننظر الى الوقائع ذاتها ، والوقائع هنا أقوال ونصوص . فما هى القضية الكبرى التى أراد جمال الدين الأفغانى ، مفكرا اسلاميا ، اقناع الناس بها ؟ انها لا شىء ان لم تكن ضرورة العودة الى التراث المبجل ، تراث الصالحين الأوائل ، لأن كل الشرور والمفاسد التى أصابت الأمة الأسلامية انما نتجت عن ضد هذا مباشرة : عن الابتعاد عن طريق السلف الصالح .

فتقول « العروة الوثقى » : « المسلمون بعد أن نالوا فى نشأة دينهم ما نالوا ، واخذوا من كل كمال حربى حظا . . ظهر فيهم أنوامبلباس

الدين وأبدعوا فيــه ، وخلطوا بأصوله ما ليس منهـــا ، فانتشرت بينهم قواعد الجبر ... وحصل النقص فى التعليم والتقصير فى ارشاد الكافة الى أصـــول دينهم الحقة ومبانيه الثابتة التى دعا اليها النبى وأصحابه. وحيث أن الدين الحق هو أول صيغة صبغ الله بها نفوسهم ، ولا يزال وميض برقه يلوح فى أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة ... فاننا لانرتاب فى عودتهم الى مثل نشأتهم ، ونهوضـــهم الى مقاضـــاة الزمان ما سلب منهم ... » (٩) .

وتقول عن العلاج لأمراض الأمة الاسلامية : « فعـــلاجها انما يكون برجوعها الى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان فى بدايته ،وارشاد العـــامة بمواعظه الواقيـــة بتطهير القلوب وتهذيب الأخـــلاق ... ولأن جرثومة الدين متأصلة فى النفوس بالوراثة ... فلا يحتاج القائم باحياء الأمة الا الى نفخة واحدة .. ومن طلب اصلاح أمة شأنها ما ذكرنابوسيلة غير هذه ، فقد ركب بها شططا ... » (١٠) .

ولا يقتصر الأمر على ضرورةالرجوع الى التراث من الناحية الفكرية، بل وكذلك من الناحيتين الأخلاقية والسياسية . واذا كانت الحقيقة واحدة لا تتغير ، فان نموذج النجاح الاجتماعى واحد هو الآخر ، وقانونه الذى لا تبديل فيـــه هو الذى منح الأمة الاسلامية فى عصرها الأول منعة وعزة ومجدا : « أن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان حتى يغير أولئك القوم ما بأنفســهم ، من نور العقل وصحة الفكر واشراف البصيرة ، والاعتبـــار بأفعال الله فى الأمم السابقة والتـــدبر فى أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا ... لعـــدولهم عن سنة العدل ... حادوا عن الاستقامة فى العمل والصدق فى القول والسلامة فى الصــــدد والعفــة عن الشهوات والحمية على الحق والقيام بنصره والتعاون على حمايته .

« تركوا الحق ولم يجمعوا همهم على أعلاء كلمته ، واتبعوا الأهواء البـــاطلة ... خارت عزائمهم فشحوا ببـــذل مهجهم فى حفـــظ السنن العـــادلة ، واختاروا الحياة فى البـــاطل على الموت فى نصرة الحـــق ، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين . هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها فى التحلى بالفضـــائل التى أشرنا اليها وجعل هلاكها ودمارهافى

التخلى عنها ، سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الامم ولا تتبدل بتبدل الأجيال » (١١) .

معانى الحرية :

هذا هو الموقف الأساسى لجمال الدين الأفغانى . فأين سيكون مكان الحرية فى اطاره ؟ من الصحيح أن الأفغانى يتكلم أحيانا عن الحرية الشخصية (١٢) ، ولكنها فى العادة ليست الا حرية الحركة أو محض الحركة الجسمية ، وهى لا تذكر الا فى اطار انتقاده لسياسة الانجليز فى مصر بعد الاحتلال .

وعلى العكس من ذلك ، فان الواقع أن الأفغانى يستخدم كلمة « الحرية » أحيانا على أنها مقابل « السلوك على الطريقة الأوربية » ، بالمعنى السىء لهذا التعبير ، وذلك فى سياق سلبى يحمل على ادانتها . تقول ترجمة « الرد على الدهريين » مثلا : « الا أن قبيلا من هذه الطائفة (أى الدهريين) عملوا على اخفاء مقصدهم الأصلى وهو الاباحة والاشتراك . واكتفوا فى ظاهر الأمر بانكار الألوهية وجحود يوم الدين يوم العرض والجزاء ، وقد يظن بعض ضعفة العقول أن فى ذلك بسطة الفكر وسعة الحرية ... » (١٣) . وتقول « العروة الوثقى » : « ولو أن حاكما صغيرا بين قوم مسلمين من أى جنس كان تبع الأوامر الالهية وثابر على رعايتها وأخذ الدهماء بحدودها وضرب بسهمه مع المحكومين فى الخضوع لها وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة ، لأمكنه أن يحوز بسطة فى الملك وعظمة فى السلطان ، وأن ينال الغاية من رفعة الشأن فى الاقطار المعمورة بأرباب هذا الدين ، ولا يتجشم فى ذلك أتعابا ولا يحتاج الى بذل النفقات ولا تكثير الجيوش ولا مظاهرة الدول العظيمة ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية ... ويستغنى عن كل ذلك بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع الى الأصول الأولى فى الديانة الاسلامية » (١٤) .

كذلك فان « العروة الوثقى » تهاجم المدارس التى شيدت على النمط الجديد والبعثات التى أرسلها المصريون والعثمانيون الى أوربا ، وتقول عن هؤلاء الذين درسوا على الطريقة الجديدة انهم لم ينفعوا بلادهم بشىء ولا انقذوها من الفقر أو الاعتداء ولا « وجدت فيهم قلوب مازجتها

روح الحياة الوطنية » ، ثم تستطرد الجريدة : « نعم ، وبما وجدبينهم أفراد يتفيقهون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ، وسموا أنفسهم زعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب مايختارون ووقفوا عند هذا الحد » (١٥) وهكذا فان « الحرية » فى كل هذه المواقع شيء أقرب الى المفهوم السيء ، أو على الأقل ان اطارها اطار غير محمود .

الحرية القومية :

والواقع أن الحرية التى كان يقصدها جمال الدين عادة ، حين يستخدم هذه الكلمة ، لم تكن الحرية الشخصية ، بل الحرية «القومية» أى الاستقلال الوطنى ، سواء كان ذلك بازاء المستبدين الشرقيين فى داخل الوطن أو بازاء الاستعمار الأوربى . يقول فى واحد من أوضح أقواله بشأن الحرية : « اذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب ، فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال لأن الحرية الحقيقية لايهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر ، والاستقلال كذلك . بل هاتان النعمتان انما حصلت عليهما الأمم أخذا بقوة واقتدار » (١٦) . ونراه هكذا يقرن الحرية والاستقلال وكأنهما شيء واحد أو شيئان مرتبطان جوهريا على الأقل . ولكن لننظر من جديد نى هذا النص الأخير لنتبين منه طبيعة هذه الحرية التى يتحدث عنها ، وسيظهر لنا عند اعادة النظر فيه انه لايقصد بها شيئا أكثر من الشجاعة الأدبية باعتبارها ركنا من أركان السلوك السياسى ، والتى تسمح للمرء وتدفعه الى أن يقول الحقيقة ، أو أن يعلن رأيه ، بلا خوف ولا خشية من السلطات القائمة .

ويبدو أن هذا التصور هو الذى يقف وراء تمجيده لفضائل العرب فى أيام الاسلام الأولى : « وفود العرب حملت معها (من شبه الجزيرة) أخلاقا فاضلة ... مثل الأنفة من الكذب والوفاء بالعهد ومطلق العدل وكمال الحرية والمساواة الحقيقية بين الملك والسوقة » (١٧) . أو حينما يقول ان أسلوب الأوربيين الاستعماريين ، وهم بسبيل السيطرة على على مقادير الشرق ، يقوم بين ما يقوم عليه ، على « اقصاء كل وطنى حر يمكنه الجهر بمطالب وطنية » (١٨) . ويتضح هذا المعنى لكلمة الحرية ، بأنها الشجاعة الادبية ، من فقرة هامة من « العروة الوثقى »

تتحدث عن ضد الحرية : « ان المولعين بحب الحياة يقضونها من خوف الذل فى الذل ، ويعيشون من خوف العبودية فى العبودية ، ويتجرعون مرارات سكوات الموت فى كل لحظة خوفا من الموت ، لا الدين يسوقهم الى مرضاة الله ولا الحمية الوطنية تدفعهم الى ما به فخار بنى الانسان » (١٩) .

حقوق الأمة الاسلامية :

ويمكنك أن تقول ان « الحرية » التى يقصدها الأفغانى ربما كانت الترجمة العصرية للمفهوم الاسلامى الخاص « بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ، حين يعنى هذا التعبير المشاركة الايجابية للمؤمن فى شئون الأمة الاسلامية . فتقول « العروة الوثقى » مثلا : « ان الأمة التى ليس لها فى شئونها حل ولا عقد ، ولا تستشار فى مصالحها ، ولا اثر لارادتها فى منافعها العمومية ، وانما هى خاضعة لحاكم واحد ارادته قانون ومشيئته نظام ، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ، ولا ينضبط لها سير ، فتعتورها السعادة والشقاء ... ويتناوبها العز والذل ... فاذا كان حاكمها جاهلا سيء الطبع ... أسقط الأمة بتصرفه الى مهاوى الخسران ... وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر وجار فى سلطته عن جادة العدل ، وفتح ابوابا للعدوان ، فيتغلب القوى على حقوق الضعيف ، ويختل النظام ، وتفسد الأخلاق وتخفض الكلمة ويغلب اليأس ... عند ذلك ان كان فى الأمة رمق من الحياة وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيرا اجتمع أهل الراى وارباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة » (٢٠) .

وقد اهتم الأفغانى كثيرا بمفهوم « الأمة » الاسلامية هذا ، حتى أن احد اهدافه الكبرى كان اعادته من جديد الى الحياة ، من أجل موازنة الحكام المستبدين بالأمة ، واستثارة المسلمين من الهند الى الجزائر من اجل الوقوف صفا واحدا فى وجه الاستعمار الغربى ، مع ملاحظة أن هذا التصور يخدم مصالح جمال الدين بشخصه ، فمن السذاجة الا ننتبه الى انه كان يرى فى نفسه الزعيم الصالح لتلك الأمة الاسلامية وقد انبعثت موحدة من جديد ، اما فكرة القومية فستجعله محدودا بحدود

الأفغان أو فارس على أحسن تقدير ، بينما هو يريد لصوته أن يملأ الدنيا بأسرها . ومع ذلك فانه فى استخدامه لمفهوم الأمة ، يقصد به أحيانا مجموعة اسلامية محددة مثل مصر مثلا أو فارس (٢١) . وعلى أى حال فهاهو تصوره عنحقوق الأمة من الوجهة السياسية : « السلطة الزمنية بمليكها أو سلطانها ، انما استمدت قوتها من الأمة لأجل قمع أهل الشر وصيانة حقوق العامة والخاصة وتوفير الراحة للمجموع بالسهر على الأمن وتوزيع العدالة المطلقة ، الى آخر مافى الوازع والسلطان من المنافع العامة » (٢٢) . فالأمة هنا هى مصدر السلطات كما سيقال وهدف السلطة هو تحقيق « المنافع العامة » لمجموع الأمة ، وان كان القارىء سيلاحظ أن مفهومه هذا عن « المنافع العامة » سلبى جدا ومتأخر مثلا عن مفهوم رفاعة الطهطاوى الذى كان يرى ضرورة التنمية الاقتصادية كجزء من مفهوم « المنافع العامة » .

وهكذا فانه من الطبيعى أن يعتبر الأفغانى « رضاء الأمة » شرطا رئيسيا لقيام السلطة الزمنية ، فيقول : « الدين الاسلامى لم تكنأصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى الى عالم أعلى ، بل هى كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد وبيان الحقوق كليها وجزئيها وتحديد السلطة الوازعة التى تقوم بتنفيذ المشروعات وتعيين شروطها ، حتى لا يكون القابض على زمامها الا من أشد الناس خضوعا لها ، ولن ينالها بوراثة ولا امتياز فىجنس أو قبيلة أو قوة بدنية وثروة مالية ،وانما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعةوالقدرة على تنفيذها ورضاء الأمة . فيكون وازع المسلمين فى الحقيقة شريعتهم المقدسة الألهية التى لا تميز بين جنس وجنس واجتماع آراء الأمة »(٢٣) .

الاستبداد والشورى :

وقد كان جمال الدين اشد أهل عصره معارضة للاستبداد واكثرهم جسارة وافصاحا (٢٤) ، والاستبداد هو ضد رضاء الأمة ، لأنه حكمالفرد بدون اشتراكها ، ولأنه عند الأفغانى حكم الفرد الظالم المستقل . فما هو

بديل الاستبداد فى الشرق ؟ هل هو الحكم النيابى الدستورى ؟ هل هو الحكم الجمهورى ؟ يبدو أن لا هذا ولا ذاك .

أما أن البديل لا يمكن أن يكون الحكم الجمهورى ، فدليله هذا الموقف الصريح : يقول محرر « الخاطرات » بعد ذكر أن « جمال الدين كان محبا لمصر وللمصريين ، شديد الارتباط بهم » ، ان راى السيد كان أن مصر سوف تخلص لأهلها « اذا هم عملوا بالحزم وهيئوا ما يلزم من العزم ، وما يتطلبه حكم الذات من القوى ... لا تحى مصر ولا يحى الشرق بدوله واماراته الا اذا أتاح الله لكل مصر رجلا عادلا قويا يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان . لأن بالقوة المطلقة الاستبداد ، ولا عدل الا مع القوة المقيدة . وحكم مصر بأهلها انما أعنى به الاشتراك الأهلى بالحكم الدستورى الصحيح » (٢٥) .

ثم قال: « اذا صح أن من الأشياء ماليس يوهب، فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال . لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك المسيطر للامة عن طيب خاطر ، والاستقلال كذلك . بل هاتان النعمتان انما حصلت وتحصل عليها الأمم أخذا بقوة واقتدار ... أما تغيير شكل الحكم المطلق بالشكل النيابى الشورى ، فهو أيسر مطلبا وأقرب منالا ، اذ يكفى فيه أحيانا ارشاد الملك ونصحه من عقلاء مقربيه (٢٦) فيفعله ، ويشرك معه أمته ورعيته ، ويرى بعد التربة راحة وتضامنا على سلامة ملكه .. فيكون للملك الدستورى عظمة الملك ... وهذا الشكل (الملك الشورى) هو الحكم الذى يصلح لمصر ولدول وامارات الاسلام فى الشرق . وبتوضيح وافصاح : لا يسلم على الغالب الشكل الدستورى الصحيح مع ملك ذاق لذة التفرد بالسلطان ، ويعظم عليه الأمر كلما صادمه مجلس الأمة بارادته أو غلبه على هواه . لذلك قلت : « اذا أتاح الله رجلا قويا عادلا لمصر وللشرق ، يحكمه بأهله » ، ذلك الرجل اما أن يكون موجودا أو تأتى به الأمة ، فتملكه على شرط الامانة والخضوع لنظامها الأساسى وتتوجه على هذا القسم .. أما الحكم الجمهورى فلا يصح للشرق اليوم ولا لأهله »(٢٧)

هذا عن البديل الأول للاستبداد ، وهو الحكم الجمهورى . فماذا عن البديل الثانى ، الحكم النيابى الدستورى الذى ورد ذكره فى هذا

النص ذاته ؟ لنذكر أولا أن الأفغانى كان متعلقا بالفعل بفكرة الدستور ، ولنذكر ثانيا أنه رأى فيها المقابل الأوربى لفكرة الشورى ، ولنذكر ثالثا أنه وقف مع ذلك موقفا متحفظا جدا من فكرة المجالس النيابية ، ولنذكر رابعا أن الحل عنده انما هو « المستبد العادل » الذى « يحكم الشرق بأهله »، وهذه هى الشورى عند الأفغانى . ولنفصل فى كل هذا .

أما عن تعلق الأفغانى بفكرة الدستور ، فانه أمر ثابت ، وقد قدم هو نفسه مشروعا دستوريا لفارس ، « لتكون حكومة ملكية شورية،فما أتم قواعد الدستور الكلية ، وأطلع عليه الشاه ناصر الدين ، الا وأعظم الأمر ، اذ رأى أن حكمه سيكون مقيدا وأن أهل فارس سيكونون أوسع سلطة من الشاه بمجلسهم النيابى » . ولينظر القارىء فى بقية الحديث لأنه شديد الدلالة على مفاهيم حكام « الشرق » ،وعلى جسارة الأفغانى اللامتناهية . فيقول الشاه لجمال الدين : « أيصح أن أكون يا حضرة السيد ، وأنا ملك ملوك الفرس (شاهنشاه) كأحد أفراد الفلاحين ؟ فقال جمال الدين : اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك سيكونون بالحكم الدستوى أعظم وأنفذ وأثبت مما هم الآن . والفلاح والعامل والصانع فى المملكة يا حضرة الشاه أنفع من عظمتك ومن آرائك . واسمح لاخلاصى أن أؤديه صريحا قبل فوات وقته . لا شك يا عظمة الشاه انك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك ، ولكن هل رأيت ملكا عاش بدون أمة ورعية ؟ » ويقال ان الصدر الأعظم وشى بجمال الدين عند الشاه ، قائلا : « أن مايسنه جمال الدين من القوانين ، لا يفيد البلاد شيئا ، ولكنه ينزع سلطان الشاه منه ، ويعطيه الى السوقة والفلاحين » (٢٨) .

كذلك فان الأفغانى قرب ما بين فكرة الدستور وفكرة الحكم بالشورى ، ولكن هذا عنده لا يخلو من تقلبات . فيذكر محرر « الخاطرات » ان جمال الدين قال مرة عن مقابلة له مع السلطان عبد الحميد : « رأيت من السلطان ارتياحا لقبول كل ما ذكرته له من محاسن الحكم الدستورى وأن الاسلام اول من عمل به فى سلطانه (أى الحكم الشورى) ، وذلك عملا بحكم النص : « وأمرهم شورى بينهم » (٢٩) .

فيظهر من هذا القول أن الشورى تعنى عنده الحكم الدستورى . ومع ذلك فان نفس الكتاب يذكر فى مكان آخر أن الأفغانى قال مرة : « ان تدبير الممالك ، وصونها من سلطان أو ملك يطغى بقوته بالحكمة وحسن الرأى ، وأصول الحكومة الشورية والمشاورة ودعوة الأمة للتداول ، وظائف الملوك ... كل ذلك مسطور فى القرآن ، فى سورة النمل بأصرح عبارة وبآيات وجيزة » (٣٠) . فالذى يظهر من هذا النص هن أن الشورى لا تعنى عند الأفغانى الا محض « المشاورة » أو المناصحة ، أى طلب الرأى لا اكثر وبلا الزام . ولكنا نرى الأفغانى فى سياق ثالث يستخدم كلمة « الشورى » استخداما يعود الى معنى « الحكم الدستورى » . ففى نفس الكتاب ذكر حوار بينه وبين الخديو توفيق ، يقول فيه هذا الأخير : « اننى أحب كل الخير للمصريين ويسرنى أن أرى بلادى وابناءها فى أعلى درجات الترقى والفلاح . ولكن مع الأسف اكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة ، فيلقون انفسهم والبلاد فى تهلكة » . وقد قال جمال الدين مجاوبا للخديو : « ليسمح لى سمو أمير البلاد أن اقول بحرية واخلاص ان الشعب المصرى كسائر الشعوب لايخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل . فبالنظر الذى تنظرون به الى الشعب المصرى ولأفراده ينظرون به لسموكم . وان قبلتم نصح هذا المخلص واسرعتم فى اشراك الأمة فى حكم البلاد على طريق الشورى ، فتأمرون باجراء انتخاب نواب عن الأمة ، تسن القوانين وتنفذ باسمكم وبارادتكم ، يكون ذلك اثبت لعرشكم وادوم أيضا لسلطانكم » (٣١) .

والحق أن موقف الأفغانى من النظام النيابى يشوبه بعض الغموض . فقد رأيناه فى النص السابق ينصح لتوفيق اقامة انتخابات يختار الأهالى فيها نوابهم . ومع ذلك ، فان محرر « الخاطرات » يذكر بعد صفحة واحدة فى كتابه أقوالا تختلف فى مضمونها تمام الاختلاف وتخص رأى الأفغانى فى مجلس النواب . ونأتى هنا بذلك النص الهام الذى يوضح ليس فقط موقف الأفغانى تجاه النظام البرلمانى بل وكذلك آراء له شديدة النفاذ حول الطبيعة الانتهازية « لنواب » الأمة وممثليها ، فى عصره بطبيعة الحال ، وربما بعد عصره كذلك . يقول وكأنه يقرأ الحاضر

والمستقبل فى كتاب مفتوح : « سترون عما قريب اذا تشكل المجلس النيابى المصرى ، سيكون ولا شك بهيكله الظاهرى مشابها للمجالس النيابية الأوربية ، بمعنى أن أقل ما سيوجد فيه من الأحزاب حزب للشمال وحزب لليمين ، ولسوف ترون اذا تشكل مجلسكم أن حزب الشمال لا أثر له فى ذلك المجلس ، لأن أقل مبادئه أن يكون معارضا للحكومة، وحزب اليمين أن يكون من أعوانها ... ولكن متى رأيتم المجلس النيابى الموهوم تشكل ورأيتم كل عضو يفر من أن يكون فى حزب الشمال ... فراره من الأسد الى حزب اليمين . فمقدمات مجلس نيابى قوته المحدثة له خارجة عن محيط الأمة ، والمحدث له قوة خارجة عن الأمة ومجلسها يعارضها ، منافع متضادة وهدفان مختلفان (٣٢) ، فمثل هذا المجلس لا قيمة له ... نائبكم سيكون على مقتضى ما مر من مهيئات مصركم فى زمانكم : هو ذلك الوجيه الذى امتص مال الفلاح بكل مساعيه ، ذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكام الذين هم أسقط منه همة ، ذلك الرجل الذى لا يعرف لايراد الحجة تجاه الحاكم الظالم معنى ، ولو كانت من الحجج الساطعة ، ذلك الرجل الذى يرى فى ارادة القوة الجائرة كل خير وحكمة ، ويرى فى كل دفاع عن وطنه ومناقشته للحساب قلة أدب وسوء تدبير وعدم حنكة وتهور ، وبالتالى يرى أن كل صفات العزة النفسية والمقومات الأهلية القومية مآلها الويل والثبور ، وكل مايدعو الى الذل واحتقار القومية وسحق ما تنمو به حرية الأمة هو من مجالى حكمته العصرية ... فعدم مثل هذا المجلس خير من وجوده » (٣٣) .

ويدل على أن هذا الكلام يعبر عن جوهر موقف الأفغانى أنه يتفق مع تشاؤمه أمام نظام الأحزاب الذى عبر عنه نص آخر من « الخاطرات » ومع رأيه فى أن ما يحتاج الشرق اليه انما هو « المستبد العادل » .

أما رأيه فى نظام الأحزاب فها هو : « الأمة تتخيل من وراء وعود الحزب سعادة ورفاهية وحرية واستقلالا ومساواة ، على أوسع شكل، قد لا يمكن حصوله فى البعيد الآجل فضلا عن القريب العاجل . فيؤازرون الحزب بكل معانى الطاعة والانقياد والنصرة والتضحية .. الخ . فاذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة واستحكم له الأمر ، ظهرت

هنالك فى رؤساء الأحزاب الاثرة والأنانية .. الخ » (٣٤) . ومع ذلك فانه يتراجع بعض الشيء ويضيف قائلا : « لا ينبغى أن يؤخذ من قولى هذا أن لا فائدة من الأحزاب على مطلق الرأى والمعنى ، فان الشرق بعد أن مرت عليه زلازل العسف والجور وأشكال الاستعباد ، حتى تأصل فى نفوس أبنائه بذور الذل والاستكانة لكل قوى اكتسح بلاده ، ان هذا الشرق وهذا الشرقى لا يلبث طويلا حتى يهب يوما من رقاده ... فيأخذ فى اعداد عدة الأمم الطالبة لاستقلالها المستنكرة لاستعبادها . على هذا الأساس الاجتماعى التدريجى ، لا مانع يمنع الشرقى من الانخراط فى الحزب ، ويقبل من المواعيد ما يصدق وما لا يصدق ، حتى يظهر فى الشرق ما ظهر فى الغرب من افراد يرون الموت فى الحياة لأوطانهم مغنما ... حينئذ يكون الشرق قد تسنى له وجود الحزب الذى هو نعم الدواء من داء استعباده ، فيجمع شتات أبنائه ... يعملون متضامنين على صالح مجموعهم ونصرة مظلومهم ويأخذون ما لهم من حق ويؤدون ما عليهم من واجب وهم لا يحزنون » (٣٥) .

والواقع أن الحل الحقيقى الذى ارتآه جمال الدين الأفغانى لمشكلات الشرق انما هو حل « المستبد العادل » الذى يحكم بالشورى . ففى « العروة الوثقى » يرد على القائلين بأن طريق الشرق الى القوة انما هو نشر المعارف بين جميع الأفراد وأنه « متى عمت المعارف كملت الأخلاق واتحدت الكلمة واجتمعت القوة » ، يقول ردا على هؤلاء : « وما أبعد ما يظنون ، فان هذا العمل العظيم ، انما يقوم به سلطان قوى قاهر يحمل الأمة على ماتكره أزمانا ، حتى تذوق لذته وتجنى ثمرته ... » (٣٦) ، كذلك فقد مر بنا قوله الذى أتى به كتاب «الخاطرات»، من انه : « لا تحيى مصر ولا يحيى الشرق بدوله واماراته الا اذا أتاح الله لكل منهم رجلا قويا عادلا يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان » . ومما يدل على أن الدور الرئيسى سيظل يلعبه الحاكم قول « الخاطرات » : « عرف جمال الدين بغرضه وسعيه الحثيث لجمع شتات اهل الشرق وايقاظ الهمم من اهله ، والاشراف بهم على الخطر الغربى المحدق بكيانهم والآخذ بخناقهم ليعملوا على جمع كلمتهم ، ويأخذ كل ملك أو أمير فى الشرق على ترقية شعبه وتحسين ملكه ، وتحصينه بالحكم

الشورى الدستورى ، وتمكينه لما يربط الأقرب فالأقرب، ويقويه بالتحالف والاتحاد ، حتى يرجع الكل الى الانضواء تحت راية الخلافة العظمى ».

ومع كل ذلك ، وهنا أيضا ، يعود الأفغانى ويتنصل من فكرة « المستبد العادل » .فيقول محرر « الخاطرات » ان مريدى السيدسألوه: « ان المتبداول بين الناس على لسانك : « يحتاج الشرق الى مستبد عادل » ، فأجابهم : « هذا من قبيل جمع الأضداد . وكيف يجتمع العدل والاستبداد ؟ وخير صفات الحاكم القوة والعدل ، ولا خير بالضعيف العادل ، كما أنه لاخير فى القوى الظالم » (٣٧). والذى يهمنا نحن شيئان : الأول أن المتداول بين الناس كان بالفعل ذلك ، والثانى أن منطق المذهب أقوى من كل التراجمات اللفظية ، ومنطق المذهب واضح من كل النصوص التى أثبتناها منذ قليل .

الحل الأخلاقى :

ونستطيع أن نخرج من كل ما سبق أن حل مشكلات الشرق ومصائبه، وخاصة روح التواكل وعادة تقبل الاستعباد ، لا يمكن أن يكون حلا تربويا بالتعليم ، ولن يكون حلا سياسيا ، ولن يكون على الأخص اصلاحا دستوريا يعدل من النظم القائمة ، ويقوم الشرقيون بنسخه عن أوربا . فأين الحل اذن ؟ يبدو أنه يقوم عنده فى الاصلاح الأخلاقى أولا ، وجوهر هذا الاصلاح ووسيلته هو الرجوع الى مثل عليا وفضائل سار عليها وتحلى بها السلف الصالح وأشارت بها الشريعة الحنيفة .

وهكذا ستكون الحرية حرفيا ألا يخشى المؤمن فى الحق لومة لائم، ولديه من الأمثلة عند السلف الصالح الكثير . وبهذا يفسر تأكيد الأفغانى على رذيلة عظمى فى رأيه ، هى رذيلة الجبن ، التى تخصص لها العروة الوثقى مقالة طويلة بأكملها ، وذلك فى عددها الأخير الذى بعده اختفت عن الصدور .

ومن جهة أخرى فان الأفغانى يرى وجود صلة وثيقة بين الجبن والوهم : « الوهم روح خبيث يلابس النفس مولودا فأبوه الجبن ومربيه ومنشؤه الجبن » . وهو « حجاب الحقيقية وغشاء على عين البصيرة..

وله سلطان على الارادة وحكم على العزيمة ، فهو مجلبة الشر ومبعد الخير » (٣٨) .

والواقع انه يمكن أن يلخص نداء الأفغانى نحو الحرية فى هذه الصيحة الشعرية ، التى هى فى آن واحد دعوة الى الشجاعة وتحريض على التمرد :

عش عزيزا أو مت وأنت كريم   بين طعن القنا وخفق البنود(٣٩)

ولقد كانت حياة الأفغانى كلها مثالا حيا على الشجاعة وعلى التمرد ، وربما كان هذا أهم مشاركاته الحقيقية ومصدر تأثيره على معاصريه . ومن أقوى المواقف الدالة على شجاعته التى لا مثيل لها فى عصره أنه دخل على السلطان عبد الحميد فى فترة اقامته الأخيرة فى الاستانة وقال له : « أتيت لاستميح جلالتك أن تقيلنى من بيعتى لك ، لأنى رجعت عنها ... نعم بايعتك بالخلافة ، والخليفة لا يصح أن يكون غير صادق الوعد . بيد جلالتك الحل والعقد ، وبامكانك الا تعد ، واذا وعدت وجب عليك الوفاء . وقد رجوتك بالأمر الفلانى ووعدت بأنك تمضيه ولم تفعل » ، فهدأ السلطان بعد أن انتفض بشدة عند سماعه الكلمات الأولى ، وأصدر أمره بما كان يطلب جمال الدين (٤٠) . ويقول الأفغانى عن نفسه : « أننى استطعت فى حياتى أن قلت الحق ولم أكتمه ، لا رغبة ولا رهبة ، بل جاهرت به ، وانى بلغت من الشجاعة مرتبة قلت معها بعض ما أقول » (٤١) . بل لقد كان يرغب فى الشهادة : « أنا عن نفسى غير راض ، ذلك لأن الخمول قعد بى ، فلم يوصلنى الى أسمى مرتبة ، وهى مرتبة الشهادة » (٤٢) ، ونضيف نحن انها أعلى مراتب الشجاعة .

ولم تكن شجاعته شجاعة سياسية فقط ، بل كانت كذلك ، وربما فى المحل الأول ، شجاعة عقلية . ولا يمكنك الا أن تحس بلهجة شخصية حين تراه يتحدث عن الحقيقة التى لا تسكن أحيانا معسكر الكثرة بينما يكون هناك أفراد برؤوسهم تحط فيهم الحقيقة ويدافعون عنها حتى ولو كان الثمن هو أعظم الآلام ، وحين تراه يتحدث كذلك عن « التقليد الأعمى بدون حجة ولا برهان » (٤٣) للتقاليد المتوارثة . ولقد كان الافغانى واحدا من أوائل من حرضوا المسلمين على ممارسة حق الاجتهاد ، وقصد

يكون أعظمهم جميعا وان لم يكن أولهم بالاطلاق . وتتميز ردوده على أهل التقليد بالصرامة والعنف ، على غير أسلوب الأكثرين غيره ممن دافعوا عن حق الاجتهاد قبله ، حيث فضلوا استخدام اللين ، واللجوء الى الاشارة بدل التصريح ، والاحتماء وراء بعض السلطات وممارسة أسلوب التقدم والتأخر ، أما هو فغير هذا تماما : يضع المبدأ ، وكأنه يعتبر أن محض وضع مبدأ الاجتهاد دليل أحقيته. وعلى الجماعة القائلة بأن طريق الاجتهاد لا يمكن سلوكه بسبب صعوبة توفر شروطه ، يرد الأفغاني : « ما معنى أن باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأى نص سد باب الاجتهاد ؟ أو أى امام قال لا ينبغى لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه بالدين ، أو أن يهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات الزمان وأحكامه ... فمن كان عالما باللسان العربى وعاقلا غير مجنون وعارفا بسيرة السلف ... الخ جاز له النظر فى أحكام القرآن وتمعنها والتدقيق فيها واستنباط الأحكام منها ومن صحيح الحديث والقياس ... نعم ان أولئك الفحول الأئمة (أبو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل) ورجال الأمة اجتهدوا وأحسنوا ... ولكن لا يصح أن تعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ... » (٤٤) .

وهو ينادى باللجوء الى التأويل حين يبدو القرآن الحكيم متعارضا مع نتائج العلم الحديث ، أى العلم الأوربى : « عم الجهل وتفشى الجمود فى كثير من المتردين برداء العلماء حتى تخرصوا على القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة ، والقرآن برىء مما يقولون ... فاذا لم نر فى القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات ، اكتفينا بما جاء فيه من الاشارة ، ورجعنا الى التأويل ... » (٤٥) .

وربما كان من الممكن أن نعود بهذه المواقف كلها الى أصل أبعد، يعد ضمن المشاركات الكبرى لجمال الدين الأفغانى فى تقدم الفكر الاسلامى الحديث ، ذلك هو اعادته تقييم دور العقل واعطائه من جديد سلطات قوية فى حياة الانسان . وقد رأى الأفغانى أن العقل سيصل يوما الى اكتشاف أسرار الطبيعة ، ولكن على شريطة تحريره من « قيود الجمود » التى قيدته لعصور طويلة ، هذا العقل الذى هو

أشرف مخلوقات الله : « ما خلق الله خلقا أشرف من العقل الذى وهبه لخليفته فى الأرض ، وهو الانسان » (٤٦) . ولا شك أنه ينبغى أن ننظر الى اعجابه « بالشجاعة الأدبيـــة » للدكتور شبلى شـــميل تحت هـذا الضوء (٤٧) ، وكذلك الحال الى اعجاب أرنست رينان الفرنسى بجمـال الدين نفسه .

العـــدالة

من السهل أن يدرك القارىء لآثار الأفغـانى أنه يتحدث عن العدالة أكثر بكثير مما يتحدث عن الحرية . وليس فى هذا مايدعو الى العجب ، فموضوع العــدل من الموضوعات الاسلامية التقليـدية ، خاصـــة وأن المؤلفين الاسلاميين رأوا جميعا فى « العـــدل أساسا للملك » . يقـــول الأفغانى : « العدل قوام الاجتماع الانسانى وبه حيـــاة الأمم ، وكل قوة لا تخضع للعدل فمصيرها الى الزوال » (٤٨) ، بعد أن كان قد قال مخاطبا المسلمين : « عليكم ... أن تخضعوا لسطوة العدل ، فالعدل أســـاس الـــكون وبه قوامه ، ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم ، وعليكم أن تتقوا الله وتلزموا أوامره فى حفظ الذمم ، ومعرفة الحقوق لأربابها ، وحسن المعاملة واحكام الألفة فى المنافع الوطنية ... » (٤٩) .

وينبغى أن يكون هدف السلطة الزمنية تحقيق « العدل المطلق »(٥٠) ذلك أن « السلطة الزمنية بمليكها أو سلطانها انما استمدت قوتها من الأمة لأجل قمع أهل الشر ، وصـــيانة حقوق العامة والخاصة ، وتوفير الراحة للمجموع بالسهر على الأمن وتوزيع العدالة المطلقة ، الى آخـــر ما فى الوازع والسلطان من المنافع العامة » (٥١) .

والدافع للسلطة الزمنية نحو تحقيق العدل هو فى المحل الأول طاعة الشريعة الاسلامية ، وطاعتها الشرط الأساسى لكل حكومة ، كما سبق ورأينـــا (٥٢) . ويقول الأفغانى : « كل فخار تكسبه الأنساب ، وكل امتياز تفيده الأحساب لم يجعل له الشارع أثرا فى وقاية الحقـــوق وحمـــاية الأرواح والأموال والأعراض ، بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة فهى ممقوتة على لسان الشارع ، والمعتمد عليها مذموم والمتعصب لهـــا

ملوم » (٥٣). ونلاحظ هنا أسس كون الأفغانى معارضا للحركات القومية، هــذا وعنــوان المقــالة التى تأتى فيهــا هذه الــكلمات هو « الجنسية والديانة الاسلامية » .

ويوضح الأفغانى مصدر وجوب الطاعة نحو السلطة الزمنية : فان النفوس اذا اعتمدت جميعا على « حاكم تتصاغر لديه القوى وتتضــاءل لعظمته القدرة وتخضع لسلطته النفوس بالطمح ، وتكون بالنسبة اليــه متساوية الأقدام ، وهو مبدأ الــكل وقهار السموات والأرض ، ثم يكون القــائم من قبله بتنفيذ أحكامه (أى الحاكم الأرضى) مساهما الكافة فى الاستكانة والرضوخ لأحكام أحكم الحاكمين ، فاذا أذعنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى ، وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه (وهو الحاكم الأرضى) لعامتهم فى التطامن لمــا أمر به ، اطمأنت فى حفظ الحق ودفع الشر الى صاحب هذه السلطة المقدسة (وهو الحاكم الأرضى أيضا) واستغنت عن عصبية الجنس لعــدم الحاجة اليها » (٥٤) . والقارىء المنتبه سيجد فى هذا وضعا جديدا لنظرية « الحكم الالهى » .

ولــكن ما هى على الدقة طبيعــة العدالة المطلوبة من الحكومة ؟ اذا تفحصنا النصوص الأفغانية عن قرب وجدنا أن فكرة جمال الدين عن تلك العــدالة لا تقل فقرا عن تصور النظرية السياسية التى أخذ بهــا حكام المسلمين فى هذا الجانب . فالعدل المطلوب ما هو فى النهــاية الا « نسف العدوان ورفع الظلم البين » ، وهذه هى وظيفة الحكومة (٥٥) ، وهو تصور سلبى كما هو واضح .

وقد نجد أحيانا تعبيرات فخمة كتلك التى سبق لنا رؤيتها من قبيل أن « العدل أساس الــكون وبه قوامه » (٥٦) ، وما شــابه ذلك ، ولــكن الواقع أن هذا كله لا يجاوز الحــدود الضيقة لتعبيير آخر ، الا وهــو « حفظ الحق ودفع الشر » (٥٧) ، وهو ما يعنى بعبارة أخرى المحافظة على الأوضاع القائمة كما هى . وصحيح أن هذه العدالة تحتوى ضــمنا على التحذير من ارتكاب الظلم ، ولكن ماذا ستكون اذن تلك « العدالة » التى ينسبها الســيد جمــال الدين الى الأتراك على مايقــول صــاحب «الخاطرات» : « التزم الأتراك والسلاطين العظــام منهم جانب الدين ، وكان على منصــة المشيخة الاســلامية علماء أعلام ... يصدر السلطان

وأكابر دولته عن رأيهم وينزل عن حكمهم ، فعـدلوا فى الرعيـة وأمنوا من دخل فى ذمتهم » (٥٨) ؟

والواقع أنه من المستحيل بالفعل ، أو يكاد ، أن تجد عند جمـال الدين الأفغـانى فكرة واضحة المعالم ومفصلة عن مضمون العدالة ، وذلك اكتفاء بتكرار « الكلمة » ذاتها ، وكأن محتواها ومعناها واضحين وضوح نور الشمس ، فلا حاجة بها الى تحديد ، وهو يشير مرات عديدة الى « ميزان عدل الله » (٥٩) ، والى القاعدة المشهورة الخاصة « بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » (٦٠) ، والى المساواة التى أكدت عليهـا الشريعة الاسلامية (٦١) ، والى « الاعتدال » باعتباره صنوا للعدل (٦٢)، والى « الأمن والراحة » باعتبارهمـا نتيجتين ضروريتين له (٦٣) ، والى نموذج « العدالة الشرعية » كما تجسد فى سيرة الخلفاء الراشدين(٦٤)، والى حب العدالة الذى كان عنـد « أجدادنا » بصـفة عامة (٦٥)، نعم تجد عند الأفغـانى كل هذه الاشارات ، ولـكنك اذا تمعنت فيها لتضع يدك على شىء صلد فلن تجد الا تعبيرات يدق أغلبها أجـراس الخطـابة و « الانشاء » ، كما سبق ورأينا من قبل فى نص أثبتناه (٦٦) .

ويبـدو أنه يحدد القول على نحو أكبر حين يحـاول تفسير الآية القرآنية الرئيسية فى هذا الصدد ، وهى « ان الله يأمـركم بالعـدل والاحسان » ، فيذهب الى أن معنى هذه الآية هو : « اعطـاء كل ذى حق حقه ووضع الأشياء فى مواضعها وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها مما يوجب صـيانة الملك وقوة السلطان ويشيد بنـاء السلطة ، ويحكم دعائم السطوة ، ويحفظ نظام الداخل من الخلل ويشـفى نفـوس الأمة من الملل . هـذا مما تحكم به بداهـة العقل ، وهو عنوان الحكمة التى قامت بها السموات والأرض وثبت بها نظام كل وجود وهو العـدل المـأمور به على لسـان الشرع فى قـوله « ان الله يأمركم بالعـدل والاحسان » (٦٧) ، ثم يضيف : « كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة فى كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناءه واضمحلاله ، كذلك الجور فى الجمعيات البشرية بسبب دمارها . لهذا حثت الأوامـر الالهيـة على العدل وكثر النهى فى الكتاب المجيد عن الظلم والجور . والحكام أول من توجه اليه الأوامر والنواهى فى هذا البـاب : العـدل

هو الحكمة التى امتن الله بها على عباده وقرنها بالخير الكثير ، فقال: « ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا » ، وهى مظهر من اجل مظاهر صفاته العلية ، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير » (٦٨)

ولكن مضمون هذا كله مضمون فقير ، فضلا عن طابعه الخطابى، حتى ان الافغانى وجد يوما انه يستطيع أن يضع تصوره عن العدالة فى كلمات اربع للخليفة عمر بن الخطاب : « نعم تسنى للفاروق ان يأتى على خير نتائج الأحكام وما ينتظره الناس على اختلاف طبقاتهم من عدل الحكام بأربعة كلمات حيث قال للمغيرة بن شعبة حينما ولاه : « يا مغيرة ، ليأمنك الأبرار وليخفك الأشرار » (٦٩) ، وهذا المعنى يعود الى أربعة اخر للأفغانى : « حفظ الحق ودفع الشر » ، وقد مرت علينا.

أما اذا أردنا انتباهنا الى مفهوم الأفغانى عن شروط الحاكم العادل وواجباته فسنجده اغنى شيئا ما من مفهومه عن العدالة ذاتها وأكثر تفصيلا . فالحاكم العادلينبغى أن يكون خاضعا للشريعة ،والا يتبع هواه، والا تكون بينه وبين المؤمنين فروق ، وأن تكون له ميزات خاصة عليهم ، وأن يتبع رأى العلماء العارفين بأحكام الشريعة (٧٠) . كذلك فان تصور الأفغانى عن مصالح الدولة وواجباتها كان تصورا واضحا بعض الشىء .

يقول فى « رسالة الرد على الدهريين » (٧١) : « الأمم فى رفاهتها والشعوب فى راحتها وانتظام أمر معيشتها محتاجة الى الحكومة بأى انواعها أما جمهورية أو ملكية مشروطة أو ملكية مقيدة والحكومة فى اى صورها لاتقوم الا برجال يلون ضروبا من الأعمال ، فمنهم حراس على حدود المملكة يحمونها من عدوان الأجانب عليها ويدافعون الوالج فى ثغورها وحفظة في داخل البلاد يأخذون على أيدى السفهاء ممن يهتك ستر الحياء ويميل الى الاعتداء من فتك أو سلب أو نحوهما ، ومنهم حملة الشرع وعرفاء القانون يجلسون على منصات الأحكام لفصل الخصومات والحكم فى المنازعات ومنهم أهل جباية الأموال يحصلون من الرعايا ما فرضت عليهم الحكومة من خراج مع مراعاة قانونها فى ذلك ثم يستحفظون ما يحصلون فى خزائن المملكة وهى خزائن الرعايا فى الحقيقة وان كانت مفاتيحها بأيدى خزنتها ومنهم من يتولى صرف هذه الأموال فى المنافع العامة للرعية مع مراعاة الاقتصاد والحكمة

كانشاء المدارس والمكاتب وتمهيد الطرق وبناء القناطر واقامة الجسور واعداد المستشفيات ويؤدى أرزاق سائر العاملين فى شؤون الحكومة من الحراس والحفظة وقضاة العدل وغيرهم حسبما عين لهم وهذه الطبقات من رجال الحكومة الوالين على أعمالها انما تؤدى كل طبقة منها عملها المنوط بها بحكم الأمانة فان خربت أمانة أولئك الرجال وهم أركان الدولة سقط بناء السلطة وسلب الأمن وزاحت الراحة من بين الرعايا كافة وضاعت حقوق المحكومين وفشا فيها القتل والتناهب ووعرت طرق التجارة وتفتحت عليهم أبواب الفقر والفاقة وخوت خزائن الحكومة وعيت على الدولة سبل النجاح » .

ولكن الأمور ليست بالبساطة التى قد تتبادر الى ذهن القارىء : فالأفغانى شخصية معقدة التركيب متعددة الجوانب ، واذا كنا قد ذكرنا فيما سبق من صحاب آراء الأفغانى العالم الدينى ، فان له آراء أخرى ومواقف بقدر مافيه من جوانب أو قل بقدر مافيه من « شخصيات ». فقد كان الى جانب المدافع عن آراء أهل السلف الصالح ، كان رجل عصره ، وهنا ستجده يتحدث حديثا مختلفا بعض الشىء عن ذلك الذى رأيناه من قبل .

انظر اليه مثلا وهو يتحدث باعتباره « ماسونيا » : « أول ماشوقنى فى بناية الأحرار (يقصد منظمة الماسونيين) عنوان كبير خطير : حرية ، مساواة ، أخاء ، غرض « منفعة الانسان ، سعى وراء دك صروح الظلم ، تشييد معالم العدل المطلق » ... هذا ما رضيته من الوصف للماسونية وارتضيته لها . ولكن مع الأسف أرى أن جرائيم الأثرة والأنانية وحب الرياسة ... » (٧٢) ، ويأخذ فى التعبير عن خيبة أمله مع من رأى من أعضاء التنظيم ، لأن تصوره عن الماسونية كان التالى : « اذا لم تدخل الماسونية فى سياسة الكون ، وفيها كل بناء حر ، واذا آلات البناء التى بيدها لم تستعمل لهدم القديم وتشييد معالم حرية صحيحة واخاء ومساواة ، وتدك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ... » (٧٣) .

وقد رأى فيه أتباعه حكيما اجتماعيا من « أعظم حكماء هذا العصر » (٧٤) ، فيما ظنوا ، والحق أن الأفغانى كان شديد الاهتمام بما

يمكن أن يسمى بالمشكلات الاجتماعية بوجه عام ؛ وله مواقف بشأن التربية والمراة وطبيعة العلاقات الاجتماعية . ولن نفصل القول فى هذا ، انما الذى يهمنا هنا هو أن العدل عنده ليس ضرورة سياسية وحسب ، بل كذلك، وربما أولا ، فضيلة أخلاقية .

وينظر الأفغانى الى الفضائل بعامة نظرة اجتماعية ، سواء على المستوى الفردى أو المستوى الجمعى : « الفضائل سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها ، كالسخاء والعفة والحياء ونحوها ... وعلى هذا النحو يكون الأمر فى الأشخاص الكثيرة ، فالفضائل هى مناط الوحدة بين الهيئة الاجتماعية وعروة الاتحاد بين الآحاد » (٧٥) ، وأين مكان العدل فى الفضائل ؟ « مجموع الفضائل هو العدل فى جميع الأعمال ، فاذا شمل طائفة من نوع الانسان وقف بكل من آحادها عند حده فى عمله لا يتجاوزه بما يمس حقا للآخر فيه ، فبه يكون التكافؤ والتآزر » (٧٦) . والفضائل التى تنتج هذا الأثر ، اى التآلف والاتحاد هى : « التعقل والتروى وانطلاق الفكر من قيود الأوهام والعفه والسخاء ، والقناعة والدماثة والوقار ، والتواضع وعظم الهمة ، والصبر والحلم والايثار ، والنجدة والسماحة والصدق والوفاء والأمانة ، وسلامة الصدر من الحقد والحسد ، والعفو والرفق والمروءة والحمية ، وحب العدالة والشفقة » (٧٧) . واكثر مايرتبط العدل بالشفقة وبالسلم والرحمة ، وهى من أصول الدين (٧٨) .

ومن اظهر المواقف التى اتخذها جمال الدين الأفغانى باعتباره « حكيما اجتماعيا » اكثر من حيث كونه مفكرا دينيا، الهجوم على استغلال الحكام فى شتى الممالك الاسلامية للضعفاء من الأهالى وظلمهم اياهم، وعلى اهمال الأغنياء القيام بواجباتهم بل ووقوفهم فى صف المعتدى الأجنبى حيث كانوا . وما من شك فى أن هذا الموقف هو اهم ما شارك به جمال الدين فى الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر وعلى الأخص ما بين عامى ١٨٧٧ و١٨٧٩ حين طرد من مصر (وقد دخلها مرة فى عام ١٨٦٩ وبقى فيها لمدة أسابيع ثم عاد اليها ليقيم فيها اقامته الثانية عام ١٨٧١ وهى التى امتدت حتى سنة ١٨٧٩) .

ويكفى هنا أن ينظر القارىء فى نص يروى عن خطبة للأفغانى فى المصريين كانت لاشك جديدة على مسامعهم لجرأتها البالغة : « انكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم بحجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط ، وأنتم فى غفلة معرضون ... تناوبتكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيون والمماليك والعلويين ، وكلهم يشق جلدكم بمبضع نهمه ، ويهيض عظامكم بأداة عسفه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة ، لا حس لكم ولا صوت. انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار ثيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم .. هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول ، عيشوا كباقى الأمم أحرارا سعداء ، أو موتوا مأجورين شهداء » (٧٩) .

وقد خطب جمال الدين مرة فى الاسكندرية ، وكان مما قال : « أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال ، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ » (٨٠) .

هل هذا نداء من اجل الثورة أم تحريض على التمرد ؟ فلنقل ، مستخدمين لغة اكثر تواضعا ، انه دعوة الى العصيان ، أو قل حتى انها دعوة الى الرفض ، وكل كلمة من هذه الكلمات أقل من سابقتها درجة فى الشمول والجذرية . وربما كان هذا فى نهاية الأمر متفقا مع نزعة الأفغانى المركزية ، وهى فى جوهرها نزعة محافظة فلم يكن يخطر بباله أن يدعو الى تغيير جذرى ، الى تغيير كل شىء ، بل كان كل مايشغله هو تغيير الاتجاه وحسب ، تغييرا يعود بالأمة الى طريق السلف الصالح. ومن هنا يتبين خطأ المفسرين ، وكذب بعضهم ، حين تحدثوا عن الأفغانى على انه داعية الثورة . وللبعض عذرهم ، فهناك عنده ماقد يدل على ذلك، ولكن هناك فرقا بين ثورة وثورة ، والثورة هى التغيير من الجذور .

وقد استمر على فضحه للقوى الاستغلالية فى مصر من خلال مقالات « العروة الوثقى » التى أصدرها فى باريس خلال سنة ١٨٨٤ بالتعاون الوثيق مع محمد عبده ، وهى المقالات التى الهبت صدور النـاس ، فى مصر وفى الشام وفى غيرهما من بلاد المسلمين . وقـد جاء فى العـدد الأول من الجريدة تحديد أهـدافها ومهنجها ، ويستدل منه أنهـا ربطت ربطا وثيقا بين الظلم الداخلى (ظلم الحكام والظلم الاجتماعى بأشـكاله ومصادره المتنوعة) وبين الظلم الخارجى (الغـزو الانجليزى ليس لمصر فقط ، بل وكذلك للسودان والهنـد ، وان كان اهتمام الجريدة بمصر يأتى فى الصـدارة الأولى) . تقول فى سطورها الأولى : « خفيت مـذاهب الطامعين أزمانا ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لا تنكرهـا الأنفس ثم التوت . أوغل الأقوياء من الأمم فى سيرهم بالضعفاء ... وبلغوا بهـم من الضيم حدا لا تحمله النفوس البشرية » (٨١) .

ثم تضيف المقـالة الأولى : « بلغ الاجحاف بالشرقيين غايته ،ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايته ، خصوصا فى المسلمين منهم . فمنهم ملوك أنزلوا عن عروشهم جورا وذوو حقوق فى الامرة حرموا حقوقهم ظلما ، وأعزاء باتوا أذلاء وأجلاء أصـبحوا حقراء واغنياء أمسوا فقراء ... وأسود تحولت نعاما . ولم تبق طبقة من الطبقات الا وقـد مسها الضرر من افراط الطامعين فى أطماعهم » (٨٢) .

وتهاجم « العروة الوثقى » ، كما أشرنا ، الجميع ، من الخـديو فى مصر الى الانجليز ، ومن الأغنيـاء الى كبار الموظفين ، « وقد يكون الحاكم فى خفى أمره رئيس السارقين » (٨٢) . أما عن الخـديو توفيق فتقول « العروة الوثقى » : « أبيضت عين الدهر وامتقع لون الزمن حتى ان بعضا من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصـبر ويضيق منهم الصـدر لجور حكامهم وخروجهم فى معـاملتهم على اصـول العـدالة الشرعية ، فيلجأون للدخول تحت سلطة أجنبية ... » (٨٤) . وعن الوزير الأرمنى نوبار باشا تقول « الخاطرات » استمرارا « للعروة الوثقى » : « فاذا رأيت مثلا نوبار باشا الأرمنى يعمل على نـكاية مصر وما يضـير المصريين ، وقـد تبوأ رياسـة النظار فيهم ، وليس بينه وبينهم اتـل

جامعة ، حتى انه لو باع مصر بابخس الأثمان فهو الرابح ، ولا يخسر فى هذا البيع ملة ولا وطنا ولا جنسا » (٨٥) .

أما كبار الموظفين فانهم عن المصلحة العامة لاهون ولا ينتبهون الا الى الحصول على فوائد ذاتية ، ولو بثمن الخيانة . فتقول « العروة الوثقى » عن « الشرف » : « كلمة يهتف بها أقوام مختلفة من الناس ، الا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون . فئة ترى الشرف فى تشييد القصور ، والتعالى فى البنيان وزخرفة الحوائط والجدران، ووفرة الخدم والحشم ، واقتناء الجياد ، وركوب العربات ، وفئة أخرى تتوهم أن الشرف فى لبس الفاخر من الثياب ... وفئة تتخيل الشرف فى الألقاب والرتب كالبيك والباشا ، أو فى الوسامات المعروفة بالنياشين ... حتى انك ترى الرجل يسلب مال أخيه ، وينهب ثروة أقاربه وذويه ، أو بنى ملته ومواطنيه ، ليشيد بما يصيب من السحت قصرا ، ويرفع بناء ويزخرف بيتا ، ويقيم له حراسا من المماليك ، وخفراء من الغلمان ، ويظن بذلك انه نال مجدا أبديا وفخارا سرمديا... ومنهم ثالث يسهر ليله ويقطع نهاره ، بالفكر فى وسيلة ينال بها لقبا من تلك الألقاب ... وسواء عنده الوسائل يطلبها أيا كان نوعها ، وان افضت الى خراب بلاده ، او تذليل أمته ، أو تمزيق ملته ، وعنده أنه رقى الذروة من معنى الشرف » (٨٦) .

وتضيف الجريدة فى مكان آخر عن الخيانة : « لسنا نعنى بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس (وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس) ، بل خائن الوطن من يكون سببا فىخطوة يخطوها العدو فى أرض الوطن ... ذلك هو الخائن فى أى لباس ظهر وعلى اى وجه انقلب . القادر على فكر يبديه ، أو تدبير يأتيه ، لتعطيل حركات الأعداء ثم يقصر فيه ، فهو الخائن ... » (٨٧)والواقع ان المقصود هنا انما هو الخديو توفيق ووزراؤه وعلى راسهم نوبار واعوانه واظهرهم سلطان باشا .

ويشارك كبار الموظفين فى الخيانة الأغنياء الذين لا تحركهم الا الانانية : « رب غنى فى مصر يملك مزارع واسعة واقطاعات كثيرة

(أبعاديات وجفالك) ، فيركن الى ماتفيض عليه من الرزق ويطمئن قلبه من جهة معيشته ومعيشة أبنائه من بعده ، فيستوى عنده أجناس الحاكمين ، ولا يبالى بولاية الانجليز على بلاده ، حيث سلم له قوته »(٨٨)

وبينما الخديو والحكام والأغنياء فى واد ، يعيش الأهالى فى واد آخر ، اسمه وادى البؤس : « عامة الأهالى فى الديار المصرية بين فقر كاد يفضى الى قحط واختلاف فى النظام وضعف فى السلطة وخبط فى الأحكام ، كادت تؤدى الى يأس من الاصلاح ... » (٨٩) « واشتدت الحاجة بالفلاحين الى ما يعوض عليهم ماشية الحراثة بعدما اغتالها التيفوس وما يجددون أو يصلحون به آلاتهم الزراعية ... فعميت عليهم السبل وضاقت بهم المسالك ، ولم يجدوا لسد حاجاتهم سبيلا . ففسدت الزراعة ... وأعدم المزارعون قاطبة الا نزر يسير من حفظة الكنوز أو المستأثرين بأموال الكافة نهبا وسلبا » (٩٠) . ووقع الفلاح بين قبضتين : قبضة الحكومة وقبضة المرابى الأجنبى : « الحكومة مضطرة لطلب الأموال وملجأة الى تكليف الفلاحين بدفع ماعليهم ،والأجانب قائمون على اقتضاء ديونهم منهم ... (وهكذا) تنعاب اغربة الدلالين فى فناء ديوان الحقانية على خراب بيوت الفلاحين : هذا ينادى على بيع أراضيه بأسرها ، وهذا ينعق عليه بمبيع بعضها ، والآخر بالحجر على أملاكه ... » (٩١) .

وقد انتبهت الجريدة الى الاستغلال الاقتصادى الذى يمارسه الاحتلال الانجليزى وفضحت أمره ، ليس فى مصر وحسب بل وفى الهند وفى ايرلندا ، وبينت أن بداية الاستعمار هو التجارة ، كما فعلوا فى الهند (٩٢) ، وحين تمكنوا من أمرها فهاهو مافعلوه : « من ساح فى المستعمرات الانجليزية كالبلاد الهندية ونحوها ، تبين له أن الأهالى فى تلك الممالك حملوا من أثقال الضرائب وأوتار الرسوم الدائمة والمؤقتة ما لا يعرف له غاية ولا يؤخذ فيه بقياس ، حتى سقطوا فى مهواة من الفقر لا يجدون منها خلاصا » . وهو يقول هذا ردا على من قد تسمح له سذاجته بأن يظن أن طلب بريطانيا فى ذلك الوقت (١٨٨٤) تنقيص فائدة الدين المصرى هو بدافع الحرص على « راحة المصريين وتخفيفا لثقل الدين على الخزينة المصرية وتوصلا لرفاهة الأهالى وتوسيع دائرة

ثروتهم » ، كلا بل : « تريد حكومة بريطانيا أن تسود على مصر وتستعبد أهلها ، وترى أن بقاء الحالة المالية على أصولها السابقة يرجع بالمنفعة على الدائنين من الأمم المختلفة ، فلا يكون حظ الخزينة الانجليزية الخاصة من ثروة مصر وافر ... فهى تسعى لفائدتها الخاصة ليس الا »(٩٣).
كذلك فان أحداث المقاومة الايرلندية فى ذلك الوقت للاستعمار الانجليزى لها هو اقوى دليل على كذب ادعاءات الانجليز بأنهم يذهبون الى حيث يذهبون من أجل المدنية . فتقول « العروة الوثقى » تحت عنوان «ايرلندا»: « فى كل يوم يقيم الانجليزى برهانا منطقيا ودليلا جدليا على أنه ما ذهب الى مصر الا بقصد الراحة ووضع قواعد العدالة . ولكنه كلما رتب مقدماته لاقناع السذج بقضاياه المشهورة ، عارضه الايرلنديون ببراهين عملية » (٩٤) ، وهى هجماتم المسلحة على الابنية والجسور والسكك الحديدية فى ايرلندا المحتلة .

وما من شك فى أن الصفحات السابقة تثبت بالدليل القاطع وقوف الأفغانى ضد الاستعمار الاقتصادى وضد الاستغلال الاجتماعى كذلك فى صورته العائمة . ولكن هل كان له موقف ايجابى بشأن طريقة تحقيق ضد الاستغلال الاجتماعى ، أى تحقيق العدالة الاجتماعية ؟ يقول مترجمو جمال الدين انه قال بالاشتراكية ، كما أسرع عارضو الاشتراكية وقت كانت مذهبا رسميا فى مصر منذ اعوام الى نصوص جمال الدين وأخذوا منها كل ما يناسبهم ، ولكن النظر المدقق فيها يجد أن الغموض هو سمة مواقف جمال الدين أو قل ان سمتها هو الازدواجية على الأقل ويتضح هذا اذا رجع القارىء الى ماتقوله « الخاطرات » عن الاشتراكية .

ومن الواضح أن الحل الحقيقى فى نظر الأفغانى لمقاومة الاستغلال واقامة قواعد « العدل المطلق » ، انما هو الحل الأخلاقى القائم على الانقياد لأحكام الشريعة . ويبدو للناظر فى مجمل أقوال الأفغانى انه يرى أن العلة الكبرى لشرور الأمة انما هى رذيلة الأنانية ، وهى المسئولة عن كل الفساد الذى يعانى منه جهاز الحكم الاسلامى وبالتالى المجتمع الاسلامى . فانظر الى مصر مثلا ، وستجد أن الانجليز يعتمدون فى بقائهم على الخديو توفيق ، وهذا لا هم له الا التمتع بسلطة صورية

على رأس البلاد ، فلولا انانيته لوجب عليه ان يتنحى عن الملك وان يموت شهيدا فى سبيل دينه ووطنه (٩٥) . ولهذا فان ماسينقذ الأمة انما هى « جمعيات يتولى أمرها أناس يأخذون على أنفسهم الأبية عهدا أن لا يقرعوا بابا لسلطان ، ولا يضعضعهم الحدثان ، ولا يثنى عزمهم الوعيد ، ولا يغرهم الوعد بالمنصب ، ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب ، بل قوم يرون فى المتاعب والمكاره بنجاة الوطن من الاستعباد غاية المغنم ، وفى عكسه المغرم » (٩٦) . وهكذا فان المهم هو قيام رجال تتوفر فيهم الفضيلة المقابلة للرذيلة والأنانية ، أى فضيلة الايثار ، أو قل على الأقل فضيلة النزاهة (٩٧) .

خاتمة :

نستطيع أن نخرج من عرضنا السابق بنتيجتين . الأولى : انه يمكن نميز عند الأفغانى ، كما أعلن عن نفسه للعموم ، بين موقفين متمايزين : الموقف الأول هو وقف المدافع عن تراث الاسلام والعقائد التقليدية كما بدت ، نظرا وعملا ، خلال العقود الأولى من الدولة تحت حكم الرسول والخلفاء الراشدين . والموقف الثانى هو موقف الرجل العصرى الذى يستخدم لغة علمانية الى حد كبير أو صغير . هذه هى النتيجة الأولى ، أما الثانية فهى أنه على حين تحتل فكرة الحرية مكانا ضئيلا الى حد ما بين اهتماماته النظرية ، وانه يفهم من هذه الكلمة على الأخص الحرية القومية أو قل حرية الأمة ، أو الأمم ، الاسلامية بازاء الغزو الأوربى من جهة وبازاء السلطات الاستبدادية للحكام المسلمين نفسهم ، نقول على حين أن هذا هو حال مفهوم الحرية عنده ، فانه يهتم اكثر كثيرا بفكرة العدالة ، ومع ذلك فان مضمون هذا المفهوم عنده ، من حيث هو مسلم سلفى، مضمون فقير التفاصيل ويكاد يختزل الى محض المعنى اللغوى للعدل ، وهو السير على الطريق المستقيم بغير العدول عن أوامر الشريعة. ولكنه من حيث كونه رجلا ابن عصره، يضفى على هذا

المضمون طابعـا اجتماعيـا بمعنى ما من المعانى ، وذلك حين يهتم مثلا بمصير الفلاح ويندد بأنانية الأغنياء .

اما توصيفه لأمراض المجتمع « الشرقى » فانه توصـيف أخلاقى ، وليس سياسيا ولا اقتصاديا ، وستكون كذلك وصفته من أجل علاجه . ومع ذلك فان الحل الخلقى الذى يقترحه حل ايجابى فى بعض جوانبـه يقوم على العمل وليس على الاكتفاء بالنوايا الحسـنة فقط ، كما يريـد الأكثرون من السذج .

والحق أن الأفغـانى انما هو أولا ، وربما أخيرا ، رجل عمل وليس رجل نظر ، ورجل عمل سياسى قبل أن يكون رجل اصـلاح دينى . بل يمكنك أن تقول انه كان رجل اصـلاح دينى لأنه كان رجل عمل سياسى، حيث عرف للدين مكانته العظمى فى حيـاة من كان يحدث اليهم ، فـلا حركة فى المجتمع الا بتحريك الأوضـاع والمفـاهيم الدينية ، فهى اذن وسيلة لا غاية فى نهاية الأمر .

واذا قلت ان الأفغانى كان رجل عمل فى المحل الأول ، فانه تنتجعن هذا نتيجة هامة : انه لم يكن يحتاج الى اعلان مذهب متسق واحد ثابت، على طريقة « الحكماء » ، بل لم يكن يمكنه أن يكون له مذهب متسقواحد ثابت ، والسبب فى هـذا وذاك أن العمل متغير وكذلك ينبغى أن تكون مواقف المهتم بالعمل . وهذه ربما كانت الكلمة المناسبة : فلعل الأفغانى لم يكن له مذهب بالمعنى الدقيق ، بل كانت له مواقف ، دينية وسياسية واجتماعية وفـكرية . ولم يكن الأفغـانى ، فيما بدا لنـا ، يهتم كثيرا « بحقيقة » مواقفه النظرية ، فبعضها ساذج وبعضها خاطىء وبعضـها يبدو وكأنه لا تمليه الا الرغبة فى الانتصـار على الخصم بأى ثمن،وأعظم مثال على ذلك هو رسالته فى « الرد على الدهريين » ولنقل نفس الشىء بلغة مختلفة : ان مواقفه النظرية المعلنة لم تكن تدفع اليها رغبة البحث عن الحقيقة أو ما شابه ذلك ، بل كان دافعها أن تكون وقودا للعمل ، وللعمل المنتج الفعـال .

ومركز الاهتمام فى هذه المواقف النظرية هو حال الأمة الاسلامية فى عصره والوسائل الكفيلة بانهاضها من كبوتها . والحق أن الأفغانى لم يكن على الدقة المجدد رجل التحديث ، لأنه على الأدق «رجل الرفض»، والذى كان يريد لم يكن هو « الجديد » ، بل كان الشىء « المختلف » ، وهذا « المختلف » لم يكن الا الرجوع الى وضع فكرى وعقائدى وسياسى واجتماعى هو الذى شهده عصر الخلفاء الراشدين . ولنقل فى كلمات أخرى : لقد كان يريد العودة الى البساطة والى النقاوة التى رأى أنها ميزت عهد السلف الصالح . ومن هذه الوجهة يكون الأفغانى «محافظا» شديد المحافظة وأبعد مايكون عن « التجديد » وعن « التحديث » .

الحواشى

(١) هذه المقالة جزء من دراسة حول « العــدالة والحرية فى فجر النهضة الحديثــة » .

(٢) « تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده » ، نشر الشيخ رشيد رضا : الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٣١ ، ص ٣٠ـ٣١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٥٠ .

(٥) قارن محمود أبو ريه ، « جمال الدين الأفغانى » ، القاهرة ، طبعة ١٩٧١ ، ص٤٠ ، مع عثمان أمين ، « رائد الفكر المصرى » ، القاهرة ١٩٥٥ ص ٢٢ .

(٦) « خاطرات جمال الدين الأفغانى » ، جمعها محمد باشا المخزومى ، بيروت ، ١٩٣١ ، ص ١٨٨ ، وسنسميها فى الهوامش « الخــاطرات » اختصــارا .

(٧) Iraj Afshar et Asghar Mahdavi, Documents inédits concernant Seyyed Jamal al - Din Afgani, Teheran, 1963.

(٨) قام بها : L. Kedourie, N. R. Keddie, H. Pakdaman

(٩) « العــروة الوثقى » ، بــيروت ، ١٩١٠ ، الجــزء الأول ، ص ٩٤ــ٩٥ .

(١٠) المرجع السابق ، ص ٧٢ ـــ ٧٣ .

(١١) « العروة الوثقى » ، الجزء الثانى ، ص ١٩٢ (« الخاطرات » ص ٣٠٧ ـــ ٨) .

(١٢) يقول بصــدد عسف الانجليز فى مصر : « وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية ، والأخذ بالشبه وان ضعفت ، وأتبــاع بواطل التهم وان بعدت أو استحالت ، حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه ، وبلغ منها مبلغه ، فلا ترى مارا بطريق الا وهو يلتفت خلفه لينظر هل تعلق بأثوابه شرطى يقوده الى السجن » ، « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٢٣ .

(١٣) « الرد على الدهــريين » ، القــاهرة ، ١٩٠٣ ، ص ٧١ . وسنشير الى هذا الكتاب من بعد باسم « الرد » اختصارا .

(١٤) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٣٨ .

(١٥) المرجع السابق ، ص ٦٩ .

(١٦) « الخاطرات » ، ص ٩٠-٩١ ، وانظر كذلك ص ١٣٥ .

(١٧) المرجع السابق ، ص ٩٦ .

(١٨) المرجع نفسه ، ص ١٣٥ .

(١٩) « العروة الوثقى » ، الثانى ، ص ١٤٧ .

(٢٠) المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٢١) « الخاطرات » ، ص ٥٩-٦٠ ، وانظر ص ٤٦ عن مصر .

(٢٢) المرجع السابق ، ص ٣٧ ، وانظر ص ١٣٣ .

(٢٣) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٣٥-٣٦ .

(٢٤) راجع ماسنذكره من خطبه الموجهة الى المصريين ، وانظر كذلك « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ١٢١ ، ١٤٥ ، ٢١٠ ، الثـانى ، ص ١١٠ ، ١٣٢ ، « الخاطرات » ، ص ٣٤٥ .

(٢٥) « الخاطرات » ، ٨٩ — ٩٠ .

(٢٦) لاحظ هنا طبيعة الحل الأخلاقى القائم على أساس شخصى: النصح والارشاد .

(٢٧) « الخاطرات » ، ص ٩٠ — ٩٣ .

(٢٨) المرجع السابق ، ص ٥٩ — ٦٠ .

(٢٩) « الخاطرات » ، ص ٦٤ .

(٣٠) المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

(٣١) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٣٢) هكذا فى الأصل .

(٣٣) « الخاطرات » ، ص ٤٧-٤٨ .

(٣٤) المرجع السابق ، ص ٨٥-٨٦ .

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٨٦-٨٧ .

(٣٦) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص٦٦ ، وحول تعبير « المستبد القاهر العادل » ، راجع « الرد » ، ص ٣٩ .

(٣٧) « الخاطرات » ، ص ٩٠ .

(٣٨) « الخاطرات » ، ص ٢٧٤ — ٢٧٩ .

(٣٩) نفس المرجع ، ص ١٣٦ .

(٤٠) « الخاطرات » ، ص ٦٨ .

(٤١) المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٤٢) نفس المرجع ، ص ٢٣ .

(٤٣) المرجع ذاته ، ص ٢٠٩ .

(٤٤) « الخاطرات » ، ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(٤٥) المرجع السابق ، ص ١٦١ .

(٤٦) المرجع نفسه ، ص ٣٧٥ .

(٤٧) المرجع نفسه ، ص ١٨٥ : « أقدر الشميل قدره فى دقة بحثه وتحقيقه وجراته على بث مايعتقده من الحكمة ، وعدم تهيبه من سخط الجموع لما يجهله من حقائق العلم » .

(٤٨) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ١٤١ .

(٤٩) « الخاطرات » ، ص ٤٠١ ، وانظر « الرد » ، ص ٣٧ .

(٥٠) « الخاطرات » ، ص ٣٩ .

(٥١) المرجع السابق ، ص ٣٧ .

(٥٢) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٣٥ .

(٥٣) « العروة الوثقى » ، ص ٣٦—٣٧ .

(٥٤) المرجع نفسه ، ص ٣٥ .

(٥٥) « الرد » ، ص ٧٧ .

(٥٦) « الخاطرات » ، ص ٣٧ .

(٥٧) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٣٥ .

(٥٨) « الخاطرات » ، ٢٢٥ .

(٥٩) المرجع السابق ، ص ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ٢١٧ .

(٦٠) « العروة الوثقى » ، ص ٢٠٠ .

(٦١) المرجع السابق ، ص ٣٥ ، ٣٨ .

(٦٢) نفس المرجع ، ص ١٤١ ، ١٩٨ .

(٦٣) « العروة الوثقى » ، ص ٤٠ ، ٤١ .

(٦٤) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٣٨ .

(٦٥) « الخاطرات » ، ص ٣١٩ .

(٦٦) « العروة الوثقى » ، الثانى ، ص ١٩٢ .
(٦٧) « العروة الوثقى » ، الثانى ، ص ١٦٥—١٦٦ .
(٦٨) نفس المرجع ، ص ١٦٦ .
(٦٩) « الخاطرات » ، ص ٣٠١ .
(٧٠) أنظر فى كل هذا ، « العروةالوثقى » ، الأول ، ص ٣٧—٣٩، ٤٠، ١١٠، ١٦٤ ، الثانى ، ص٤٠ ، « الرد » ، ص ٤٣ ، «الخاطرات» ص ٣٧ ، ٣٩ ، ٢٢ .
(٧١) « الرد » ، ص ٤٣ — ٤٤ ، وانظر « العـــروة الوثقى » ، الثانى ، ص ١١٠ — ١١١ .
(٧٢) « الخاطرات » ، ص ٤٢ .
(٧٣) « الخاطرات » ، ص ٤١ .
(٧٤) المرجع السابق ، ص ٨٧ .
(٧٥) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ١٩٠ .
(٧٦) نفس المرجع ، ص ١٩٠ — ١٩١ .
(٧٧) نفس المرجع ، ص ١٩٤ — ١٩٥ .
(٧٨) « العروة الوثقى » ، ص ١٤٤ .
(٧٩) « تاريخ الاستاد الامام » ، الأول ، ص ٤٦—٤٧ .
(٨٠) عثمان امين ، « رائد الفكر المصرى » ، ص ٢٢ .
(٨١) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ١ .
(٨٢) المرجع نفسه ، ص ٤ .
(٨٣) « الرد » ، ص ٧٨ .
(٨٤) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٣٨—٣٩ .
(٨٥) « الخاطرات » ، ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .
(٨٦) « العـــروة الوثقى » ، الثـــانى ، ص ٩٣ . وانظر فى ترف الأقوياء ص ١٦٣ ، جزء أول ، ص ٣٨ .
(٨٧) « العروة الوثقى » ، الثانى ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .
(٨٨) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .
(٨٩) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٣٦ .
(٩٠) نفس المرجع ، ص ٢٣ .
(٩١) نفس المرجع ، ص ٢٠٤ .
(٩٢) « العروة الوثقى » ، الثانى ، ص ١٤٩ .
(٩٣) المرجع السابق ، ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .
(٩٤) المرجع نفسه ، الأول ، ص ٤٨ ، وراجع مقال « العـــدالة الانجليزية » ، الثانى ، ص ٤٨ وما بعدها .
(٩٥) « العروة الوثقى » ، الثانى ، ص ١٠٩ .
(٩٦) « الخاطرات » ، ص ١٣٧ — ١٣٨ .
(٩٧) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٣٧ ، ٦٩ .

٦

موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية

دكتور عبد المنعم ابراهيم الدسوقى الجميعى
كلية التربية ــ جامعة القاهرة

مقـــدمة :

وجدت الدولة العثمانية فى قيـام الثورة العرابية والنزاع المستمر بين الخديو والعرابيين فرصة للتدخل فى شئون مصر الداخليـة بحجة فض النزاع واقرار الأمور ، ومع أن السلطان عبد الحميد الثانى وجد فى الثورة فرصـة للانتقاص من مزايا الاستقلال الداخلى الذى حصلت عليه مصر فانه آثر التريث فى الانضمام الى أى من الطرفين ، ورغم انه لم يكن مرتاحا للحركة الوطنيـة المصرية لأنه كان يخشى انتشـار مفهوم الثورة منها الى باقى ولايات دولته نظرا لموقع مصر الجغرافى فى وسط ممتلكاته بالاضافة الى أن الثورة العرابية طرحت مفاهيم تستنكرها الدولة العثمانية كل الاستنكار مثل الدعوة الى النظام النيـابى وفـكرة توزيع الأرض على الفلاحين الا انه حاول اللعب على الطرفين والوقوف مع الجانب التى ترجح كفته فى النزاع فكانت هنـاك اتصالات بين رسله وبين عرابى كما كانت هنـاك اتصالات بينه وبين الخـديو ، ورغم أن الخديو قـد أرسل الى السلطان يطلب ارسال قوات تركية الى مصر للقضـاء على الثورة فان السلطان خشى من رد فعل الدول الأوربيـة خصوصا وان خبرة الـدولة العثمانية فى الصـدام مع الدول الأوربية منذ مؤتمر برلين جعلتها تتردد فى انتهاز هذه الفرصة .

ومن الطبيعى أن يكون حجر الزاوية بالنسبة لـكتابة هذا الموضوع

هو الوثائق التركية لذلك فقد رجعت الى الوثائق التركية المترجمة الى العربية والموجودة بدار الوثائق بالقلعة تحت عنوان ملف ثابت باشا المحفظتان ١٦٣ ، ١٦٤ عابدين ، ومحفظة ١١٦ أبحاث ، ودفتر ٢٨٧ عابدين بالاضافة الى محافظ الثورة العرابية وبعض المراجع الأخرى .

وملف ثابت باشا يحتوى على الكثير من الوثائق الخاصة بالثورة العرابية ووجهت نظر الدولة العثمانية تجاهها .

وثابت باشا كان يعمل مندوبا للخديو بالاستانة أثناء قيام الثورة العرابية وتذكره الوثائق بأنه « قبوكتخدا الحضرة الخديوية بالاستانة » .
ومحور الموضوع الرئيسى يدور حول الرسائل المتبادلة بين الخديو والباب العالى والتى يتضح منها :

١ — موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية بعد مظاهرة عابدين وبعثه نظامى باشا .

٢ — موقف الدولة العثمانية من المؤامرة الجركسية .

٣ — بعثة درويش باشا حتى منشور السلطان باعلان عصيان أحمد عرابى .

حاولت الدولة العثمانية استغلال أحداث الثورة العرابية لتثبيت سيادتها على مصر والانتقاص من مزايا استقلالها الذى نالته فى عهد محمد على ثم فى عهد اسماعيل ، ومع أن الخديو توفيق قد ساعدها على أن تنتقص من هذه المزايا بطلبه ارسال قوات تركية الى مصر لاخماد الثورة العرابية وكان فى ذلك فرصة لها لتحقيق أغراضها الا انها لم تستغل هذه الفرصة فأثناء قيام مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ أرسل الخديو ثلاث برقيات الى الباب العالى تتضمن الحادث ولكن بصورة مختصرة من غير أن يوضح فيها الأسباب الحقيقية له والباعث عليه مكتفيا باسناد قيام الثورة الى ضابط برتبة « اميرالاى » (١) تمكن من استمالة الجيش المصرى اليه وأحاط « بتعضيد من معظم ذلك الجيش بقصر عابدين .. وضرب الحصار حوله » (٢) وقد طلب الخديو « ارسال قوة عسكرية يبلغ مقدارها عشرين طابورا على جناح السرعة على أن

تكون قيادتها العامة منوطة به خاصة » (٣) ولما كان الباب العالى يخشى رد فعل الدول الأوربية وخصوصا انجلترا لو تدخل عسكريا فى مصر ، بالاضافة الى أن الخديو توفيق لم يكن منظورا اليه فى الآستانة بعين العطف والرضا (٤) فقد أرسل الباب العالى يطلب معلومات أكثر وضوحا عن الحادث حيث ذكر فى برقية له الى الخديو « وبما أنه ليس من المحتمل قط ان لا يكون لديكم انباء عن ظروف وملابسات تلك الثورة العسكرية قبيل اجتماع الجنود على الثورة والاحاطة بسموكم فى قصركم وتضييق الحصار عليه فضلا عن أن حكومتكم لابد لها من علم بالظروف والأحوال التى ساعدت على تكوين هذا الحادث .. فازاء ذلك لا يسع الباب العالى أن يقوم بأى سعى لاعادة الأمن الى نصابه وتسوية المسألة وفق الاعتبارات المحلية مالم يحصل أولا على المعلومات الوثيقة من سموكم لتجلو الأحوال جلاء تاما » (٥) .

وكان رد الخديو على هذه البرقية قوله : « ان الحكومة لم يكن عندها أى نبأ أو علم سابق بهذا الموضوع ، وكل ما هنالك أننا نعلم أن هناك صحيفة تدعى (أبو النظارة الزرقاء) يصدرها فى باريس باللغة العربية العامية رجل يدعى (جمس) (٦) له اتصال وثيق بطبيب عمى سمو عبد الحليم باشا وأن آلاف من أعداد هذه الصحيفة تدخل مصر بطرق مختلفة ، وتوزع سرا ومجانا بين صفوف الجيش .. ولا يخفى على أحد أن الذى ينفق بسخاء على طبع ونشر هذه الصحيفة هو سمو عبد الحليم باشا لا غير وبما أن الدعايات التى تقوم بها هذه الصحيفة والأفكار التى تبثها تتفق تمام الاتفاق مع الأفكار السائدة الآن فى البيئات الناقمة والطبقات المتذمرة فى الجيش فيمكننا أن نقول أن لدعاية هذه الصحيفة دخلا كبيرا فى قيام هذه الفتنة العسكرية (٧) ثم ذكر أن الحادث انتهى من غير حاجة الى اتخاذ تدابير شديدة نحو ازالته(٨) ثم أكد فى برقية أخرى « ان الجيش الآن فى غاية الخضوع والطاعة وأن سائر الأمور والشئون جارية على مايرام » (٩) ومع ذلك فان الحكومة التركية رأت فيما حدث ذريعة للتدخل السياسى فى شئون مصر وانتحال حق الاشراف عليها — على الرغم من محاولات انجلترا للتضييق على السلطان للاحالة دون ذلك (١٠) حتى يمكنها العمل منفردة فى مصر — فقررت ارسال

لجنة الى مصر للنظر في الحوادث الأخيرة ، وقد عرفت هذه اللجنة بالوفد العثمانى وكانت برئاسة على نظامى باشا سرياور السلطان عبد الحميد وعلى بك فؤاد من أعضاء مجلس شورى الدولة (١١) ونجل عالى باشا الصدر الأعظم المشهور ومعهما قدرى بك وصفر افندى وسيف الله افندى من ياوران السلطان .

يذكر الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » ان هذا الوفد تحرك من الآستانة يوم ٢ اكتوبر ١٨٨١ قاصدا مصر ولم يسبق تاليفه مخابرة بين حكومة الآستانة والحكومة المصرية حتى تعرف المقصد من ايفاده (١٢) ولكن الوثائق التركية تثبت أن الخديو كان يعلم عن طريق مندوبه فى الآستانة (١٣) بتشكيل الوفد والمهمة التى سيكلف بها (١٤) .

جاء الوفد الى الاسكندرية يوم الخميس ٦ أكتوبر ١٨٨١ ووصل أعضاؤه إلى القاهرة فى مساء ذلك اليوم ونزلوا ضيوفا على الحكومة المصرية وفى صبيحة الجمعة ذهبوا الى سراى الاسماعيلية لمقابلة الخديو فاستقبلهم بالترحاب وأبلغوه أن الغرض من حضورهم هو اظهار الثقة به وتثبيت مركزه (١٥) كما ذهب نظامى باشا الى ديوان الحربية بقصر النيل حيث استقبله محمود سامى البارودى ناظر الجهادية وهناك القى خطابا فى كبار الضباط حثهم فيه على طاعة الخديو (١٦) ورد عليه طلبه عصمت بخطاب أعلن فيه خضوع الضباط والجنود للسلطان والخديو (١٧) .

ولما زار الوفد العثمانى شيخ الجامع الأزهر وبعض الشيوخ وجدوا فى حديثهم اطراء على الجيش وأعماله (١٨) وظل رجال الوفد العثمانى فى مصر بضعة عشر يوما بين مقابلات وولائم ، وأجمعت كلمة من حادثوهم على أن البلاد ليس فيها أى اضطراب واكد لهم الخديو ان الجيش على طاعته وبذلك انتهت مهمتهم (١٩) وغادر الوفد القاهرة الى الاسكندرية فى ١٨ اكتوبر ١٨٨١ (٢٠) .

والجدير بالذكر ان انجلترا وفرنسا استاءتا من حضور الوفد العثماني الي مصر على غير اتفاق منهما واعتبرتاه تدخلا فى شئون مصر

الداخلية وطلبتا من الحكومة العثمانية تقصير مدة اقامته (٢١) كما أنتهز السير ادوارد مالت القنصل الانجليزى الفرصة لكى تبسط بلاده نفوذها على مصر فطلب من حكومته ارسال بارجة حربية الى مياه الاسكندرية فاجابته الى طلبه كما اتفقت مع الحكومة الفرنسية على أن ترسل هى الأخرى بارجة على أن تغادر البارجتان الاسكندرية حين مبارحة الوفد العثمانى مصر ، وفعلا حدث ذلك حيث غادرت البارجتان ميناء الاسكندرية فى ٢٠ اكتوبر ١٨٨١ أى غداة سفر الوفد العثمانى (٢٢) .

هذا عن موقف الدولة العثمانية تجاه الثورة العرابية عقب مظاهرة عابدين أما عن موقفها من المؤامرة الشركسية (٢٣) فانه بعد أن أرسل الخديو الى السلطان بخصوص هذا الموضوع وطلب منه ارشاده حول الأحكام القاسية التى أصدرها العرابيون ضد الشراكسة ويقترح عليه عدم تنفيذ الأحكام (٢٤) وقف السلطان مؤيدا لموقف الخديو وسر من ذلك سرورا بالغا وتمنى للخديو الخير وقال « انه طالما يظل الخديو مقيما على اخلاصه الذى أظهره للدولة العلية حتى الآن .. فانه سيجد الدولة العلية مساعدة ونصيره له على الدوام » (٢٥) .

ومع أن الأحوال فى مصر كانت غير مستقرة فانجلترا تمهد للتدخل العسكرى والخديو يشكو للسلطان من العرابيين ويطلب منه — عن طريق رسالة بعث بها الى ثابت باشا بالآستانة — ارسال قوات عسكرية تركية تقف أمامهم بقوله « وقد راح هؤلاء الضباط (يقصد العرابيين) يعملون للوصول الى أهدافهم بالتدريج كلما سنحت لهم الفرصة الى أن بلغوا حد السيطرة على جميع القوات العسكرية ، وهم الآن خارجون عن الطاعة كل الخروج وليس لهذا الوضع من علاج سوى أخذ هذه القوات العسكرية من ايديهم وردها الى القانون والنظام وهذا يحتاج الى قوة عسكرية تقف أمامهم » (٢٦) ولكن السلطان تردد فى ارسال جنود عثمانيين الى مصر خشية الصدام مع الدول الأوربية كما أ نمعظم المشايخ بالآستانة أوضحوا للسلطان بأن « ارسال عساكر المسلمين لقتال اخوانهم المسلمين يضر بمقام الخلافة » (٢٧) يضاف الى ذلك أن السيد احمد أسعد وهو من الشيوخ المقربين من السلطنة كان قد مدح عرابى أمام السلطان (٢٨) وذكره بأنه الرجل الذى يرجى منه الخير لمصر .

ولمعالجة الموقف استقر رأى السلطان العثمانى على ارسال بعثة الى مصر بحجة اعادة الأمور فيها الى نصابها ، ومعالجة الأحوال على أساس الاستفادة من الخلاف بين الخديو والعرابيين ابتغاء تثبيت سلطة الدولة فى مصر (٢٩) وفى الثامن من شهر يونية ١٨٨٢ عين السلطان مصطفى درويش باشا أحد رجال الحاشية السلطانية مندوبا عثمانيا ساميا وعهد اليه برئاسة وفد مكون كما تذكر الوثائق التركية من « نجله وأربعة من الياوران وكاتبه الخاص ونحو تسعة من خدم المابين (٣٠) . ومجموع الذين سيأتون فى معيته حوالى ثلاثين نفرا ، وفوق ماتقدم سيكون فى رفقته حلمى بك مدير مكتب تلغراف المابين السلطانى ، وان الذين سيرافقونه من يعرف اللغة العربية » (٣١) وأمره بالسفر الى مصر ، وكانت خطة الوفد أن يتظاهر درويش باشا بأنه جاء لتثبيت سلطة الخديو ، وأن يتعامل أسعد باشا أحد أعضاء الوفد مع عرابى ويوضح له رضى السلطان عنه (٣٢) .

وصل درويش باشا والوفد المرافق له الى الاسكندرية يوم الاربعاء الموافق ٧ يونية ١٨٨٢ على ظهر اليخت السلطانى عز الدين (٣٣) فأرسل الخديو وفدا برياسة على ذو الفقار باشا لاستقباله على ظهر اليخت كما أرسل عرابى من طرفه يعقوب سامى باشا وكيل نظارة الجهادية لاستقبال الوفد ، ولكن الخديو اعترض على ذلك وأبلغ محافظ الاسكندرية بعدم موافقته على اجراء أى شىء من رسوم الاستقبال من طرف العرابيين للبعثة ، ولكن يعقوب باشا لم يكترث بالأمر بحجة أنه موفد من طرف ناظر الجهادية لا يمنعه عن ذلك سوى أوامر منه (٣٤) وفعلا تم استحضار ثلاثة قوارب احداها لوكيلى الجهادية والبحرية والثانى لمحافظ الاسكندرية والثالث لمندوبى المعية ، وساروا سويا ولكن قارب الوكيلين سبق القاربين الآخرين ووصل قبلهما بمدة ربع ساعة تقريبا وعند وصولهما استقبلهما دولتلو درويش باشا بأعظم قبول واختلى بسعادة يعقوب باشا وتحدث معهمليا ، وبعدها وصل القاربان الآخران وكانت مقابلتهما اعتيادية ، ولما ركب ذو الدولة درويش باشا فى الزورق المعد لركوبه استصحب معه سعادة يعقوب باشا وكيل الجهادية فقط وترك الآخرين (٣٥) .

وفى اليوم التالى سافر درويش ووفده الى القاهرة فجمع مأمور

الضبطية بها بعض الأهالى ومررهم بالطريق الذى يمر منه درويش باشا « فأخذوا يرفعون أصواتهم بمدح أحمد عرابى وخفض شأن الخديو » (٣٦)

ولما ذهب درويش باشا الى سراى الاسماعيلية قابله الخديو بالترحاب (٣٧) ورد له الزيارة بسراى الجزيرة ، وهو المكان الذى أعد لاقامة الوفد (٣٨) كما حضر الى سراى الجزيرة بعض العلماء للترحيب بدرويش باشا وتحدث « الشيخ عليش والشيخ حسن العدوى وغيرهم من المنتمين الى عرابى عن مساوىء الخديو » (٣٩) .

لقد كانت خطة البعثة العثمانية التظاهر لكل من الخديو والعرابيين بأن السلطان معه ، وكان من مظاهر ذلك أن الوفد طلب نحو مائتى‌نيشان للضباط مكافأة لهم على اخلاصهم للسلطان كما طلب لعرابى النيشان المجيدى من الطبقة الأولى ، ولكن بعد أن منح الخديو درويش باشا رشوة قيمتها خمسون الف جنيه بالاضافة الى هدايا قيمتها خمسة وعشرون الف جنيه (٤٠) انضم درويش علانية الى الخديو وظهر ذلك فى محاولاته المتكررة للتخلص من عرابى فطلب اليه أن يسافر الى الآستانة لشكر السلطان على منحه الوسام (٤١) وأن يترك له ديوان الجهادية وقد فطن عرابى الى العواقب المترتبة على تركه ديوان الجهادية والسفر الى الآستانة فقال له « خذ عليك عهده حفظ الأرواح وانشر ذلك فى الجرائد العربية والتركية والأفرنجية وانا اتوجه الى الحضرة الملوكية » (٤٢) ولما تردد درويش باشا فى الأمر ذكر له عرابى بأن الأمة لا تسمح له بمغادرة البلاد (٤٣) وانه لايستطيع أمام الأزمة الراهنة التى نشأت من جراء عدوان الانجليز الذهاب الى اى مكان وانه سيعبر عن عرفانه للسلطان بالجميل برقيا (٤٤) .

ولما فشل درويش فى مبتغاه أعطى أوامر سرية لقبطان الباخرة التركية (عز الدين) التى أقلته الى مصر بالاستعداد للرحيل والاتلاع الى استنبول بمجرد صعود عرابى الى ظهرها ثم ذهب الى عرابى واظهر له وده وطلب منه زيارة السفن المصرية الراسية فى الميناء وكذلك الباخرة التركية المذكورة ، ولكن عرابى احس بالمؤامرة فذكر له انه ضابط مشاة ولا شأن له بالبحر ، وان من الأولى عدم اضاعة الوقت فى زيارة

السفن (٤٥) ولما احس رجال الثورة العرابية بميول درويش باشا العدائية تجاه الحركة الوطنيـــة أرسلوا عبد الله النديم الى الأزهر حيث عــقد اجتماعا حضره حوالى أربعـــة آلاف شخص هاجم فيـــه البعثة التركية والخديو مما هز مركز درويش باشـــا ، واصر المجتمعون على رحيله ولو رفض يقبض عليه ويرحل بالقوة (٤٦) .

اما عن موقف اسعد باشا عضو الوفد العثمانى والمكلف بالتعامل مع عرابى فقد جمع توقيعات من الأهالى محررة ضـــد الخديو « ومختومة بالفى خاتم » (٤٧) .

استمر انحياز درويش باشا للخـــديو حتى بعـــد ضرب الاسكندرية ويتضح ذلك من رسالة بعث بها عرابى الى احد اصـــدقاء السلطان يشكو من انحياز درويش باشا الى الخديو الذى انحـــاز الى الانجليز « مع أنه كان من الواجب على دولته ذمة وديانه ان ينصح الخديو بأن يتوجها معـــا الى العاصمة مقر الحكومة ليكونا خلف الجيش لا أن يتركا جيش الاسلام الشاهانى وينحازوا الى جيش العدو المحارب (٤٨) .

استمر طلب الخديو للجنود العثمانيين حتى بعد ضرب الاسكنـــدرية ويتضح ذلك من رسالة بعث بها الخديو الى ثابت باشا يقول فيها « وقد رفعت الى الحضرة السلطانية بوساطتكم كما كتبت المرة بعد المرة اصـــف الحالة وجميع مقاصدى منصبه على رفع الأذى عن هذه البلاد السلطانية وتوطيد الأمن فيها . . . وهذا يتوقف على قدوم العساكر السلطانية (٤٩).

ويهمنا هنا أن نذكر بأن كلا من بعثتى نظامى ودرويش لم تحضرا الى مصر بنيـــة خالصة بل حضرتا لاثبـــات سلطة تركيا فى مصر دون أن تعمل كلتاهما اى عمل نافع لفض النزاع بين العرابيين والخـــديو أو لانقاذ مصر من مطامع انجلترا (٥٠) بل تركتا مصر اشـــد ارتبـــاكا واكثر اضطرابا عما كانت عليه ، ويكفى أن نذكر انه لم يكد يمضى على حضور درويش باشـــا الى مصر بضعة أيام حتى وقعت مذبحة الاسكندرية فى ١١ يونية ١٨٨٢ ، وفى وجوده ايضا استمر الموقف فى التـــازم وضربت الاسكنـــدرية بمدافع الأسطول الانجليزى وقـــد زاد موقف تركيا تجـــاه القضـــية المصرية تخبطا

امتناعها فى بادىء الأمر عن الاشتراك فى مؤتمر الآستانة الذى عقد فى عاصمتها فى ١٥ يوليو ١٨٨٢ بغرض المحافظة على الأوضاع الحالية فى مصر وتأييد سلطة الخديو ، وكان امتناعها مبنيا على أن هذه المسألة داخلية بحتة ليس للدول الأوربية شأن بها كما كانت تعتقد أن ايفادها درويش باشا الى مصر سيحل المسألة المصرية وأن التحقيقات التى سيجريها ستسوى الموقف مما يغنى عن عقد مؤتمر بشأنها ، ولما أدركت خطأها اشتركت فى المؤتمر آخر الأمر ورضيت بارسال جيش عثمانى الى مصر وفوضت درويش باشا قيادة العساكر العثمانية المقرر ارسالها الى مصر وأبلغت الخديو بذلك (٥١) ولكن فات الأوان بضرب انجلترا للاسكندرية بمدافع الأسطول وارسال قواتها لاحتلال مصر ، وبينما كان الانجليز يتقدمون فى داخل البلاد كانت المفاوضات مستمرة بين اللورد دفرين سفير انجلترا فى الآستانة والباب العالى للاتفاق على خطة ارسال الجيش العثمانى الى مصر وكانت انجلترا تقصد من هذه المفاوضات اطالة الوقت وتعطيل ارسال جيش من تركيا حتى تقمع الثورة فلا يبقى سبب لمجىء ذلك الجيش (٥٢) وفى غضون ذلك استطاعت انجلترا تغيير ميزان المعركة ليس حربيا فقط بل سياسيا أيضا اذ استطاعت نتيجة للمحادثات المستكثفة بينها وبين تركيا ، ونتيجة لجهود اللورد دفرين مندوبها فى الآستانة فى الضغط على السلطان (٥٣) فقد ربطت انجلترا موافقتها على ارسال عساكر عثمانية باصدار منشور يتضمن أن عرابى عاص وثائر وان الدولة العثمانية ملتزمة بالمحافظة على الخديو وعلى نفوذه وامتيازاته (٥٤) وقد أصدر السلطان هذا المنشور مما قلب ميزان الحماس الشعبى وأضاع التأييد الاسلامى والعربى للثورة (٥٥) وكان له أسوأ الأثر فى النفوس وقد نشر هذا الاعلان فى جريدة الجوائب(٥٦) كما أرسلت نسخة منه الى عرابى (٥٧) .

استغلت انجلترا هذا المنشور فى اضعاف الروح المعنوية لدى العرابيين فبادرت القوات الانجليزية باذاعة اعلان السلطان بعصيان عرابى أثناء زحفها مما أدى الى ايقاع الفرقة والانحلال فى صفوف العرابيين وانصراف الناس عن تأييد عرابى فى القتال وخصوصا بعد أن تمكن اعوان الخديو وعلى رأسهم محمد سلطان باشا من توزيع

المنشور (٥٨) على الضباط والجنود الذين احسوا بصدمة عنيفة بعد الاطلاع عليه مما أثر فى روحهم المعنوية وضعفت حميتهم الدينية وسهل على الانجليز دخول مصر (٥٩) .

هذا عن الموقف الرسمى للدولة العثمانية تجاه الثورة العرابية أما عن الموقف الشعبى داخل الآستانة — وخصوصا موقف رجال الدين — فكان فى معظمه بجانب عرابى فالشيخ على أفندى مدرس السلطان والحائز على رتبة الصدر (رتبة دينية) كان يشيد بعرابى ويثنى عليه ويقول عنه أنه « رجل عظيم متدين » (٦٠) والشيخ نجيب أفندى الحائز على رتبة (الصدر) أيضا كان من مؤيدى عرابى والمدافعين عنه لدى السلطان (٦١) كما كان بعض خطباء المساجد بالآستانة يدعون لعرابى على المنابر .

ومما سبق يتضح أن موقف الدولة العثمانية الرسمى تجاه الثورة العرابية ابتداء من بعثة نظامى باشا وحتى اعلان السلطان منشوره بعصيان عرابى كان قائما على أهمية تثبيت السيادة التركية على مصر دون الاهتمام بمصالح مصر ومصيرها ، كما أن الدولة العثمانية حينما سنحت لها الفرصة بالتدخل المسلح فى مصر بعد استنجاد الخديو بها خشيت من رد فعل الدول الأوربية وخصوصا انجلترا ازاء ذلك ، ولما ترددت تركيا فى نجدة الخديو عسكريا وتباطأت فى اتخاذ مواقف محددة طلب الخديو من الانجليز المعونة وكان له ما أراد مما أتاح لانجلترا فرصة احتلال مصر .

الحـــواشى

(١) دار الوثائق القومية : محافظ أبحاث ــ المحفظة ١١٦ دوسيه ٢ « الثورة العرابية » ترجمة الدفتر ٢٨٧ « البرقيات الواردة من استانبول والصادرة اليها أثناء الثورة العرابية ١٢٩٨ هـ (١٨٨١م) » .

(٢) نفس المحفظة والدوسيه . برقية من الجناب المـالى الخديو الى الباب العالى بتاريخ ١٥ شوال ١٢٩٨ (٩ سبتمبر ١٨٨١) .

(٣) المصـــدر نفسه .

(٤) عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتـلال الانجليزى ، القاهرة ــ النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٤٩ ص١٦٦ .

(٥) محافظ أبحاث ــ المحفظة ١١٦ « البرقيات الواردة من استانبول والصادرة اليها أثناء الثورة العرابية » .

(٦) يقصد جيمس سانوا (يعقوب صنوع) .

(٧) محافظ أبحاث ، المحفظة ١١٦ ترجمة الدفتر نمرة ٢٨٧ عابدين ــ البرقيات الواردة من استانبول والصادرة اليها أثناء الثورة العرابية ــ برقيـــة من الجنـــاب الخـــديو الى البـــاب العالى بتـــاريخ ١٧ شـــوال ١٢٩٨هـ (١١ سبتمبر ١٨٨١) .

(٨) البرقية السابقة الذكر .

(٩) دار الوثائق القومية . دفتر ٢٨٧ عابدين ــ صادر ٧ بتـــاريخ ٧ ذى القعدة ١٢٩٨ (٣٠ سبتمبر ١٨٨١) .

(10) Public Record office, F. O. 407/18 No. 45 Earl Cranville to the Earl of Dufferin, September 18, 1881 Telegraphic No. 436.

(١١) الوقائع المصرية : العدد ١٢٢٩ فى ٨ أكتوبر ١٨٨١ .

(١٢) عبر الرحمن الرافعى : المرجع السابق الذكر ص ١٦٥ .

(١٣) عمل ثابت باشا مندوبا للخديو بالاستانة أثنـــاء قيـــام الثورة العرابية واستمر هنـــاك فى المـــدة من شهر ذى الحجة ١٢٩٨ الى صفر ١٢٩٩ وبعد عودته شغل عدة مناصب منها مهردار خديو ثم عين فى نظارتى الداخلية والأوقاف وبعدها شغل منصب رئيس ديوان الخـــديو ، أنظر : دار المحفوظات العمومية : أوراق ربط معاش سعادة محمد ثابت باشا ــ دولاب ٢٧ عين ٤ محفظة ٥٧٤ دوسيه ١٧٢٠٠ .

(١٤) محافظ أبحاث : المحفظة ١١٦ برقية من القبوكتخدا الى الخديو بتاريخ ٣ أكتوبر ١٨٨١ .

(١٥) الرافعى : المرجع السابق الذكر ص ١٦٧ .

(١٦) نفسه .

(١٧) المفيد : العدد ٣ فى ١٩ أكتوبر ١٨٨١ .

(١٨) الرافعى : المرجع السابق الذكر ص ١٦٧ .

(١٩) نفسه ص ١٦٨ .

(20) Blue Books, Egypt No. 3 (1882) No. 108 p. 66.

(٢١) الرافعى : المرجع السابق الذكر ص ١٦٧ .

(٢٢) نفسه ص ١٦٨ .

(٢٣) عن تفاصيل هذه المؤامرة أنظر :

أولا : دار الوثائق (أ) محافظ الثورة العرابيـــة ـــ محفظـــة رقم ١٩ دوسيه ١١٠ .

(ب) سجلات الثورة العرابية ـــ سجل رقم ٩٠ ص ١١ .

(جـ) محفوظات مجلس الوزراء ـــ نظارة الداخلية محفظة رقم ٦ .

(د) محفظة ١١٦ أبحاث .

(هـ) محافظ مجلس النواب . محفظة رقم (١) .

ثانيا : دار المحفوظات (و) ملف خدمة عثمان رفقى ـــ محفظة رقـم ٢٩٥ عين ١ دولاب ١٤ دوسيه رقم ٧٨٧٥ .

ثالثا : الجمعية التاريخية (ز)

Parliamentary Papers, Egypt No. 7 (1882).

تلغراف من مالت الى جرانفيل بتاريخ ١٢ أبريل١٨٨٢

رابعا : دار الـــكتب المصرية (ح) أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار ـــ مخطوط ص ٢٥٦ .

وعن رد فعل الدول الأوربية تجاه عرض الخديو للمسألة على السلطان انظر : تيودور روشستين . تاريخ المسألة المصرية ص ١٧٣ــ١٧٤ .

(٢٤) دار الوثائق القومية : محفظة ١٦٣ عابدين ـــ ملف ثابت باشا برقية من الخديو الى ثابت باشا فى ٣ مايو ١٨٨٢ .

(٢٥) محافظ أبحاث ، المحفظة ١١٦ ملف ثابت باشا ـــ ترجمة خطاب من محمد ثابت باشا الى رئيس الديوان الخديو .

(٢٦) ملف ثابت باشا . محفظة ١٦٣ عابدين برقية من خديو مصر الى ثابت باشا بتاريخ ٢٧ جمادى الثانية ١٢٩٩ الموافق ١٦ مايو ١٨٨٢ .

(٢٧) ابراهيم المويلحى : ما هنالك . القاهرة — مطبعة المقطم ١٨٩٦ ص ١١٥ .

(٢٨) ابراهيم المويلحى : المرجع السابق الذكر ص ١١٥ .

(٢٩) محمود الخفيف : أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه . القاهرة — الطبعة الأولى — مطبعة الرسالة ١٩٤٧ ص ٢٢٢ .

(٣٠) المابين كلمة تطلق فى اللغة التركية على الحجرة التى لها بابان باب جهة الحرم وباب جهة الخدمة ثم اختصت هذه الكلمة بالسراى السلطانية ، ابراهيم المويلحى : ماهنالك ص ٢٤ .

(٣١) ملف ثابت باشا — محفظة ١٦٣ عابدين — ترجمة البرقية المؤرخة فى ١٧ رجب ١٢٩٩ المرسلة من ثابت باشا .

(٣٢) ابراهيم المويلحى : المرجع السابق الذكر ص ١١٦ .

(٣٣) الوقائع المصرية : العدد ١٤٢٨ فى ٨ يونية ١٨٨٢ .

(٣٤) محافظ الثورة العرابية — محفظة رقم ٨ ملف ٢٢٠ دوسيه ٥٣/د/٦ وثيقة تحت رقم ١١٢٨ .

(٣٥) نفس الوثيقة .

(٣٦) محافظ الثورة العرابية — محفظة رقم ١٩ دوسيه ١٧ ، وسجلات الثورةالعرابية ، سجل ٩١ ص١٩ تحت عنوان «ضبطيةمصر» .

(٣٧) الرافعى : المرجع السابق الذكر ص ٢٨٧ .

(٣٨) الوقائع المصرية فى ١٠ يونية ١٨٨٢ .

(٣٩) محافظ الثورة العرابية ، محفظة رقم ١٩ دوسيه ١٧ .

(٤٠) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٨٨ .

(41) F. O. 407/22, Inclosure in No. 589, Memorandum by Dervish Pasha.

(٤٢) د. محمد أحمد خلف الله : عبد الله النديم ومذكراته السياسية ص ٦٧ .

(٤٣) الرافعى : المرجع السابق الذكر ص ٢٨٨ .

(44) F. O, 407/22, Inclosure in No. 589, Memorandum by Dervish Pasha.

(45) F. O. 407/22, Inclosure in No. 589, Memorandum by Dervish Pasha.

(46) Blunt : Secret History of the English Occupation of Egypt, London p. 332.

(٤٧) ملف ثابت باشا المحفظة ١٦٣ ترجمة الوثيقة رقم ٨٢ المرسلة من ثابت باشا بالاستانة الى طلعت باشا بتاريخ ٧ يونية ١٨٨٢ .

(٤٨) محافظ الثورة العرابيـــة — محفظة رقم ٨ ملف ٢٢٠ دوســـيه ٥٣/د/٦ وثيقة رقم ١١٠٦ تحت عنوان صورة تلغراف من أحمد عرابي الى بسيم بك من قرناء الحضرة السلطانية الفخيمة بتاريخ ١٨ يوليو ١٨٨٢ .

(٤٩) ملف ثابت باشا — محفظة ١٦٣ عابدين — ارادة الى ثابت باشا بتاريخ ١٦ رمضان ١٢٩٩ .

(٥٠) الرافعي : المرجع السابق الذكر ص ٢٨٥ .

(٥١) ملف ثابت باشا . محفظة ١٦٣ عابدين . تلغراف من خديو مصر الى ثابت باشا .

(٥٢) الرافعي : المرجع السابق ص ٤٢٦ .

(٥٣) محمد مهدى كركوكي : رحلة مصر والسودان ، القـــاهرة — مطبعة الهلال ١٩١٤ ص ٤٨٢ .

(٥٤) ملف ثابت باشا . محفظة ١٦٤ ترجمـــة خطاب من ثابت باشا الى رئيس ديوان الخديو فى ٢٣ شوال ١٢٩٩ .

(٥٥) يتضح من مذكرة كتبها درويش باشا أن انتصار عرابى معناه الحاق الضرر الشديد بسلطة الدولة العثمانية لأنه فى مثل هـــذه الظروف يمكن أن تنفصل بلاد العراق والحجاز والشام عن الدولة .

F. O. 407/22, Inclosure in No. 589, Memorandum by Dervish Pasha.

(٥٦) الجوانب العدد ١١٠٥ فى الثـــلاثاء ٢٩ شـــوال ١٢٩٩ (١٥ سبتمبر ١٨٨٢) .

(٥٧) دار الوثائق : محافظ الثورة العرابية . محفظـــة رقم ٨ ملف ٥٣/د/٦ صورة تلغراف ورد من دولة سعيد باشا رئيس مجلس النظار وناظر خارجية الدولة العلية الى عرابى .

(٥٨) أحمد عرابى : المخطوط السابق الذكر ص ٣٠٩ .

(٥٩) محمد مهرى : المرجع السابق الذكر ص ٤٨٤ .

وقد شن جمال الدين الأفغانى أول هجوما له على الدولة العثمانية بعد اصدارها الفرمان الخاص باتهام عرابى بالعصيان فقال « على الدولة العثمانية أن تتذكر انه لولا فرمانها بعصيان عرابى لمــا سهل على الانجليز أن يدخلوا أرض مصر » .

جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده : العروة الوثقى والثورة التحريرية الــكبرى ص ٣٦٥ .

(٦٠) ملف ثابت باشا . محفظة ١٦٤ عابدين ــ خطاب من ثابتباشا بالاستانة الى ديوان الخديو بمصر . بتاريخ ٦ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٦١) نفس الوثيقة .

٧

علاقات مصر الاقتصادية مع فلسطين

« الاتفاقات الجمركية »

١٨٩٠ ــ ١٩٣٦

د. عبـــد الله عزباوى

مدرس التاريخ الحديث بكلية التربية بالفيوم

جامعة القاهرة

خضعت مصر وفلسطين للحكم العثمانى منــذ أوائل القرن السادس عشر ، حينما فتح السلطان سليم ســورية فى عام ١٥١٦ ومصر فى عام ١٥١٧ . ذلك ان فلسطين لم تشكل فى اثنـــاء الحكم العثمانى وحـدة ادارية خاصـــة ، بل كانت موزعة على عدة وحـــدات ادارية عثمانيــة تشمل الجزء الجنوبى من ســـوريا (١) . ولم يبرز الــكيان الســياسى لفلسطين كوحدة قائمة بذاتها الا بعد تقسيم الولايات العربية التابعة للحكم العثمانى الى مناطق نفوذ بين فرنسا وبريطانيا بموجب اتفاقية « سايكس ــ بيكو » عام ١٩١٦ ، وبعد ذلك عينت الحدود الاقليمية فى معاهـــدات مابعد الحرب (٢) .

وفى ظل الحكم العثمـــانى ، كانت البضـــائع المتبـــادلة بين أجزاء الامبراطورية العثمانية لا يدفع عنها رســـوم جمركية (٣) . وبالتالي فانه لم تكن هنـــاك حواجز جمركية بين مصر وفلسطين فى أثنـــاء خضـــوعهما للحكم العثمانى .

اما بانسبة لعـــلاقات البلدين مع الدول الأجنبية ، فقد كانت خاضعة لأحكام المعاهدات التجارية بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية ، فقــد اكنت هذه المعاهدات تشترط أن تسرى على جميع جهـــات الامبراطورية

العثمانية — ومن بينها مصر وفلسطين — كما كانت تنص على مراعاة مبدأ الدولة الأكثر رعاية . وان كانت كل دولة فى آخر الأمر تمسكت بالحقوق التى كسبتها الدول الأخرى التى سبقتها ، حتى أصبحت هذه الامتيازات التجارية عبئا على ادارة الجمارك العثمانية ، وعلى تجارة الصادرات التركية (٤) وبالتالى تجارة الصادرات المصرية والفلسطينية .

وكانت المعاهدات التى تعقد بين الدولة العثمانية والدول الأوربية ، تنص على النسبة المئوية التى تجبى على البضائع . وقد الحقت بهذه المعاهدات التعاريف الجمركية ، وهى قوائم يبين فيها أنواع البضائع وأثمانها فى جميع الدول . وبمقتضى هذه التعريفات تحصل الرسوم الجمركية . وقد أعتيد تغيير هذه التعريفات كل سبع سنوات ، وقد يستمر العمل بها دون تغيير مع بقاء المعاهدات قائمة (٥) .

وبمقتضى هذه المعاهدات التى بين الدولة العثمانية والدول الأوربية والتى كانت تعطى الأجانب امتيازات ، كان الأجانب المقيمون فى الدولة العثمانية والمتمتعون بتلك الامتيازات يدفعون ضريبة على الواردات مقدارها ٣٪ ، بينما يدفع المسلمون ٤٪ والذميون ٥٪ أما الصادرات فكان الأجانب يدفعون عنها ٣٪ أيضا (٦) .

وقد حاول محمد على فى مصر فى عام ١٨٢٠ زيادة الرسوم الجمركية على الواردات الأجنبية من أجل حماية الصناعات الوطنية الناشئة (٧) . الا أن السلطان العثمانى أصدر اليه فرمانا بوجوب تطبيق المعاهدات الدولية التى عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأجنبية والتى تنص على حق التجار الأجانب فى استيراد السلع فى جميع انحاء الامبراطورية — ومن بينها مصر مقابل دفع رسم قدره ٣٪ من قيمتها ، وقد ترتب على ذلك أن حكومة محمد على لم تتمكن ن احتكار تجارة الوارد ، بالرغم من أنها كانت أكبر مستورد فى مصر ، لكثرة ما كانت تستورده لسد احتياجات مصانعها وبناء السفن ومنشئات الرى (٨) . فقد كان محمد على يتحكم فى نحو ثلث الواردات وقد بلغ ما استوردته الحكومة المصرية لحسابها فى عام ١٨٣٦ ، ٤٠٪ من جملة الواردات (٩) .

واستمرت الرسوم التى تجبيها الدولة العثمانيــة على الواردات ، والتى لا تزيد عن ٣٪ قائمة حتى عام ١٨٣٨ حين عقدت فرنسا مع الدولة العثمانية معاهدة تجارية اشتملت على التوسع فى معاونة التجار الفرنسيين وشركاتهم وما الى ذلك ، وتحصيل رسم على الواردات قــدره ٥٪ من قيمتها وعلى الصادرات ١٢٪ من قيمتها و٥٪ رسم مرور « ترانسيت » على أن تعدل هذه التعريفات مرة فى كل سبع سنوات (١٠) .

وفى نفس العام عقدت بريطانيا مع الدولة العثمانية معاهدة « بلطة ليمان » التجارية التى تقضى بمعاملة بريطانيــا معاملة الدولة المفضلة ، فتدفع الرسوم التى يدفعها غيرها اذا كانت أقل مما فرضته المعاهــدة ، والغــاء الاحتكار ، واقرار حرية التجارة ، وفرض ضريبة قــدرها ١٢٪ على الصادرات و٥٪ على الواردات (١١) .

وهكذا بمقتضى هاتين الاتفاقيتين السابقتين التى عقــدتهما الــدولة العثمانية معاهدة تجارية اشتملت على التوسع فى معاونة التجار الفرنسيين البضائع الأجنبية فى جميع أنحاء الامبراطورية — ومنها مصر وفلسطين — ٥٪ حسب قيمتها ، ورسم الصــادر ١٢٪ حسب قيمتها . ولا شك أن ذلك كان غبنا للتجارة المصرية والفلسطينية ورواجا للتجارة الأوربية (١٢) .

وعلى حين أن الادارة العثمانية فى فلسطين قــد نفذت معاهــدة بلطة ليمان ، فان محمد على فى مصر لم ينفذ هذه المعاهدة ، خاصة وانه قــد قامت فى ذلك الوقت حرب الشام الثالثة بينه وبين السلطان ، فظلت المعاهدة غير نافذة وكثرت شكاوى التجار حتى بعد انتهاء الحرب (١٣) .

وبعد تسوية النزاع بين محمد على والسلطان ، طبقا لمعاهدة لندن « ١٥ يولية ١٨٤٠ » والخط الشريف الذى وقعــه السلطان فى ١٣ فبراير ١٨٤١ ، وفرمان أول يونية ١٨٤١ .. فقد ربطت التسوية مصر بالامبراطورية العثمانية من جديد ، وبالرغم من أنها قــد ميزتها عن الولايات العثمانيــة الأخرى بأن جعلت الحكم وراثيا فى أسرة محمد على طبقا لقاعدة الأرشد فالأرشد (١٤) الا أنها لم تمنح مصراى امتياز يعفى من سريان أحكام الاتفاقات العثمانية عليها (١٥) . وبذلك أصبحت أحكام معاهدة بلطة ليمان ســارية على مصر .

واستمرت مصر وفلسطين فى تنفيذ تلك السياسة الجمركية بمقتضى معاهدة بلطة ليمان حتى عقدت الدولة العثمانية فى ٢٩ ابريل ١٨٦١ معاهدة تجارية مع انجلترا ثم مع عدد كبير من الدول الأوربية مثل فرنسا وايطاليا وبلجيكا وهولندا والبرتغال واسبانيا (١٦) وروسيا والسويد والولايات المتحدة ، وفيها حددت الرسوم الجمركية على الصادرات بواقع ٨٪ من قيمتها على أن يخفض هذا الرسم ١٪ كل سنة حتى يصل الى ١٪ وعندئذ تصبح الرسوم الجمركية على الصادرات بواقع ١٪ من قيمتها . أما الواردات فقد حددت الرسوم الجمركية عليها بواقع ٨٪ من قيمتها ، وفى حالة الاختلاف فى تقدير القيمة يؤخذ الرسم على الواردات عينا (١٧) .

وفى ١٩ يونية ١٨٧٣ وبمقتضى الفرمان الشامل ، حصلت مصر على حق عقد اتفاقات جمركية ومعاهدات تجارية (١٨) دون تعد على معاهدات الباب العالى السياسية (١٩) وان لاتخرج هذه المعاهدات فى أحكامها عما يكون سارية فى سائر الدولة العثمانية (٢٠) .

ورغم حصول مصر على هذا الحق فان الحكومة المصرية ، لم تستطع ان تخرج به الى حيز التنفيذ ، لأن الدول الأوربية لم تكن بحاجة الى عقد اتفاقات خاصة مع الحكومة المصرية فى هذا الصدد لأنها كانت تتمتع فعلا فى مصر بمثل ما تتمتع به فى اىجزء آخر من أجزاء الامبراطورية العثمانية ، من حيث الأوضاع الجمركية ، ولأن الحكومة المصرية لم تكن لتستطيع ان تعطى أكثر ولا أقل مما يكون معمولا به فى بقية أنحاء الدولة العثمانية (٢١) .

ولم تستطع مصر ان تمارس حقها فى عقد الاتفاقات الجمركية مع الدول الأجنبية الا فى عام ١٨٨٤ حينما عقدت مصر مع اليونان اتفاقية جمركية (٢٢) ولم يخرج هذا الاتفاق التجارى مع اليونان عن أحكام معاهدة ١٨٦١ الا من حيث الرسوم الجمركية (٢٣) فقد استمر رسم الصادر عبارة عن ١٪ من قيمة السلع المصدرة ورسم الوارد ٨٪ من قيمة البضائع بوجه عام . الا أن الحكومة المصرية احتفظت لنفسها بحق زيادة الرسم الى ١٦٪ على المواد الكمالية والأنبذة والخمور (٢٤) .

وبعقد مصر الاتفــاق الجمركي مع اليونان في عام ١٨٨٤ ، بــدأت تمارس سياسة جمركية منفصلة عن الدولة العثمانية ، على حين استمرت الادارة العثمانية فى فلسطين مثل غيرها من ولايات الدولة الأخرى مرتبطة بالسياسة الجمركية التى تنتهجها الدولة العثمانيــة . وان استمرت مصر وفلسطين لاتفرضان رسوما جمركية على البضائع المتبادلة بينهما .

وعلى حين عقدت اليونان الاتفاق الجمركى مع مصر عام ١٨٨٤ ، فان الدول الأوربيــة الأخرى ، فضلت التمتع بنصوص معاهــدة ١٨٦١ والتى ينتهى اجلها فى سنة ١٨٨٩ (٣٥) .

وبانتهاء اجل معاهدة ١٨٦١ فى عام ١٨٨٩ بدأت الدول الأوربية فى عقد المعاهدات التجارية مع مصر ، والتعامل بلائحــة الجمــارك المصرية مقابل منحها معاملة الدولة الأولى بالرعاية وكانت انجلترا أولى الدول التى عقدت مع مصر اتفاقا تجاريا بهذا الشأن فى عام ١٨٨٩ (٣٦) . وتبعتها فى ذلك الدول الأوربية الأخرى صاحبة الامتيازات فيما عدا الدنمرك (٣٧) . وكانت ايطاليا آخر دولة تعقد اتفاقية مع مصر فى فبراير سنة١٩٠٩ حيث ينتهى اجلها فى ١٥ فبراير ١٩٣٠ (٣٨) .

وجاءت هذه الاتفاقات على وتيرة الاتفــاق المصرى اليونانى فى عام ١٨٨٤ أى بواقع ٨٪ من قيمة السلع المستوردة و ١ ٪ على جميع السلع المصــدرة (٣٩) .

الاتفاقيــة الجمركية بين مصر والدولة العثمانية فى عام ١٨٩٠

ظلت البضائع المتبادلة بين مصر وفلسطين لا يحصل عليها رســوم جمركية حتى عام ١٨٩٠ حين عقدت ادارة الجمارك المصرية وادارة الجمارك العثمانية اتفاقية تجارية بشأن تنظيم التجارة بين مصر والدولة العثمانيــة بما فيها ولاياتها التابعة (٣٠) .

وأهم ما اشــتمل عليــه هــذا الاتفــاق هو فرض نسبة ٨٪ على الواردات بين البلدين ، على أن لا تسرى أحكام هذا الاتفاق على الدخان

والتمباك والملح والنطرون والحشيش والبارود والأسلحة والمواد الممنوعة (٣١) .

وكان قد اتفق على ان يبدأ العمل بتنفيذ هذه الاتفاقية فى ١٣ أكتوبر ١٨٩٠ ، ونظرا لتأخر توقيعها فى الآستانة الى ١٨ ديسمبر ١٨٩٠ (٣٢) فقد تم الاتفاق على أن يبدأ العمل بتنفيذ احكام هذه الاتفاقية فى أول يناير ١٨٩١ (٣٣) .

ويلاحظ على هذه الاتفاقية أنها لم تأخذ طابع الاتفاقات الدولية حيث انها اتفاقية بين ادارتين جمركيتين هما ادارة الجمارك العثمانية وادارة الجمارك المصرية (٣٤) ويرجع ذلك الى أن مصر كانت فى ذلك الوقت رغم وقوعها تحت الاحتلال البريطانى ، تابعة من الوجهة الرسمية للدولة للدولة العثمانية ، ولا يعقل أن تعقد معاهدة دولية بين دولة واحدى ولاياتها التابعة لها .

كذلك لم تتضمن هذه الاتفاقية تحديدا لمدتها ولا كيفية انهائها أو تعديل احكامها (٣٥) كما هو معمول به فى مثل هذه الاتفاقات الجمركية .

ولكن اذا كانت مصر رغم وقوعها تحت الاحتلال البريطانى منذ عام ١٨٨٢ ، خاضعة من الوجهة الرسمية للدولة العثمانية وتابعة لها ، فلماذا لجأت الدولة العثمانية الى عقد هذه الاتفاقية او تنظيم عملية التبادل التجارى مع مصر ، وهى احدى ولاياتها ؟

والواقع أن الاجابة على هذا السؤال مازالت محيرة ، ربما يكون الدافع الى ذلك هو تخوف الدولة العثمانية من أن تضع بريطانيا العراقيل فى وجه التجارة العثمانية اذا ما استمرت فى احتلالها لمصر ، بحجة عدم وجود اتفاق تجارى بين البلدين ، فأرادت بذلك أن تسد الطريق أمام ادعاءات بريطانيا بهذا الخصوص اذا حاولت اثارتها فى المستقبل .

وربما لجأت الدولة العثمانية الى عقد هذه الاتفاقية مع مصر حتى تفوت على انجلترا فرصة اعادة تصدير البضائع الانجليزية من مصر الى انحاء الامبراطورية العثمانية دون أن تدفع رسوما جمركية عليها ، بحجة

ان ذلك ماهو الا تبادل تجارى بين جزء من الامبراطورية العثمانية وبقية أجزاء الامبراطورية ، ولا يجوز دفع رسوم جمركية عليه .

وبعقد الاتفاقية الجمركية بين مصر والدولة العثمانية عام ١٨٩٠ اصبح رسم الواردات على البضائع بين مصر وفلسطين ٨٪ حسب القيمة .

ولم تكن التجارة بين مصر وفلسطين منذ الفتح العثمانى ذات حجم كبير لكون البلدين زراعيين ، ولتشابه التجارة ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه التجارة بين سوريا وفلسطين متقدمة عن التجارة بين مصر وفلسطين (٣٦) .

وكانت اهم واردات مصر من فلسطين ، الماشية والجمال والخيول والصابون والفواكه وأهمها العنب واللوز والبرتقال . أما صادرات مصر الى فلسطين فكانت ، الأسماك الطازجة ومنتجات الألبان والبيض والبصل والأرز ومنتجات تقطير البترول ، والجلود والمطبوعات (٣٧) والقطن والمنسوجات القطنية والكتان والبصل والخضر الطازجة ، وبعض أصناف الفاكهة (٣٨) .

وقد ظلت الرسوم الجمركية بين مصر وفلسطين على ماهى عليه وفق اتفاقية ١٨٩٠ بين مصر وتركيا ، على الرغم من نجاح الباب العالى فى عام ١٩٠٥ من اضافة ٣٪ على رسم الواردات بعد موافقة الدول العظمى بحيث أصبح الرسوم على الواردات فى جميع انحاء الامبراطورية العثمانية بما فيها فلسطين (٣٩) .

وبعد قيام الحرب العالمية الأولى تشجعت الدولة العثمانية بعد تنازل المانيا والنمسا عن امتيازاتهما بعد اعلان الحرب تأكيدا لحسن نواياهما نحو تركيا ، فسارعت الى الغاء جميع الامتيازات الأجنبية فى أراضيها فأصبحت الرسوم ١٥٪ ثم ٣٠٪ فى عام ١٩١٥ (٤٠) وبالرغم من ذلك استمر لمصر وضع خاص فى معاملاتها مع تركيا ومن ثم مع فلسطين ، فقد ظل رسم الواردات بينهما ٨٪ حسب القيمة .

وفى عام ١٩١٧ احتلت القوات الانجليزية فلسطين ، وتأسست بها ادارة عسكرية على اعتبار انها المنطقة الجنوبية من بلاد العدو المحتلة (٤١) وقد اعادت هذه الادارة العسكرية بعد انتهاء الحرب ، نظام الجمارك الذى كان متبعا قبل الحرب فى الدولة العثمانية والذى كان ينص على فرض رسم الواردات قدره ١١٪ حسب القيمة . كما ابقت على الوضع الخاص بالتجارة بين مصر وتركيا (٤٢) . والذى يقضى بفرض رسم على الواردات فى مصر قدره ٨٪ حسب القيمة .

الانتداب البريطانى على فلسطين
والغاء الوضع الخاص لمصر فى اغسطس ١٩٢٤

استمرت الادارة العسكرية البريطانية فى فلسطين منذ ١٩١٧ وحتى ١٩٢٠ ، بعد ان اقر مؤتمر سان ريمو فى ٢٤ ابريل ١٩٢٠ الانتداب البريطانى على فلسطين (٤٣) وقد رأت الحكومة البريطانية بعد ان كلفت بالانتداب على فلسطين ان تستبدل بالادارة العسكرية البريطانية التى طال عليها الأمر بادارة مدنية (٤٤) تحت اشراف وزارة المستعمرات البريطانية . ولذا فقد احلت فى أول يوليو ١٩٢٠ حكومة مدنية محل الادارة العسكرية (٤٥) .

وقد لعبت الحركة الصهيونية دورا كبيرا فى الضغط على الحكومة البريطانية لنقل الادارة العسكرية فى فلسطين الى ادارة مدنية (٤٦) بحجة ان الادارة العسكرية متحيزة الى جانب العرب ومعادية للحركة الصهيونية (٤٧) .

وكان السر هربرت صمويل أول حاكم مدنى لفلسطين ، وكان يسمى المندوب السامى (٤٨) وكان هربرت صمويل قد أرسل الى فلسطين فى عام ١٩٢٠ كمستشار للشئون المالية والاقتصادية . وعندما استبدل الحكم العسكرى القائم فى فلسطين بادارة مدنية عين مندوبا ساميا . وقد حكم البلاد قرابة خمس سنوات ، وكان يهوديا صهيونيا واحد كبار رجال حزب الأحرار واحد صائغى تصريح بالفور واحد اعضاء وزارة الحرب البريطانية التى أصدرت هذا التصريح (٤٩) .

ولما كان الهدف الاساسى من تعيين هربرت صمويل مندوبا ساميا على فلسطين هو انشاء الوطن القومى اليهودى وارساء قواعد الدولة اليهودية (٥٠) . فقد بذل هربرت صمويل جهده لتحقيق هذا الهدف ،وكانت أهم النواحى التى اهتم بها هو زيادة دخل الدولة عن طريق الرسوم الجمركية . ولما كانت مصر هى الدولة الوحيدة التى تتمتع بامتياز خاص فى هذا المجال كما سبق أن أوضحنا . حيث كان يفرض ٨٪ علىالواردات المصرية حسب القيمة ، فقد رأت الادارة البريطانية فى فلسطين فى عام ١٩٢٣ يساندها هربرت صمويل الغاء هذا الامتياز الذى تتمتع به مصر ، وضرورة مساواة الواردات المصرية مع واردات الدول الأخرى ، أى رفع رسم الواردات على البضائع المصرية من ٨٪ الى ١١٪ مثل غيرها من من الدول الأخرى (٥١) وذلك بحجة أن الظروف التى تمت فيها عقد اتفاقية ١٨٩٠ بين مصر وتركيا لم يعد لها وجود (٥٢) حيث خرجت فلسطين من اطار الامبراطورية العثمانية وأصبحت تحت الانتداب البريطانى منذ عام ١٩٢٠ ، وبالتالى فانه لاينسحب عليها اتفاق ١٨٩٠ الذى كان ينص على فرض رسم قدره ٨٪ حسب القيمة على الواردات بين مصر وجميع أنحاء الامبراطورية العثمانية .

وأرسل هربرت صمويل الى وزارة المستعمرات البريطانية يعرض عليها الأمر (٥٣) ، وأرسلت وزارة المستعمرات بالتالى تستشير المندوب السامى فى مصر (٥٤) ووزارة الخارجية البريطانية ومجلس التجارة البريطانى تطلب منهم رأيهم فى هذا الموضوع (٥٥) .

وقد ردت دار المندوب السامى بالقاهرة على لسان مستر سكوت Scott المستشار القضائى بدار المندوب السامى بالقاهرة ، على وزارة المستعمرات بأنها لا ترى سببا معقولا لعدم اصدار ادارة الجمارك الفلسطينية بيانا تذكر فيه بأن اتفاقية ١٨٩٠ بين مصر والدولة العثمانية غير مناسبة فى ذلك الوقت بين مصر وفلسطين ، وأن من حق ادارة الجمارك الفلسطينية رفع رسم الواردات على البضائع الآتية من مصر من ٨٪ الى ١١٪ وانه ليس هناك ضرورة لمناقشة الحكومة المصرية فى هذا الموضوع (٥٦) .

كذلك وافقت وزارة الخارجية البريطانية ومجلس التجارة البريطانى على اقتراح هربرت صمويل برفع رسم الواردات على السلع الآتيـــة من مصر من ٨٪ الى ١١٪ مثل غيرها من الدول الأخرى . وعنـــدئذ أرسلت وزارة المستعمرات الى هربرت صمويل بموافقتها على اقتراحه الســـابق مع مراعاة أن يتم ذلك عن طريق بيـــان عام يشتمل على تفصيلات الرسوم الجمركية الجديدة (٥٧) ».

وبناء على ذلك ألغت حكومة الانتداب فى فلسطين المعاملة الخاصة التى كانت تتمتع بها البضائع المصرية(٥٨) عندما أصدرت فى ١٥ أغسطس ١٩٢٤ قانون الرسوم الجمركية . وقد عادت هذه السياسة الجمركية التى اتبعتها حكومة الانتداب فى فلسطين بنتائج وخيمـــة على السكان العرب بفلسطين لأن فرض ضرائب جمركية عالية على الواردات أدى الى ارتفاع ثمن المواد التى يستهلكها العرب وهم ليسوا من الأغنياء ومصلحتهم تدعو لأن يستفيدوا من رخص الأسعار بكافة الطرق (٥٩) .

كما قد أدت هذه السياسة الجمركية الجـــديدة التى اتبعتها حكومة الانتداب بفلسطين الى ميل الميزان التجارى لصالح فلسطين (٦٠) .

قانون التعريفـــة الجمركية فى مصر ١٩٣٠

وأثره على العـــلاقات الاقتصـــادية بين البـــلدين

ظل الميزان التجارى بين مصر وفلسطين منذ عام ١٩٢٤ لصالح فلسطين حتى عام ١٩٣٠ ، حين أصدرت الحكومة المصرية قانون التعريفة الجمركية فى ١٤ فبراير ١٩٣٠ الذى أصبح سارى المفعول منذ ١٦ فبراير ١٩٣٠ (٦١)

وكانت الحكومة المصرية قـــد أبدت رغبتها فى عام ١٩٢٣ ، بعـــد حصولها على شىء من الـــكيان السياسى كدولة ذات سيادة ، فى زيادة الرسوم الجمركية على الواردات من ٨٪ الى ١٥٪ فى مقـــابل تعهدها للدول المتعاقدة معها بعدم زيادتها عن ذلك قبل عام ١٩٤٠ . وقد دخلت مصر فى مفاوضات لهذا الغرض مع الممثلين السياسيين لبريطانيا وفرنسا وبلجيكا وايطاليا ، وهى الدول التى كانت الاتفاقات المبرمة معها مازالت

سارية . الا أن هؤلاء الممثلين صرحوا بأن حكوماتهم غير مستعدة لقبول أى رسم يزيد عن ١٢٪ (٦٢) وعندما رأت الحكومة المصرية أن هذا الاتفاق سيحد من حريتها عشر سنوات مقابل فائدة ضئيلة ، قررت الانتظار الى أن تنتهى الاتفاقات القائمة التى كان آخرها الاتفاق الايطالى الذى ينتهى فى ١٥ فبراير ١٩٣٠ (٦٣) .

وفى عام ١٩٢٧ استقدمت الحكومة المصرية ثلاثة من الخبراء الجمركيين وكلفتهم بوضع تعريفة جمركية نموذجية على أحدث الأساليب الحديثة . وقد وضع هؤلاء الخبراء الجمركيون مشروع التعريفة الجمركية مسترشدين بالتعريفة الجمركية التى سبق أن وضعتها عصبة الأمم لتكون نموذجا للدول . وفى ١٤ فبراير ١٩٣٠ كانت هذه التعريفة معدة وصدر بها القانون رقم ٢ لسنة ١٩٣٠ ، وأصبحت سارية المفعول فور انتهاء أجل الاتفاق الايطالى فى ١٥ فبراير ١٩٣٠ (٦٤) .

وكان مما جاء فى هذا القانون فرض ضريبة على الواردات من الأرز والفاكهة والزيوت والصابون قدرها ١٥٪ (٦٥) وقد أدى ذلك الى هبوط واردات مصر من هذه السلع فقد نقصت جملة واردات مصر من الفاكهة من جميع أنحاء العالم بما قيمته ٦٤٣ر٨٣٧ جنيها فى عام ١٩٣٠ الى ٢٥٢ر٣٠٥ جنيها فى عام ١٩٣٤ ، أى الى ما يقرب من النصف ، وكان ذلك نتيجة زيادة الانتاج المحلى من الفاكهة ، فقد زادت المساحة المنزرعة فاكهة فى عام ١٩٣٠ من٤٧ر٣٣٠ فدانا الى ٥٣ر٥١٠ فدانا فى عام ١٩٣٤، وكانت الزيادة بصفة خاصة فى الأصناف التى كانت تستوردها مصر من فلسطين وهى البرتقال والبطيخ . فقد زادت المساحة المنزرعة برتقالا من ١٢٨٦ فدانا عام ١٩٣٠ الى ٢٢٠٧١ فدانا عام ١٩٣٤ .. كما زادت المساحة المنزرعة بطيخا من ٣١٢٤٤ فدانا عام ١٩٣٠ الى ٤٥٢٥٦فدانا عام ١٩٣٤ . كذلك زادت كميات الصابون التى تنتجها المصابن المحلية زيادة كبيرة (٦٦) .

وقد صاحب هبوط واردات مصر من السلع السابقة بصفة عامة الى هبوط واردات مصر من هذه السلع من فلسطين بوجه خاص فقد هبطت

واردات مصر من الصابون الفلسطيني ماقيمته ٢٧٦ ألف جنيه عام١٩٢٥(٦٧) الى ماقيمته ٠٠ر٤٤٧ جنيه عام (٦٨) .

أما الفواكه ، فقد بلغت قيمة واردات مصر من البرتقال الفلسطيني ٧٦ ألف جنيه فى عام ١٩٢٤ (٦٩) ثم هبطت فى عام ١٩٢٧ الى ما قيمته ٤٥ الف جنيه عام ١٩٢٧ (٧٠) أما بعد عام ١٩٣٠ فان ما كانت تستورده مصر منه فقد نقص الى كمية لا تذكر (٧١) .

أما وردات مصر من البطيخ الفلسطيني فقد كانت فى عام ١٩٢٥ ماقيمته ٦٨ الف جنيه (٧٢) وفى عام ١٩٢٦ ماقيمتـه ٩٦ الف جنيـه (٧٣) هبطت فى عام ١٩٣٣ الى ماقيمته ٢٠ الف جنيه فقط (٧٤) .

وأدى هبوط واردات مصر من فلسطين الى ميل الميزان التجـارى لصالح مصر فقد بلغت جملة صـادرات مصر الى فلسطين فى عام ١٩٣٥ ماقيمته نصف مليون ، على حين بلغت جملة صادرات فلسطين الى مصر ماقيمته ٧٥ الف جنيه فقط (٧٥) . وأصبحت مصر فىمقدمة الأقطار الموردة لفلسطين تليها بريطانيـا وذلك على الرغم من أن الميزان التجـارى بين بريطانيا وفلسطين كان فى ذلك الوقت لصالح فلسطن (٧٦) .

وقد أدى هبوط واردات مصر من فلسطين الى الاضرار بمصالح عرب فلسطين الاقتصادية ذلك أن مصانع الصابون فى فلسطين كانت فى ذلك الوقت فى يد العرب (٧٧) كما كانت ٩٠٪ من تجارة زيت الزيتون بأيديهم أيضا (٧٨) . وأدى هبـوط واردات مصر من الصـابون الفلسطيني الى انخفاض أسعار زيت الزيتون فى فلسطين بعد عام ١٩٣٠ (٧٩) مما أدى الى الاضرار بمصالح العرب أصحاب هذه المصانع فى فلسطين (٨٠) .

كما ادى هبوط واردات مصر من فلسطين وخاصـة من البرتقـال والبطيخ بعد عام١٩٣٠ الى الاضرار بمصالح عرب فلسطين الاقتصادية(٨١) الذى كان يعتمد غالبيتهم على الزراعة (٨٢) وتصدير الحاصلات الزراعية. وعلى سبيل المثال فان ما كان يربحه قضاء طولكرم (٨٣) سنويا من تصدير البطيخ الى مصر كان يقدر بنحو ١٢٠ الف جنيه وقـد ذكرت الأهرام ، فى ١١ يونية ١٩٣١ . انه اذا ظلت أبواب مصر مقفلة دونه وبيع محليـا

فان أسعاره لاتوازى أجور نقله من الحقول الى المدن والقرى (٨٤) وقد أدى عدم شراء مصر لبطيخ طولكرم الى توقف الأعمال فى هذا القضاء التى لها صلة بتجارة هذا الصنف وزراعته ، وتأخر تجار البطيخ عن السفر الى مصر وعن أخذ سلفيات لشحن كميات من البطيخ . ولذا فقد سافر بعض زعماء هذا القضاء الى حيفا لحث الهيئات الوطنية على تقديم التقارير اللازمة من جهتهم (٨٥) لحكومة فلسطين .

كذلك عمد عرب فلسطين لمقابلة قنصل مصر بالقدس وشكوا اليه زيادة الضرائب الجمركية المصرية على انتاجهم من البطيخ وما تسببه لهم هذه الزيادة من خسائر فادحة لأن غالبية عرب فلسطين يعيشون على انتاج محاصيلهم الزراعية ، وان محصول البطيخ الفلسطينى مخالف فى موسمه لمحصول نظيره المصرى (٨٦) .

كما عقد عرب فلسطين فى ٨ أكتوبر ١٩٣١ ، اجتماعا فى دار اللجنة التنفيذية العربية فى القدس شهده موسى كاظم الحسينى رئيس اللجنة وعدد من الأعضاء جاء ضمن قراراته استنكار كل محاولة تقوم بها الحكومة بفلسطين لوضع حواجز جمركية بين فلسطين والأقطار العربية الأخرى (٨٧) اعتقادا منهم بأن المصاعب الاقتصادية التى تواجههم وقتئذ ناتجة عن السياسة الجمركية التعسفية التى جرت عليها الادارة البريطانية فى فلسطين ضد جاراتها وخاصة مصر ، التى قابلت هذ الاجراءات باجراءات أخرى مضادة وكان العرب فى فلسطين هم الخاسرون .

ورفع عرب فلسطين فى قضاء نابلس فى أبريل ١٩٣٥ عريضة لحاكم القضاء لعرضها على المندوب السامى البريطانى أو مدير الزراعة فى فلسطين ، من أجل حل أزمة انخفاض أسعار زيت الزيتون والتى كانت الضرائب الجمركية العالية التى فرضتها الحكومة المصرية على الصابون الفلسطينى من أهم أسبابها (٨٨) .

كما توجه بعض أعيان فلسطين الى مصر لمقابلة اسماعيل صدقى أثناء وزارته لمناقشته فى أمر الرسوم الجمركية المصرية على البطيخ الفلسطينى وغيره ، والتى أدت الى الاضرار بمصالح الفلسطينيين ، وقد

اجابهم صدقى بأن مصر تزرع البطيخ وأن مساحته قـد زادت الى نحو عشرين الف فدان بفضل رفع الرسوم الجمركية على استيراده وأنه مع إعترافه بجودة البطيخ الفلسطينى عن مثيله المصرى فان الذى يريد أن يتمتع به فى مصر عليه أن يدفع ثمنه الغالى بعد زيادة الرسوم الجمركية عليه (٨٩) .

كذلك طالبت مجلة الاقتصاديات العربية التى تصدر بالقدس بعودة الحرية الاقتصادية بين مصر وفلسطين والغاء الحواجز الجمركية بينهما ، والقت باللوم بصفة خاصة على قانون التعريفة الجمركية الذى أصدرته مصر فى عام ١٩٣٠ ، ففى مقال لها بعنوان « الروابط الاقتصادية بين مصر وفلسطين » قالت المجلة ان تلك السياسة الجمركية الجائرة ــ تقصد به قانون التعريفة الجمركية المصرى الصادر فى سنة ١٩٣٠ ــ لم تكن فى مصلحة أحد من الطرفين ، وان المصالح الاقتصادية فى قطرين شقيقين متجاورين تجمعهما روابط متعددة وثيقة من اقدم العصور الخالية لابد لها من ان تعود فتوحد بينهما ولو تعنت المتعنتون » (٩٠) كما طالبت المجلة فى نفس المقال أولى الأمر فى البلدين أن يتداركوا رأب الصدع قبل أن يتسع ويستفحل شره (٩١) .

الاتفاق الجمركى بين مصر وفلسطين عام ١٩٣٦

وعندما شعرت حكومة الانتداب الانجليزى فى فلسطين بمدى الخسارة والأضرار الاقتصادية التى لحقت بفلسطين ، بعد عام ١٩٣٠ وتحول الميزان التجارى بين مصر وفلسطين لصالح مصر بدأت تسعى منذ عام ١٩٣١ لدى الحكومة المصرية لخفض الرسوم الجمركية على الواردات الفلسطينية وخاصة البطيخ (٩٢) .

وفى ٢١ مايو ١٩٣٥ زارت مصر بعثة تجارية فلسطينية برئاسة مستر جونسون مدير المالية فى حكومة فلسطين من أجل « المفاوضة مع السلطات المصرية بقصد الوصول الى تسوية تمهيدية بين الفريقين لتخفيض رسوم الوارد على البضائع فى كل من البلدن » (٩٣) .

وكان معظم اعضاء الوفد الفلسطينى من الانجليز واليهود ، فيماعدا شكرى بك التاجى « عضو لجنة التجارة والصناعة الدائمة بفلسطين » (٩٤) وقد انتقد امين سعيد تشكيل هذا الوفد فكتب فى جريدة المقطم يقول « ومع أننا فى مقدمة من يرحب بهذه الحركة ونرجو أن توفق البعثة الفلسطينية فى المهمة التى جاءت لأجلها الا أن هذا لا يمنعنا من ابداء رأى فى الطريقة التى اتبعت فى تأليفها وارسالها الى قطر عربى لتمثل قطرا عربيا فرئيس البعثة وأعضاؤها وخبراؤها من الانكليز واليهود ولا يستثنى من ذلك سوى شكرى بك التاجى فهو العضو العربى فيها » (٩٥)

أما وفد المفاوضات المصرى فكان برئاسة فؤاد كمال بك وكيل وزارة المالية (٩٦) .

وقد كون الوفدان المصرى والفلسطينى لجنة للوصول الى اتفاق تمهيدى بين البلدين وكانت تعترض هذه اللجنة عدة صعوبات من أجل التوصل الى هذا الاتفاق بسبب عدم وجود مايمكن أن تستورده مصر من فلسطين ، ذلك أن البعثة الفلسطينية كانت تعرض أصنافا من المنتجات الزراعية والصناعية فى فلسطين على حين أن اللجنة المصرية كانت ترى أنه يوجد شبيه لهذه المنتجات فى مصر (٩٧) وانه اذا اضطرت مصر الى استيراد بعض هذه السلع أو زيادة وارداتها منها فان ذلك سيضر بالانتاج المحلى المصرى من هذه المنتجات (٩٨) .

وقد دار البحث فى هذه المفاوضات حول استيراد مصر للبرتقال الفلسطينى فى الأشهر الأخيرة من الموسم حيث يكون موسمه قد انتهى فى مصر ، ذلك بالرغم من أن مساحته قد زادت فى مصر وزاد الصادر منه الى الخارج (٩٩) .

وقد خاضت بعض الصحف المصرية فى موضوع المفاوضات التجارية بين مصر وفلسطين فطالبت المقطم بمراعاة التغيرات الاقتصادية على القطرين عند وضع الاتفاق بينهما ، وأنه يجب دراسة ما يمكن أن يقدمه كل قطر للآخر (١٠٠) كما طالب أمين سعيد فى مقاله الذى أشرنا اليه من قبل فى المقطم بعدم تشدد الحكومة المصرية مع الوفد الفلسطينى حتى

تعود العلاقات التجارية بين البلدين الى ما كانت عليه من قبل ، حيث « أضر عدم تنظيمها بالفلاحين العرب الفلسطينيين اكثر من سواهم ، كما أضر ببعض المنتجين المصريين الذين كانوا يجدون فى فلسطين سوقاواسعة لتصريف منتجاتهم » (١٠١) .

وبعد المباحثات بين الوفدين ، الفلسطينى والمصرى تم الاتفاق بينهما على التوقيع على المشروع التمهيدى للمعاهدة . وقد وقع عليه كل من فؤاد كمال بك رئيس الوفد المصرى بالنيابة عن الحكومة المصرية ، ومستر جونسون رئيس الوفد الفلسطينى بالنيابة عن حكومة الانتداب بفلسطين (١٠٢) .

ويتلخص هذا الاتفاق الجمركى التمهيدى الذىتم بين مصر وفلسطين على تخفيض الرسم الجمركى المفروض على الصابون الفلسطينى فى مصر ، وتسهيل تصدير البرتقال اليافى والبطيخ الفسلطينى الى مصر فى نظير تسهيل تصدير بعض الفاكهة المصرية الى فلسطين (١٠٣) .

وبخصوص تصدير الصابون الفلسطينى الى مصر ، فقد تم الاتفاق على أن يسرى التخفيض على الرسوم الجمركية المفروضة عليه بعد ستة اشهر من تاريخ التوقيع على المعاهدة (١٠٤) على أن يكون هذا التخفيض بنسبة ضئيلة تساعد على ترويجه فى مصر دون الاضرار بصناعةالصابون فى مصر (١٠٥) .

اما بالنسبة للبرتقال الفلسطينى فقد تم الاتفاق على أن تخفض الرسوم الجمركية على الوارد منه الى مصر ابتداء من شهر ابريل حيث يكون موسم البرتقال المصرى فى نهايته (١٠٦) .

وفيما يختص بالبطيخ فقد تم الاتفاق على تبادل هذا الصنف بين القطرين على أساس التعريفة الجمركية الموجودة ، على أن تصدر مصر البطيخ الى فلسطين فى شهرى مايو يونية وتصدره فلسطين الى مصر فى شهرى يولية واغسطس .

كما تم الاتفاق على تصدير المانجو المصرية الى فلسطين بعد ان كانت السلطات الفلسطينية تمنع دخولها اليها من قبل ، كما تم الاتفاق كذلك على تصدير الخضر المصرية الى فلسطين فى الأوقات الملائمة (١٠٧) .

وقد تم توقيع الاتفاقية النهائية بين مصر وفلسطين فى أغسطس ١٩٣٦ ، وهى لا تختلف عن الاتفاق التمهيدى السابق . وقد جعلت هذه الاتفاقية مؤقتة لسنة واحدة ثم جددت لسنة أخرى . وقد ادت هذه الاتفاقية الى تنشيط التجارة بين البلدين (١٠٨) .

الحواشى

(١) لمزيد من التفصيلات عن التقسيم الادارى لسوريا فى العهد العثمانى انظر ، أحمد عزت عبد الكريم ، التقسيم الادارى لسوريا فى العهد العثمانى. حولية كلية الآداب جامعة عين شمس ، مجلد ١ ، سنة ١٩٥٢ ، عبد العزيز محمد عوض ، الادارة العثمانية فى ولاية سوريا ١٨٦٤ ــ ١٩١٤ دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ ، فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان ، جـ ٢ ترجمة كمال اليازجى ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٩ ، يوسف الحكيم سوريا والعهد العثمانى، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٦ .

(٢) عبد العزيز محمد عوض ، فلسطين فى أواخر العهد العثمانى ملامح اجتماعية واقتصادية ، بحث منشور فى كتاب « تقدير وعرفان للاستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم » ص ٢٤١ ، مطبعة جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٧ .

(٣) أحمد أحمد الحتة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، ص ٣١٠ مكتبة النهضة المصرية .

(٤) أمين مصطفى عفيفى عبد الله ، تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث ص ٢٨٦ ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٦) احمد الحته ، المصدر السابق ، ص ٣١٣ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٣١٤ .

(٨) على لطفى ، التطور الاقتصادى ، ص ٢٩٩ . القاهرة ١٩٧٠ .

(٩) راشد البراوى ومحمد حمزة عليش ، التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ص ٨٥ ، الطبعة الخامسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٤ .

(١٠) محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ ٥ ، ص ٩٥ــ٩٦ ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٩٢٧ .

(١١) أمين مصطفى عفيفى ، المصدر السابق ، ص ٣٠٥ــ٣٠٦ .

(١٢) المصدر السابق ، ص ٣٠١ .

(١٣) المصدر السابق ، ص ٣٠٦ .

(١٤) احمد عبد الرحيم مصطفى ، علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل ، ص ٥ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ .

(١٥) محمود متولى ، الأصول التاريخية للراسمالية المصرية وتطورها ص ١٥٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ .

(١٦) أمين مصطفى عفيفى ، المصدر السابق ص ٣٠٩ ، على لطفى المصدر السابق ص ٣١٠ .

(١٧) محمد كرد على ، المصدر السابق ، ص ٩٦ .

(١٨) المصدر السابق ص ٩٦ ، عبد العزيز عوض ، الادارة العثمانية فى ولاية سوريا ص ١٧٩ ، أمين مصطفى عفيفى ، المصدر السابق ص ٣٠٩ ، أحمد الحنه ، المصدر السابق ، ص ٣١٤ ، على لطفى ، المصدر السابق ص ٣١١ .

(١٩) احمد عبد الرحيم مصطفى ، المصدر السابق ص ١٧٩ .

(٢٠) المصدر السابق ص ١٨١ .

(٢١) محمود متولى ، المصدر السابق ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٢٢) المصدر السابق ص ١٥٤ .

(٢٣) راشد البراوى ، ومحمد حمزة عليش ، المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

(٢٤) نجيب يوسف ، علم المالية العامة والتشريع المالى ، ص ١٠٩ ، القاهرة ١٩٤٦ .

(٢٥) راشد البراوى ومحمد حمزة عليش ، المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

(٢٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٢٧) نجيب يوسف ، المصدر السابق ص ١٩٠ .

(٢٨) محمود متولى ، المصدر السابق ص ١٥٤ .

(٢٩) المصدر السابق الصفحة نفسها .

(٣٠) اتفاقية بين أمانة الرسومات الآستانة وبين ادارة عموم الجمارك المصرية الوقائع المصرية ٧ فبراير ١٨٩١ ، ص ٣٠٩ — ٣١٠ أنظر الملحق رقم ١ .

(٣١) المصدر السابق ، ص ٣١٠ .

(٣٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣٣) اعلان ملحق الى الاتفاقية المؤرخة فى ١٨ دسمبر ١٨٩٠ المعقودة بين أمانات الرسوم العثمانية وادارة عموم الكمارك المصرية ، الوقائع المصرية ٧ فبراير ١٨٩٠ ص ٣١٠ أنظر الملحق رقم ٢ .

(34) F. O, 371/9016, E 7844, Dated, July 30, 1923.

(35) Ibid.

(٣٦) سعيد حمادة ، النظام الاقتصادى فى فلسطين ، ص ٥٦٣، المطبعة الاميركانية ، بيروت ١٩٣٩ .

(٣٧) الاهرام ، ٢٦ مايو ١٩٣٥ مقال بعنوان المبادلات التجارية بين مصر وفلسطين .

(٣٨) مجلة الاقتصاديات العربية ، آيار « مايو » ١٩٣٥ ص ١ مقال بعنوان الروابط الاقتصادية بين مصر وفلسطين .

(٣٩) محمد كرد على ، المصدر السابق ص ٩٦ .

(٤٠) عبد العزيز عرض ، فلسطين فى أواخر العهد العثمانى ، ملامح اجتماعية واقتصادية ص ٢٣٤ .

(٤١) محمد انيس والسيد رجب حراز ، الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٥٣٥ دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٧ .

(٤٢) سعيد حماده ، المصدر السابق ص ٥٣٥ .

(٤٤) عادل غنيم ، الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ١٨٩ ، الهيئة العامة للكتاب المصرى القاهرة ١٩٧٤ .

(٤٥) محمد انيس والسيد رجب حراز ، المصدر السابق، ص٥٣٥ .

(٤٦) كامل محمود خله ، فلسطين والانتداب البريطانى ، ١٩٢٢ ــ ١٩٣٩ ص ٧٧ ، بيروت ١٩٧٤ .

(٤٧) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(٤٨) عادل غنيم ، المصدر السابق ، ص ٧٣ .

(٤٩) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٥٠) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(51) F. O, 371/9016, E 7844 From Sir Herbert Samul to Lord Duke, June, 15, 1923.

(52) Ibid.

(53) F. O, 371/9016, E 10443, From Colonial Office to the High Commissioner for Palestine, Oct. 23, 1923.

(54) F. O, 371/9016, E 9934, From M. R. Scott to Curzon, Spt, 27, 1923.

(55) Op. Cit.

(56) Op. Cit.

(57) F. O, 371/9016, E 10443, From Coloniel Off ice to the High Commissioner for Palestine, Oct, 23, 1923.

سعيد حمادة ، المصدر السابق ص ٥٦٨ .

(٥٩) ابراهيم رضوان الجندى ، سياسة الانتداب البريطانى الاقتصادية فى فلسطين ص ٢٠٤ ، رسالة لنيل رسالة الماجستير ، كلية الآداب — جامعة الاسكندرية ١٩٧٥ غير منشورة .

(٦٠) عادل حامد الجادر ، أثر قوانين الانتداب البريطانى فى اقامة الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ، ص٣١٩ .مركز الدراسات الفلسطينية جامعة بغداد ١٩٧٦ .

(٦١) الاهرام ، ٢٦ مايو ١٩٣٥ ، مقال بعنوان المبادلات التجارية بين مصر وفلسطين مجلة الاقتصاديات العربية ٢٨ آذار « مارس » ١٩٣٦ ص ١ .

(٦٢) نجيب يوسف ، المصدر السابق ص ١٩٢ .

(٦٣) أمين مصطفى عفيفى ، المصدر السابق ص ٣١٣ .

(٦٤) محمود متولى ، المصدر السابق ص ١٥٥ .

(٦٥) على لطفى ، المصدر السابق ص ٣٢٣ .

(٦٦) الاهرام ، ٢٦ مايو ١٩٣٥ .

(٦٧) تقرير الجمارك عن تجارة مصر الخارجية ، عام ١٩٢٥ صحيفة الاقتصاد والتجارة ١ مارس ١٩٢٧ ، ص ١٣٢ .

(٦٨) مجلة الاقتصاديات العربية ، آيار « مايو » ١٩٣٥ ، القدس ، مقال بعنوان « الروابط الاقتصادية بين مصر وفلسطين » ص ١ .

(٦٩) تقرير الجمارك عن تجارة مصر الخارجية عام ١٩٢٤ ، مجلة صحيفة الاقتصاد والتجارة أغسطس ١٩٢٥ ص ٣٩٤ .

(٧٠) تقرير الجمارك عن تجارة مصر الخارجية عام ١٩٢٥ ، صحيفة الاقتصاد والتجارة ، مارس ١٩٢٧ ص ١٣٥ .

(٧١) مجلة الاقتصاديات العربية ، « مايو » ١٩٣٥ مقال بعنوان الروابط الاقتصادية بين مصر وفلسطين ص ١ .

(٧٢) تقرير الجمارك عن تجارة مصر الخارجية عام ١٩٢٥ .

(٧٣) تقرير تجارة مصر الخارجية عام ١٩٢٦ من تقرير مصلحة الجمارك ، صحيفة الاقتصاد والتجارة سبتمبر ١٩٢٧ ص ٣٩٢ .

(٧٤) مجلة الاقتصاديات العربية ، آيار « مايو » ١٩٣٥ ص ١ .

(٧٥) تصريح رئيس البعثة التجارية الفلسطينية الى مصر فى ٢١ مايو ١٩٣٥ الى الصحفيين بالقاهرة ، المصدر السابق ، ١٥ حزيران « يونيو » ١٩٣٥ ص ٣٠ .

(٧٦) المصدر السابق ، آيار « مايو » ١٩٣٥ ص ٢ .

(٧٧) ابراهيم رضوان الجندى ، المصدر السابق ص ٢٠٧ .

(٧٨) مجلة الاقتصاديات العربية ، ١٥ نيسان « ابريل » ١٩٣٥ ص ٣٣ .

(٧٩) المصدر السابق ص ٣٢ .

(٨٠) ابراهيم رضوان الجندى ، المصدر السابق ص ٢٠٧ .

(٨١) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٨٢) عبد العزيز عوض ، فلسطين فى أواخر العهد العثمانى ص ٢٣٣ .

(٨٣) طولكرم هى احدى مدن نابلس وتبعد عنها مسافة ٢٩ كيلومتر . مصطفى مراد الدباغ بلادنا فلسطين ، الجزء الأول ، القسم الأول ، يافا ، ١٩٤٧ .

(٨٤) الاهرام ، ١١ يونية ١٩٣١ .

(٨٥) المصدر السابق .

(٨٦) ابراهيم رضوان الجندى ، المصدر السابق ص ٢٠٧ .

(٨٧) المقطم ٩ أكتوبر ١٩٣١ .

(٨٨) مجلة الاقتصاديات العربية ١٥ نيسان «أبريل» ١٩٣٥ ص٣٢ .

(٨٩) المقطم ٢٦ مايو ١٩٣٥ .

(٩٠) مجلة الاقتصاديات العربية آيار « مايو » ١٩٣٥ ص ٣ .

(٩١) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٩٢) الاهرام ، ١١ يونية ١٩٣١ .

(٩٣) بيـــان البعثة الفلسطينية التجارية ، المقطم ٢٤ مايو ١٩٣٥ كما صرح رئيس البعثة الفلسطينية الى الصحفيين بأن « البعثة تواقة الى تحسين العلاقات التجارية بين مصر وفلسطين لفائدة البلدين وأن التبادل التجارى بين القطرين المتجاورين يجرى الآن بحالة غير مرضية فان فلسطين تستورد من مصر ســنويا بضــائع بنصف مليون جنيه ولــكنها لا تصــدر الى مصر الا بمبلغ ٧٥ الف جنيــه والأمل كبير فى الوصول الى تســوية تساعد على تعادل هذا التبادل التجارى لاسيما أن فى فلسطين مصنوعات لا يوجد مثلها فى مصر فلماذا لا نجد ســوقا لها فيهـــا » « أنظر مجلة الاقتصاديات العربية » ١٥ حزيران « يونيو » ١٩٣٣ ، ص ٣٠ .

(٩٤) المقطم ٢٤ مايو ١٩٣٥ مجلة الاقتصاديات العربيـــة ١ حزيران « يونيو » ١٩٣٥ ، ص ٣١ .

(٩٥) المقطم ٣٠ مايو ١٩٣٥ ، كلمة فى البعثة الفلسطينية ، بقلم أمين سعيد .

(٩٦) مجلة الاقتصاديات العربيـــة ، ١٥ حزيران « مايو » ١٩٣٥ ص ٣١ .

(٩٧) الاهرام ، ٢٨ مايو ١٩٣٥ .

(٩٨) الاهرام ، ٢٦ مايو ١٩٣٥ .

(٩٩) الاهرام ، ٢٨ مايو ١٩٣٥ .

(١٠٠) المقطم ، ٢٦ مايو ١٩٣٥ .

(١٠١) المقطم ، ٣٠ مايو ١٩٣٥ .

(١٠٢) الاهرام ، ٣٠ مايو ١٩٣٥ .

(١٠٣) مجلة الاقتصاديات العربيـــة ١٥ حزيران « مايو » ١٩٣٥ ، ص ٣١ .

(١٠٤) الاهرام ، ٣٠ مايو ١٩٣٥ .

(١٠٥) مجلة الاقتصاديات العربيـــة ١٥ حزيران « يونيو » ١٩٣٥ ، ص ٣١ .

(١٠٦) الاهرام ، ٣٠ مايو ١٩٣٥ .

(١٠٧) مجلة الاقتصـــاديات العربيـــة ، ١٥ حزيران « يونيو »١٩٣٥ ص ٣١ .

(١٠٨) سعيد حمادة ، النظام الاقتصادى فى فلسطين ، ص ٥٦٤ .

ملحق رقم (١)

اتفاقية بين امانة الرسومات بالاستانة وبين ادارة عموم الجمارك المصرية

« الوقائع المصرية ٧ فبراير ١٨٩١ »

حيث انه مقتض حسب الاختلافات المتواترة الحاصلة بين أمانة الرسومات وادارة عموم الجمارك المصرية بشأن تحصيل رسوم الكمرك .

وحيث أنه من أهم صوالح الادارتين المذكورتين الاعتناء والاهتمام بتأمين ووقاية ايراداتهما على المبدا المقرر منهما القائم بوجوب تحصيل الرسوم الكمركية فى محل استهلاك البضائع وذلك بدون اخلال بأحكام المعاهدات وبناء على الارادة الشاهانية الصادرة فى ٤ رمضان سنة ١٣٠٧ الموافق ١١ نيسان سنة ١٣٠٦ «١٨٩٠» « بالتصديق على المبدا المذكور قد تقرر ماهو آت :

بند اول

ان البضائع الأجنبية المصدرة من مصر الى قسم من اقسام المملكة العثمانية او احدى الايالات الشاهانية الى مصر ترفق كالماضى برفتية حسبية مثبتة لدفع الرسوم عنها ، ولدى وصول هذه البضائع الى المحل المقصود المقتضى بيانه . بالرفتية

فالكمرك المحلى يقدر رسم الدخول على تلك البضائع بحسب أصوله المرعية الاجراء فاذا كانت تلك البضائع مما يؤخذ عليه رسوم بحسب القيمة فيقدر الكمرك تلك القيمة عند استلام البضاعة واذا كانت من البضائع التى لها تعريفة فتقدر رسومها بحسب صنفتها المبينة بتلك التعريفة وعليه فاذا اتضح للكمرك الوارد اليه البضاعة أن الرسوم

المقتضى تحصيلها على تلك البضاعة هى أكثر من الرسوم المبينة بالرفتية التى أجرى تحصيلها عنها كمرك التصدير فتحصل الفرق لحسابه واذا اتضح له أنها أقل منها فلا يلتزم برد الفرق لصاحبها .

بنـــد ثانى

كل من الادارتين يفتح حسابا جاريا خصوصيا تقيد فيه باعتناء الرفاتى التى تعطى حسب ماتوضح بالبند السابق وبهذا الحساب تقيد لتركيا على حساب مصر الرسوم المدفوعة باحدى المين المصرية عن البضائع المتصدرة لاحدى الجهات العثمانية وبعكس ذلك تقيد لحساب مصر على حساب تركيا الرسوم المدفوعة باحدى الاساكل العثمانية عن البضائع المتصدرة لاحدى الجهات المصرية ويكون القيد فى الحساب المذكور بحسب القواعد الآتية :

اذا كانت الرسوم الموضحة بالرفتية هى أقل من الرسوم التى يقدرها كمرك الجهة الواردة اليها البضاعة أو معادلة لها تقيد كما هى بالحساب الجارى واذا كانت أزيد منها فيصير قيدها بعد خصم الزيادة التى تظهر أو بهذه الحالة كل من الادارتين يحصل على مايخصه قانونا كما لو كانت البضائع التى استهلكت فى دائرته قد وردت له راسا من بلاد أجنبية وفى كل ثلاثة شهور تعمل كل من الادارتين موازنة الأصول والخصوم من واقع حسابها الجارى فالادارة التى تكون استولت على المبلغ الأكبر تدفع الفرق تماما الى الادارة الأخرى بعمله ذهب « جنيه عثمانى أو جنيه مصرى حسب الحالة » أما الزيادات الناتجة من فرق التثمين أو التعريفة وتكون استولت عليها احدى الادارتين كما توضح بالبند السابق فلا يصير درجها بالحساب الجارى بل تبقى حقا للادارة التى أجرت تحصيلها .

بنـــد ثالث

يقرر من الآن فصاعدا رسم كمركى على محصولات تركيا ومصر الزراعية والصناعية انما يكون ذلك فى الجهة التى تستهلك فيها تلك

المحصولات وبحسب الطريقة الأكثر أرجحية المتبعة بتركيا ومصر فى حق البضائع الأجنبية المماثلة لها أى أن البضائع تثمن اذا كان ما يماثلها من البضائع الأجنبية جاريا أخذ الرسوم عليه بحسب القيمة ويدفع عنها رسوم بحسب التعريفة الأكثر أرجحية اذا كان ما يماثلها من البضائع الأجنبية جاريا أخذ الرسوم عليه بواقع التعاريف .

والرسوم الكمركية المقتضى تحصليها بحسب القيمة سواء كان فى القطر المصرى أو فى باقى الممالك العثمانية تكون بواقع المائة ٨ وذلك لحين الاجراء بمقتضى الاتفاقيات التجارية الجديدة .

أما الرفاتى التى كان جاريا ارفاقها بالبضائع المحلية فتستبدل باعلام خبر مشتملة على كل الايضاحات الضرورية لاثبات أصل وحقيقة البضائع المتصدرة .

بند رابع

لا يضرب رسم تصدير على محصولات تركيا ومصر الزراعية والصناعية عند ارسالها بين الجهتين .

بند خامس

لا تسرى أحكام هذه الاتفاقية على الدخان والتنباك بكافة أشكالهما ولا على الملح والنطرون والحشيش والبارود والأسلحة القاطعة والحربية ولا على صنف من الموارد الممنوعة أو التى لها أصول خصوصية فى تركيا أو فى مصر .

بند سادس

تعمل لائحة خصوصية بمعرفة أمانة الرسومات وادارة عموم الكمارك المصرية تبين فيها كيفية اعطاء الرفاتى عن البضائع الأجنبية والشروط اللازمة لقبول تلك البضائع مع بيان هيئة الدفاتر التى تخصص للحساب الجارى وكيفية اجراء القيد فيها .

بنـــد سـابع

يكون العمل بموجب أحكام هذه الاتفاقية اعتبارا من ١٣ اكتوبر سنة ٩٠ ولا يسرى مفعولها الا على البضائع التى ترد للاساكل العثمانيـــة أو المصرية مرفوقة برفاتى أو اعلام خبر من ابتداء التاريخ المذكور .

بنـــد ثامن

تكون ملغاة كل الأحكام المخالفة لهذه الاتفاقية

عمل بالاستانة على نسختين فى ١٨ جمادى الأولى سنة ٣٠٨ الموافق ١٨ دسمبر سنة ٩٠ (٦ كانون أول سنة ١٣٠٦)

قد تصدق على هذه الاتفاقية بارادة شاهانية تاريخها ٢١ ربيع الثانى سنة ١٣٠٨ ــ الموافق ٢٢ تشرين الثانى سنة ١٣٠٦ .

مدير أمانة الرسومات	عن مدير عموم الكمارك المصرية
(حسن فهمى)	(أورسستين)
(خــتم)	(خــتم)

ملحــق رقــم (٢)

اعلان ملحق الى الاتفاقية المؤرخة فى ١٨ دسمبر سنة ١٨٩٠
المعقودة بين أمانات الرسوم العثمانية وادارة عموم الــكمارك المصرية
« الوقائع المصرية ٧ فبراير ١٨٩١ »

حيث أن البند السابع من الاتفاقية المذكورة يقضى باتبـــاع الاجراء بموجبها اعتبارا من ١٣ أكتوبر سنة ١٨٩٠ .

وحيث أن التاريخ المذكور قد مضى وأنه من الضرورى تحديد ميعاد لتبليغ التعليمات الناتجة عن الاتفاقية المذكورة لسائر الكمارك العثمانية .

وحيث أنه لا يمكن الاتيان بأى تغيير كان لاتفاقية مصدق عليها بارادة شاهانية فأمانات الرسوم العثمانية وادارة عموم الكمارك المصرية قد اتفقنا على تنفيذ مفعول الاتفاقية المحكى عنها وملحقاتها من ابتداء أول ينـــاير سنة ١٨٩١ .

حرر على نسختين بالاستانة فى ١٨ دسمبر ١٨٩٠ — (كانون أول سنة ١٣٠٦) .

المصـــادر

اولا : الوثائق :

(أ) وثائق غير منشورة :

Public Recopd Office .

F. O, 371/Vols : 9016, E 7844, 9934, 10443.

(ب) وثائق منشورة :

١ ــ اتفاقية بين أمانة الرســومات بالاســتانة وبين ادارة عموم الـسكمارك المصرية (الوقائع المصرية ، ٧ فبراير ١٨٩١) .

٢ ــ اعلان ملحق الى الاتفاقية المؤرخة فى ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٠ ــ المعقودة بين أمانات الرسوم العثمانية وادارة عموم الكمارك المصرية (الوقائع المصرية ٧ فبراير ١٨٩١) .

٣ ــ تقرير الجمارك عن تجارة مصر الخارجية عام ١٩٢٤ ، صحيفة الاقتصاد والتجارة (أغسطس ١٩٢٥) .

٤ ــ تقرير الجمارك عن تجارة مصر الخارجية عام ١٩٢٥ (صحيفة الاقتصاد والتجارة مارس ١٩٢٧) .

٥ ــ تجارة مصر الخارجية عام ١٩٢٦ ، من تقرير مصلحة الجمارك المصرية (صحيفة الاقتصاد والتجارة مارس ١٩٢٧) .

ثانيا : المراجع العربيـــة :

١ ــ ابراهيم رضــوان الجنــدى ، ســياسة الانتداب البريطانى الاقتصادية فى فلسطين رسالة لنيل درجة الماجستير ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ١٩٧٥ ، غير منشورة .

٢ ــ أحمد أحمد الحتة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، طبعة ثانية النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٨ .

٣ ـ أحمد عبد الرحيم مصطفى ، علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل دار المعارف القاهرة ١٩٦٧ .

٤ ـ أحمد عزت عبد الكريم التقسيم الادارى لسورية فى العهد العثمانى ، ـ حولية كلية الآداب ، جامعة عين شمس مجلد « ١ ، مايو ١٩٥١ » .

٥ ـ أمين مصطفى عفيفى عبد الله ، تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث الطبعة الثالثة ، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٥٤ .

٦ ـ راشد البراوى ومحمد حمزه عليش ، التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ، الطبعة الخامسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٤ .

٧ ـ سعيد حمادة ، النظام الاقتصادى فى فلسطين ، المطبعة الأميركانية ، بيروت ١٩٣٩ .

٨ ـ عادل حامد الجادر ، أثر قوانين الانتداب البريطانى فى اقامة الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ، مركز الدراسات الفلسطينية ، جامعة بغداد ١٩٧٦ .

٩ ـ عادل حسن غنيم ، الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٧ ـ ١٩٣١ ، الهيئة العامة للكتاب المصرى ، القاهرة ١٩٧٤ .

١٠ ـ عبد العزيز عوض ، فلسطين فى أواخر العهد العثمانى ـ ملامح اجتماعية واقتصادية بحث منشور فى كتاب « تقدير وعرفان للاستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم » بمناسبة مرور عشرين عاما على سمنار التاريخ الحديث بجامعة عين شمس ، مطبعة جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٧ .

١١ــ عبد العزيز عوض ، الادارة العثمانية فى ولاية سوريا ١٨٦٤ ــ ١٩١٤ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ .

١٢ ــ على لطفى ، التطور الاقتصادى ، القاهرة ١٩٧٠ .

١٣ــ فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان ، الجزء الثــانى ، ترجمة كمال اليازجى ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٩ .

١٤ــ كامل محمود خله ، فلسطين والانتــداب البريطانى ١٩٢٢ ــ ١٩٣٩ ، بيروت ١٩٧٤ .

١٥ــ محمد أنيس والسيد رجب حراز ، الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٧ .

١٦ــ محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ ٥ ، مطبعــة الترقى ، دمشق ١٩٢٧ .

١٧ــ محمود متولى ، الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ .

١٨ــ مصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين الجزء الأول القســم الأول ، يافا ١٩٤٧ .

١٩ــ نجيب يوسف ، علم المالية العامة والتشريع المالى ، القاهرة ١٩٤٦ .

٢٠ــ يوسف الحكيم ، سوريا والعهد العثمانى ، المطبعة القانونية، بيروت ١٩٦٦ .

الــــدوريات :

١ ــ الأهرام ، أعوام ١٩٣١ ، ١٩٣٥ .

٢ ــ صحيفة الاقتصاد والتجارة أعوام ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ .

٣ ــ مجلة الاقتصاديات العربية أعوام ١٩٣٥ ــ ١٩٣٦ .

٤ ــ المقطم ، أعوام ١٩٣١ ، ١٩٣٥ .

٥ ــ الوقائع المصرية ، فبراير ١٨٩١ .

٨

أضواء على تاريخ الهوارة فى صعيد مصر

بقلم الدكتور نسيم مقار

وجه الأهمية فى دراسة تاريخ الهوارة :

لقد نزحت الى مصر بعد ظهور الاسلام قبائل عربية كثيرة ، بيد أنه لم يقدر لقبيلة منها ، وبخاصة القبائل التى نزلت بصعيد مصر ، أن تحظى بالشهرة والمكانة التى حظيت بها قبيلة الهوارة فى الصعيد بل لم يقدر لواحدة منها أن تبسط نفوذها وسلطانها على مناطق واسعة من الصعيد بمثل ما فعلت هذه القبيلة .

فقد حكم شيخ العرب همام زعيم قبيلة الهوارة الصعيد جنوبى اسيوط حتى اسنا فترة من الزمن ، بل لقد امتد نفوذه الى أبعد من ذلك حتى بلاد النوبة (١) ، وأقام دولة فى صعيد مصر عرفت فى التاريخ باسم دولة شيخ العرب همام استمرت مالا يقل عن أربع سنوات (١٧٦٥ — ١٧٦٩ م) .

والباحث فى تاريخ الهوارة يجد ان نفوذهم فى الصعيد قد استند الى دعامتين رئيسيتين : احداهما تتمثل فى نشاطهم البارز فى زراعة الأرض ، ومثابرتهم — دون سائر القبائل الأخرى — فى استصلاح الأراضى الصحراوية ، التى أمكنهم استغلال المساحات الكبيرة منها فى الانتاج الزراعى ، والدعامة الأخرى تتمثل فى شهرتهم الواسعة فى تربية الخيول ، وامتلاك الكثير منها ، وقد كانت عونا لهم فى صراعهم مع المماليك والحكومة المركزية من أجل السلطة والنفوذ .

والهوارة قبل ان يصلوا الى حكم الصعيد دخلوا فى صراع مع أمراء المماليك ونازعوهم السلطة ، وقاموا بالثورات على الحكومة المركزية فى القاهرة ، واشتبكوا فى حروب معها ، حتى اذا ما انفرد على بك الكبير بحكم مصر شن حربا شعواء عليهم وانتهت بزوا لسلطتهم ، وان لم تقض كلية على نفوذهم ، الذى ظل متغلغلا فى مراكز وقرى الصعيد ، الى أن تولى محمد على حكم مصر ، فسعى الى القضاء على نفوذهم اذ أمعن بالسيف والاعدام فيهم حتى قتل العديد منهم ، كما دمر قراهم واستولى على ممتلكاتهم ، فارتاح من منافستهم له على السلطة ومناوأتهم لحكومته على نحو ما فعل مع المماليك .

وهكذا كان لهوارة الصعيد دور بارز على مسرح الأحداث فى مصر فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر فى الصراع من أجل السلطة والنفوذ .

وعلى الرغم من أهمية هذا الدور التاريخى لهوارة الصعيد ، وأثرهم فى الحياة السياسية والاقتصادية فى البلاد ، فان المؤرخين المحدثين يقصرون عن معالجته ، أو حتى الاشارة اليه حين يتعرضون لحكم المماليك أو لحكم محمد على فى صراع كل منهما ضد القوى المنافسة له فى حكم البلاد — مع أن المؤرخين المعاصرين من أمثال الشيخ عبد الرحمن الجبرتى قد عرضوا له ، اذ تناول هذا المؤرخ المصرى الجليل فى كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » قصة الصراع بين الهوارة والمماليك ، وأفاض بصفة خاصة فى الحديث عن الحرب الأخيرة التى دارت بين على بك الكبير وشيخ العرب همام زعيم الهوارة فى الصعيد ، كما عرض لهذا الدور التاريخى لقبيلة الهوارة بعض الرحالة الموثوق بهم مثل الرحالة بوركهارت Burchardt الذى ضمنه بعض ملاحق كتابه Travels in nubia (رحلات فى النوبة) وقد زار هذا الرحالة السويسرى مصر والسودان فى أوائل القرن التاسع عشر ، واتيحت له فرصة التعرف على بعض زعماء الهوارة والاتصال بهم ، وأمكنه أن يلم بجوانب هامة من تاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم ونظم معيشتهم فى المناطق التى كانوا قد بسطوا نفوذهم عليها ، وبخاصة فى مراكز وقرى قنا ، مما يعد صفحة هامة مطوية فى تاريخهم .

واذا كان قد اتيح لبعض الأساتذة المصريين فرصة ترجمة كتاب رحلة « بوركهارد » السالف الذكر الى اللغة العربية ، مما يعد فى حد ذاته مجهودا علميا يستحق التقدير ، اذ يخدم جانبا هاما من الدراسات الأفريقية بالمكتبة العربية ، الا ان يد الترجمة لم تمتد الى ملاحق هذا الكتاب رغم أهميتها ، وهى التى تناولت فيها تناولت من الموضوعات السياسية والاجتماعية والتاريخية الهامة موضوع بسط الهوارة نفوذهم على الصعيد وموقف محمد على العدائى منهم .

وربما كان هذا التصور وغيره من الدوافع الرئيسية التى دفعتنى للتصدى للكتابة فى هذا الموضوع ، مما قد يلقى الضوء على صفحة هامة مطوية من تاريخنا القومى ، باعتبار أن الهوارة قبيلة من العرب نزحت الى مصر حيث استوطنت مناطق واسعة من الصعيد امتدت كما أسلفنا ، جنوبى أسيوط حتى اسنا ، واستقرت بها وارتبطت بأرضها ارتباطا وثيقا ، بعد أن أفلحوها بكدهم وكفاحهم ومدوا يد العمران اليها ، وتصدوا للحكام من المماليك والأتراك ونازعوهم السلطة عندما سعى هؤلاء الحكام للقضاء على سلطاتهم ونفوذهم الذى أقاموه فى مناطق الصعيد وقد تأصلوا فيها وارتبط تاريخهم ومستقبلهم بها .

وسنتناول فى هذا البحث تاريخ نزوح الهوارة الى مصر ، وازدياد نفوذهم فى الصعيد ، وقيام دولة شيخ العرب همام زعيمهم ، ونظام حكم الهوارة فى الصعيد ، وما يدور من حديث حول جمهورية همام واخيرا زوال شيخ العرب همام على يد على بك الكبير ، ثم موقف محمد على بعد توليه حكم مصر من الهوارة فى الصعيد ، وما كان من أمر تخلصه من معارضتهم لسلطانه بالقضاء على زعمائهم وتدمير قراهم على يد ابنه ابراهيم باشا .

تاريخ نزوح قبيلة الهوارة الى مصر :

يقول مكمائيل Macmichael (٢) البريطانى الذى عنى بدراسة تاريخ القبائل العربية فى مصر والسودان « ان قبيلة هوارة نزحت من بلاد المغرب الى مصر حيث استقرت فى مديرية البحيرة ثم اضطرت فى القرن الرابع عشر الميلادى تحت ضغط قبائل زنارة وحلفائهم من عرب

هذه المديرية الى الهجرة جنوبا ، فاستقر الكثير منهم فى مديريات الصعيد المختلفة ، وهناك اخذ يعلو شأنهم عندما استقروا في جرجا وما حولها عام ١٣٨٢ زمن حكم الأمير برقوق أول امراء المماليك البرجية ، اذ بفضل مهارتهم ومثابرتهم فى الزراعة امكن استخلاص الأراضى من براثن الصحراء، بعد أن كانت رمال الصحراء قد طغت عليها ، ونجح الهوارة دون سائر القبائل الأخرى التى هاجرت الى مصر من بلاد المغرب فى توطيد اقدامهم فى وادى النيل (٣) . ويمضى الزمن زاد عددهم وقوى بأسهم حتى انتشروا فى معظم الوجه القبلى ، وبسطوا نفوذهم فى مراكز قنا .

ازدياد نفوذ الهوارة وقيام دولة شيخ العرب همام :

على أن نفوذ الهوارة فيما يبدو قد امتد الى الجنوب من قنا حتى اسوان اذ يضيف مكمايكل Macmichael الى ذلك « انه قرب نهاية القرن الرابع عشر هاجم الهوارة بالاشتراك مع أولاد كنز مدينة أسوان ، وبعد ذلك ببضع سنوات انقلبوا على حلفائهم ، واستولوا على المدينة بأنفسهم بعد أن أعملوا السيف فى أهلها » (٤) .

أما الرحالة « بوركهارد » Burchardt الذى زار وادى النيل فى أوائل القرن التاسع عشر ، فبعد أن وصف أنتشار الهوارة فى وقت زيارته فى القرى الممتدة على الضفة القريبة للنيل من اسيوط شمالا الى فرشوط جنوبا ، وبالقرب من قنا على الشاطىء الشرقى ، وتمتعهم بالقوة والثروة ، فانه يروى لنا بالتفصيل كيف أن اسرة زعيمهم همام أبو يوسف (فى القرن الثامن عشر) قد ادعت لنفسها حكم مصر العليا (الصعيد) جنوب اسيوط ، وان المماليك فى ذلك الوقت قد اضطروا الى الاذعان والاتفاق معهم على ترك هذه البلاد تحت نفوذهم « نفوذ الهوارة » (٥) .

ثم يضيف « بوركهارد » الى ذلك « أن همام المذكور قد أمكنه أن يبسط سلطانه شمال النوبة التى زارها مرات عديدة وتوغل جنوبا حتى المحس » (٦) .

نظام حكم الهوارة فى الصعيد :

هكذا نجح الهوارة بزعامة همام أبو يوسف في اقامة دولة لهم فى الصعيد عرفت باسم دولة شيخ العرب همام . وبعض الكتاب المجتهدين يرى أن نظام الدولة التى أقامها همام فى الصعيد كان جمهوريا، وأن همام أول من أقام النظام الجمهورى فى مصر ، وان مصر بذلك تكون قد عرفت تجربة النظام الجمهورى على يد همام قبل الثورة الفرنسية نفسها بسنوات ، ويستدل على ذلك بأقوال بعض المؤرخين والكتاب الذين عاصروا هذه الحقبة من الزمن التي قامت فيها هذه الدولة فى القرن الثامن عشر (١٧٦٥ — ١٧٦٩) .

ان الدكتور لويس عرض فى كتابه « المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث (البحث الثانى) الفكر السياسى والاجتماعى » يؤكد هذا الراى مستندا الى اقوال بعض المعاصرين أمثال رفاعة الطهطاوى فى كتابه « تخليص الابريز » وما ورد فى مذكرات المعلم (الجنرل يعقوب) فى مشروع استقلال مصر الذى قدمه عام ١٨٠١ م الى الدول الأوربية مشيرا فيه الى حكومة شيخ العرب همام فى الصعيد كمثل يمكن أن تكون عليه حكومة مصر عند حصولها على الاستقلال .

فقد ذكر رفاعة الطهطاوى فى وصفه لحالة الراى العام فى فرنسا عام ١٨٣٠ بأن ثورة لويس فيليب ملك الفرنسيين على شارل العاشر قوله « اعلم ان هذه الطائفة (يقصد الفرنسيين) متفرقة فى الراى فرقتين أصليتين وهما الملكية والحرية ، والمراد بالملكية أتباع الملك القائلين بأنه ينبغى تسليم الأمر لولى الأمر من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشىء والآخرون يميلون الى الحرية بمعنى انهم يقولون لا ينبغى النظر الا فى القوانين فقط والملك انما هو منفذ للاحكام طبق ما فى القوانين فكأنه عبارة عن آلة ، ولا شك أن الرأيين متباينان .. ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة تريد أن يكون الحكم بالكلية للرعية ولا حاجة الى ملك أصلا.

« ولكن لما كانت الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة ، وجب أن توكل منوا من تختاره منها للحكم ، وهذا هو مثل مصر فى زمن حكم الهماوية فكانت أمارة الصعيد جمهورية التزامية » (٧) .

ويعلق الدكتور لويس عوض على ذلك بأن هذا الكلام خطير لأن معناه أن مصر قد عرفت تجربة النظام الجمهوري قبل الثورة الفرنسية نفسها بسنوات قليلة . وأهمية هذا الكلام من أنه صادر من مفكر كبير مثل رفاعه الطهطاوى العارف أدق معرفة بالنظم والمذاهب السياسية ، وهو لا يمكن أن يطلق القول على النظام الجمهورى فى فرنسا ويشبهه بالنظام الجمهورى فى مصر الا اذا كانت معلوماته عن ثورة همام تؤكد ذلك (٨) .

ويفسر الدكتور لويس مفهوم الجمهورية عند رفاعه فى جمهورية شيخ العرب همام « بأن أركان الفكرة الجمهورية عند رفاعه الطهطاوى كما حددها هى « أن يكون الحكم بالكلية للرعية » أى أن الأمة مصدر السلطات كما نقول نحن فى الدساتير الحديثة وانه « لا حاجة للملك أصلا » أى أن يكون للدولة رئيس وجهاز حكم غير متوارث وانما نابع من القاعدة الشعبية وان الأمة وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم ، وهذا التوكيل سواء تم عن طريق الانتخاب أو عن طريق الاستفتاء أو عن طريق البيعة أو عن طريق آخر هو المقابل لفكرة التوكيل أو التفويض » (٩) .

أما بالنسبة لما ورد عن جمهورية همام فى مشروع المعلم يعقوب (الجنرال يعقوب) الخاص باستقلال مصر الذى قدمه عام ١٨٠١ الى الدول الأوربية كنموذج لنظام الحكم الذى يقترح قيامه فى مصر المستقلة ، ففى القسم السابع من مذكراته (مذكرات المعلم يعقوب) التى قدمها سكرتيره الفارس لاسكارس الى الكابتن جوزيف ادموندز ، قومندان السفينة بالاس لرفعها الى مجلس الوزراء البريطانى عن طريق وزير البحرية البريطانية، يذكر المعلم يعقوب « واذا ما اجازت الحكومات الأوربية استقلال مصر فالسؤال هو كيف يحكم المصريون أنفسهم ، وكيف يدافعون عن استقلالهم.. فلتكن الحكومة الجديدة عادلة وقاسية وقومية كحكومة شيخ العرب همام فى الصعيد التى رويت لك قصتها فهى بالتأكيد سوف تكون موضع الاحترام والطاعة والحب » .

ومهما يكن من أمر نظام الدولة التى أقامها شيخ العرب همام فى الصعيد ، فان الذى يعنينا فى هذا المقام هو الوقوف على نظام حكم الهوارة

لبلاد الصعيد التى خضعت لنفوذهم ، وهو ما عنى بابرازه الرحالة بوركهارد Burchardt الذى جاء الى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر ، وزار مناطق الهوارة فى الصعيد واختلط ببعض زعمائهم ، وتعرف على عاداتهم وتقاليدهم وجوانب هامة من تاريخهم ونظم حكمهم سجلها فى ملاحق كتاب رحلته .

ان الرحالة بوركهارد Burchardt يصف نظام حكم الهوارة فى الصعيد بالصرامة والتعالى ، ويذكر انهم كانوا يفرضون ضريبة على الأرض وكذلك كانت تفرض المكوس على التجارة وبخاصة فى قنا وفرشوط وجرجا ، ويضيف « بوركهارد » الى ذلك أن كثيرا من اقارب همام كانوا يحكمون فى مراكزهم بالقسوة وان القبط كانوا أكثر تأثرا بقسوتهم ، فقد تعرضوا — باستثناء من كان يعمل منهم لدى الهوارة ككتبة أو صيارفة — لأعمال الاغتصاب وبخاصة من كان يعمل منهم فى الزراعة أو صناعة النسيج ... وكان الفقراء منهم يعملون كرقيق للارض مقابل تمتعهم بالحماية أو امدادهم بالقوت والكساء واذا حدث أن أصاب أحدهم الثراء فانه يعفى من الأعمال الشاقة ويحمى من استبداد أى شيخ آخر ، ولكن يضطر الى تقديم الهدايا لسيده من وقت لآخر فى كل مناسبة » (١٠)

ويحدثنا « بوركهارد » عن نظام فرض الضريبة على الأرض الزراعية « بأن شيوخ القرى كانوا يتسلمون ضريبة الأرض من الفلاحين ، وفى كل جزء من المناطق التى خضعت لنفوذ الهوارة كانت الضريبة على الأرض لا تفرض على الفدان كما هو الحال الآن ، وانما كل مركز يدفع المبلغ الاجمالى للضريبة المقررة عليه وشيوخ القرى كان لهم الحرية فى توزيعها على الفلاحين حسب هواهم ، وعن هذا الطريق جمعوا ثروة كبيرة » (١١) .

أما مناطق الصعيد التى خضعت لنفوذ الهوارة وطبق عليها هذا النظام الضريبى فان الرحالة « بوركهارد » يؤكد أن قبيلة الهوارة كانت تحتل جميع القرى على الشاطىء الغربى للنيل من قرب أسيوط شمالا حتى فرشوط جنوبا ، وبالقرب من قنا على الشاطىء الشرطىء الشرقى للنيل وان أكثر الفلاحين ثراء فى هذه القرى كانوا يتبعون هذه القبيلة وحتى تولى محمد على حكم مصر كانوا أقوياء جدا ، وفرع أولاد يحيى الذين استقروا على

الضفاف الشرقية للنيل من بهجوره وحتى قنا وتشمل القرى الكبيرة للسلامية والقصير والصياد وفاو والشناورية ، حازوا على شـــهرة كبيرة بأعمـــالهم الثورية وقيامهم بالثورات (١٢) .

واخيرا يشرح الرحالة « بوركهارد » الدعائم التى ارتكز عليهـــا حكم الهوارة فى الصعيد بقوله « ان اقليم الهوارة اشتهر بأنه أغنى بقاع مصر بالخيول وكل فلاح كان يمتلك حصانا ، ومن ثم فان كتيبة كبيرة من الفرسان كان يمكن جمعها فى اللحظة الحاسمة . وفى الوقت نفسه كانت أراضيهم تزرع جيدا ومن أكثر البقاع المصرية ازدحاما بالسكان . ومن تل بمدينـــة طهطا الصغيرة استطعت أن أحصى حسب امتداد بصرى ٣٥ قرية » (١٣) .

ولقد امتدح الرحالة « بوركهارد » طبيعـــة الـــكرم التى اشتهر بها شيوخ الهوارة وقد بات ليلة عند واحد منهم بقرية مقابل ابيدوس . ويذكر انه وجد فى بيت هذا الشيخ الهوارى فى تلك الليلة أكثر من ستين شخصا يتناولون طعام العشاء فى فناء البيت (١٤) .

أما عن علاقات الهوارة بجيرانهم من البدو والقبائل الأخرى المجـــاورة فان الرحالة « بوركهارد » يذكر أن حكم الصعيد لم يخلص للهمامية تماما ، فقد كانوا يتعرضون للهجمات المتواصلة من بدو ليبيـــا ، وكذلك من القبائل القاطنة فى الصحراء غرب أسيوط فى السهل المواجه لبنى عـــدى ، وان معارك دموية كانت تنشب بينهم ولا يزال الهوارة يذكرونها حتى اليوم ، وكذلك كانوا يتعرضون لهجمات أعدائهم التقليديين من قبيلة « قصاص » التى تقطن البلاد الواقعة على الضفاف الغربية من طيبـــة الى القرب من اســـنا (١٥) .

هزيمة الهوارة وزوال دولتهم على يد على بك الـــكبير :

على أن الخطر الحقيقى الذى كان يتهدد دولة الهوارة لم يكن يتمثل فى البدو أو القبائل الأخرى المجاورة لهم التى كانت تشن عليهم الغـــارات من وقت لآخر ، وانما كان يتمثل فى منافسيهم الأصليين على السلطة والحكم من المماليك . فهؤلاء وان كانوا قد اتفقوا معهم على ترك حكم الصعيد لهم فانما كان ذلك تحت ضغط ازدياد قوة الهوارة فى هذه البلاد وعدم قدرة المماليك

على مواجهتها . بيد أن أن ذلك لم يستمر طويلا ، اذ سرعان ما استعاد المماليك قوتهم عقب انفراد على بك الكبير بحكم مصر ، فتوالت هجماتهم على الهوارة الذين انهزموا أمامهم فى عدد من المعارك الدموية ، وقد جرح خلالها الزعيم همام الهوارى ، واضطر الى الفرار الى اسنا ، حيث توفى ودفن بالقرب من نقاده مقابل قوص (١٦) .

ولقد وصف الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المصرى المعاصر المرحلة الأخيرة من مراحل الصراع بين المماليك والهوارة من أجل السلطة، وما كان من أمر الحرب الفاصلة التى دارت بين قوات على بك الكبير بقيادة محمد بك أبو الذهب والهوارة ، والتى انتهت بهزيمة شيخ العرب همام وزوال دولته ، وما كان لخيانة ابن عم همام من اثر فى الهزيمة .

يقول الجبرتى « وكان من أمرهم أنه لما ذهب محمد بك أبو الذهب الى جهة قبلى لمنابذة شيخ العرب همام كما تقدم وجرى بينهما الصلح على أن يكون لهمام من حدود برديس (١٧) وتم الأمر على ذلك ورجع على بك الى مصر أرسل على بك يقول له انى امضيت ذلك بشرط أن تطرد المصريين الذين عندك ولا يبقى منهم احدا بدائرتك فجمعهم وأخبرهم وقال لهم اذهبوا الى اسيوط واملكوها قبل كل شيء ، فان فعلتم ذلك كان لكم بها قوة ومنعة ، وانا امدكم بعد ذلك بالرجال والمال واستصوبوا رأيه وبادروا وذهبوا الى أسيوط ، وكان بها عبد الرحمن كاشف من طرف على بك الكبير وذو الفقار كاشف ، وكانوا قد حصنوا البلدة وجهاتها وبنوا كرانك والبوابة ، وركبوا عليها المدافع.. واشعلوها وأحرقوا الباب وهجموا على البلدة ولم يكن بهم طاقة لكثرتهم وهم (جماعة صالح بك وباقى القاسمية وجماعة الخشاب وجماعة الفلاح وجماعة مناو ويحيى السكرى ... وغيرهم ومعهم كبار الهوارة واهالى الصعيد فملكوا أسيوط وتحصنوا بها وهرب من كان فيها ، وقد وردت الأخبار بذلك الى على بك فعين للسفر ابراهيم بك بلقيا ومحمد بك أبو شنب ... ومن كل وجاق جماعة وعساكر ومغاربة ... ثم سافر محمد بك أبو الذهب ورضوان بك وعدد من الأمراء والصناجق وضم اليهما ماجمعه وجلبه من العساكر المختلفة الأجناس من ولاة ودروز ومتاولة وشوام ... وذهب الجميع الى

أن وصلوا الى قرب أسيوط ...وتيقظ القوم واستعدوا لهم فالتطموا معهم وهم قليلون بالنسبة لهم ووضع الحرب واشتد الجلاد وبذلوا جهودهم فى الحرب ... وانجلت الحرب عن هزيمتهم ونصرة المصريين عليهم وذلك عند جبانة اسيوط ...واقاموا بأسيوط أياما ثم ارتحلوا الى قبلى بقصد محاربة همام والهوارة ، واجتمع كبار الهوارة مع من انضم اليهم من الأفراد المهزومين ، وراسل (محمد بك أبو الذهب) محمد بك اسماعيل ابو عبدالله وهو ابن عم همام ومناه ووعده برياسة بلاد الصعيد عوضا عن شيخ العرب همام ، حتى ركن الى قوله وصدق تمويهاته وتقاعس وتثبط عن القتال وخذل طوائفه . ولما بلغ شيخ العرب همام ما حصل ورأى فشل القوم خرج من فرشوط وبعد عنها ثلاثة أيام ، ومات مكمودا مقهورا ، ووصل محمد بك ومن معه الى فرشوط فلم يجد مانعا فملكوها ونهبوها ، وأخذوا جميع ما كان بدوائر همام وأقاربه واتباعه من ذخائر وأموال وغلال وزالت دولة شيخ العرب همام من بلاد الصعيد من ذلك التاريخ كأن لم تكن » (١٨) .

محمد على ومذبحة الهوارة :

على أن هزيمة الهوارة على يد على بك الكبير عام ١٧٦٩ وان كانت قد قضت على دولتهم التى زالت نهائيا منذ هذا التاريخ ، الا أنها لم تقض تماما على نفوذهم فى المراكز التى انتشروا فيها فى الصعيد ،اذ يبدوا أنهم سرعان ما جمعوا شملهم واستعادوا قوتهم بعد زوال دولة على بك الكبير . وهو ما يؤكده الرحالة « بوركهارد » Burchardt الذى زار مراكز الهوارة واختلط بهم من خلال زيارته لمصر عام ١٨١٣ ، اذ يذكر هذا الرحالة « ان سلطان الهمامية قد قضى عليه تبعا لذلك ، ولكن فيما يتعلق بقوة الهوارة ، فقد ظلت قائمة ، وانه على الرغم من ان بكوات المماليك كانوا فى حرب دائمة معهم ، فانهم لم يستطيعوا كسر شوكتهم » (١٩) ويستدل « بوركهارد » على ذلك — على سبيل المثال — بأولاد يحيى الذين ظلوا دائما محافظين على استقلالهم ، وكذلك بشيوخ القرى أنفسهم الذين كانوا يتسلمون ضريبة الأرض من الفلاحين (٢٠) .

وعند تولى محمد على حكم مصر عام ١٨٠٥ وجـد الهوارة يتمتعون بالقوة فى المناطق التى بسطوا عليها نفوذهم فى الصعيد ، ومن ثم عمل على القضاء على نفوذهم فى هذه البلاد بمثل ما فعل مع المماليك . وقد قضى عدة سنوات قبـل أن يتمكن من اخضـاع الهوارة فى المراكز التى انتشروا فيها . والرحالة « بوركهارد » قد أوضح لنا الوسائل التىانتهجها محمد على للقضاء على نفوذ الهوارة فى الصعيد .

يقول الرحالة « بوركهارد » Burchardt لقـد قام حكام محمد على فى الصعيد : عابدين بك وصـالح اغا وحسين باشا ، بنهب الكثير من قراهم . ولـكن ابنه ابراهيم باشا هو الوحيد الذى استطاع أن يثبت سلطته فى هذه الجهات عن طريق القسوة والصرامة التى اتبعها مع زعماء الهوارة بأن قتل بالسيف أو عن طريق تنفيذ حكم الاعدام فيما يقرب من الفى هوارى على اقل تقدير . كما غير شيوخ القرى بنفس الطريقة التى غير بها الزعيم الوهابى شيوخ شبه الجزيرة العربية ، فمزق وحدة القرى بينهم ، وعاقب بشدة وبدون رحمة جميع الذين كانوا يبدون أدنى معارضة أو مقاومة لسلطته . وآخر قرية من قرى الهوارة دمرها ابراهيم فىالصعيد كانت أرمنت المقر الرئيسى للقصـاص ... ففى خريف عام ١٨١٣ أنقض ابراهيم ليلا على القرية وقتل حوالى الثلاثين من الشخصيات البارزة فيها وسلب الجميع أموالهم وممتلكاتهم » (٢١) .

ويضيف الرحالة « بوركهارد » الى ذلك « أنه منذ ذلك التاريخخضع الصعيد كله لسلطانه ، واضطر الهوارة الآن الى أن يتركوا خيولهم ،ولا أحد غير شيوخ القرى يجرؤ على الاحتفاظ بها ، وتبعا لذلك تضاءلت قوة فرسانهم الرهيبة (٢٢) .

مراجع البحث

— Burchardt : Travels in Nubia, Appendix III.

— Macmichael : A history of the Arabs in the Sudan Vol. I.

ــ عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .

ــ رفاعه الطهطاوى : تخليص الابريز طبعة القاهرة ١٩٠٥ .

ــ لويس عوض (دكتور) : المؤثرات الأجنبية فى الأدب العـــربى الحديث (المبحث الثانى) الفكر السياسى والاجتماعى .

ــ محمد عوض محمد (دكتور) : السودان الشمالى .

ــ مذكرات الجنرال يعقوب .

الحواشى

(1) Burchardt : Travels in Nubia, Appendix III, pp. 152 _ 531 - 533.

(2) Macmichael : A history of the Arabs in the Sudan, Vol. I, p. 152.

(٣) يحدثنا مكمايل Macmichael عن وجود قبيلة تعرف باسم « الهوارة الجــلابة » تعيش فى اقليم دارفور غرب الســودان احترفوا التجارة . ولعلهم قــد انتقلوا الى شمال هذا الاقليم برفقة جلابة الغوز، وبعض هؤلاء الجلابة اتخذ كردفان موطنا له حيث أخذ فى تشييد القرى فى المنطقة الممتدة من بارة الى الأبيض وفى منطقة أم روابه ، بعــد أن استولوا على الأرض من الجوامعة .

(Macmichael : Op. Cit., p. 335).

وهناك قبيلة أخرى تعرف « بالهواوير » فىاقليم دنقلة التى اشتهرت بتربية الأبل ، وقــد كانت هجرتهم الى هذا الاقليم ــ كما يذكر الدكتور/ محمد عوض محمــد فى كتابه الســودان الشمالى ــ على فترات وأزمنة مختلفة ، ولعلهم قد اتخذوا الطريق المحاذى للنيل فى هجرتهم الى هــذا الاقليم . (محمد عوض محمد ــ السودان الشمالى ص ٢٤٩) .

ويضيف مكمايكل Macmichael الى ذلك أن نشاط الهواوير امتد فى موسم المطر الى مراعى شمال كردفان ، حيث أصبحوا يجاورون الـكبابيش من ناحية الشمال الشرقى .

(Macmichael : Op. Cit., p. 335).

(٤) المصدر السابق ص ١٥٢ .

(5) Burchardt : Travel s in Nubia, Appendix III, pp. 531 - 533.

(٦) المصدر السابق ص ٥٣١ ــ ٥٣٣ .

(٧) رفاعه الطهطاوى : تخليص الابريز : ص ١٩٦ ــ ١٩٧ .

(٨) لويس عوض (دكتور) : المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث ــ البحث الثانى ــ الفكر ص‌ش .

(٩) نفس المصدر والصفحة .

(10) Burchardt : Travels in Nubia, Appendix III, pp. 531 - 533.

(١١) نفس المصدر ص ٥٣١ــ٥٣٣ .

(١٢) نفس المصدر ص ٥٣١ــ٥٣٣ .

(١٣) المصدر السابق ص ٥٣١ .

(١٤) المصدر السابق ص ٥٣٣ .

لايزال الهوارة فى الصعيد يتحلون بصفة الـكرم بصرف النظر عن المستوى المادى لأى واحد منهم وهم يمدون العون للفقـير والمحتـاج ، ويسارعون لنصرة الضـعيف والمظلوم وتغلب علهيم النخوة والشهامة فى معاملاتهم ومن هنا اكتسبوا محبة الناس وتقديرهم .

(15) Burchardt : Travels in Nubia, Appendix III, p. 532.

(16) Burchardt : Op. Cit., 532.

ويضيف « بوركهارد » الى ذلك ، وقد اتيحت له فرصة زيارة هـذه المراكز التى خضعت لنفوذ الهوارة « ان شيخ العرب همام كان يملك كنزا من الأموال التى جمعها اثناء حياته . وقد حاول خصومه العثور عليه . وتحت ضغط الاضطهاد الذى تعرض له اهله اعترفوا بأنه كان قـد دفن هذا الـكنز فى الجبال بالقرب من بلدة هو (مركز نجع حمادى ــ قنا) . ولـكن لم يعثر على شىء منه على الرغم من أن الـكثيرين حتى اليوم ومن بينهم فلاحون معدمون وتجار متجولون وعرافون يتجولون فى هذه المنطقة على أمل العثور على هذا الـكنز » .

Burchardt : Op. Cit. p. 532.

(١٧) ففى عام ١٧٦٩ م (١١٨٣هـ) ارسل على بك الـكبير محمد أبو الذهب بتجريدة الى الهوارة وعين ايوب بك سنجقا على جرجا . ولم تحدث مناوشات بين جيش محمد أبو الذهب وجيش همام الذى كان يمتد حكمه من المنيا حتى الشلال ، وتم الصلح بلا قتـال على تقف حدود همام عند برديس (قرب جرجا) ويضيف الجبرتى الى ذلك أن محمد أبو الذهب قائد على بك الـكبير انجب ولدا فى ذلك العـام فنزل له همام عن برديس أيضا اكراما له وهبة للمولود (الجبرتى ــ ص ٣٣٥) .

وربما كان ذلك من قبيل الرشـوة التى لم تفلح بدليل تجدد الحرب بين على بك والهوارة التى انتهت بهزيمتهم وزوال دولتهم .

(١٨) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ١ ص ٣٣٥ — ٣٣٦ .

(19) Burchardt : Travels in Nubia, Appendix III, pp. 532 - 533.

(20) Burchardt : Travels in Nubia, Appendix III, p. 533.

(21) Ibid.

(22) Ibid.